

حرب الافكار

العقيد الركن المتقاعد
المحامي
عزيز قادر

1. The first part of the paper is devoted to the study of the properties of the function $f(x)$ defined by the equation

$$f(x) = \int_0^x \frac{1}{1+t^2} dt$$

2. It is well known that the function $f(x)$ is increasing and concave down on the interval $(-\infty, \infty)$.

مقدمة المؤلف

ليس من قبيل الصدفة ، أن نرى معظم المؤلفين من القادة العسكريين ، والزملاء ، وكبار رجال السياسة ، وغيرهم ، ومن ذوي الاختصاص والمفكرين ، قد وضعوا مؤلفاتهم ، أو كتبوا مذكراتهم واصلحوها ، في الفترة التي قضاها ، في الاجازة النهائية (فترة التقاعد - قبل الرحيل الى عالم الخلود) لسبب واضح هو : ربما ، لان « بومة أثينا لا تطير الا عند الغسق » (١) أو لان وضعهم لم يكن يتيح لهم الحصول على المعلومات الكافية ، بسبب المشاغل ودوام الحياة الوظيفية واليومية العامة .

وهذا ماكان بالنسبة لهذا الكتاب المتواضع الذي أضعه بين يدي القارئ الكريم ... تحت عنوان « حرب الافكار » .. وهو حصيلة دراسة مختلف الفروع العلمية والفلسفية والانسانية ، والاجتماعية .. وغيرها ، فضلا عن الاستمرار في دراسة النظريات الحرة والستراتيجية (السوقية) على وجه الخصوص ، ولمدة اكثر من عشر سنوات ، وهي المدة « منذ احالتي على التقاعد عام ١٩٧٦ وحتى الانتهاء من تأليف هذا الكتاب » .

(١) بومة : طائر يمثل الحكمة والتعقل عند الاغريقين : ويضرب به هذا المثل: ويعني ان الفكر لا يصل الى ذروة تطوره الا عندما يصل الانسان الى عامه الخامس والاربعين او الخمسين وعليه من الغرور ان يحاول المرء قبل ذلك دراسة حياته السابقة ، وفهم الالهام الذي كان يدفعه ، ليستنتج من ذلك دروسا يطرحها على الآخرين .

ولم تكن تدور بخلدي ، في بادئ الامر ، نية التأليف ، او الكتابة في أية موضوعات معينة ، بل الرغبة كانت تدفعني الى التتبع والدراسة ، ردما للفجوات التي كنت أحس بوجودها في البنية الثقافية والعلمية ، الاختصاصية والعامية .. والتي كنت أمتلكها ، من مجمل دراساتي الاكاديمية ، ومطالعاتي الخارجية أثناء الخدمة وبعدها ..

غير أن فكرة الكتابة ، لم تتبلور في ذهني ، الا بعدما أحسست باكمال إقامة الجسور على بعض تلك الثغرات ، وردم الهوة بين مختلف الموضوعات ، ولكن هذا ، لا يعني ، انني ادعي ، بلوغ التكامل الثقافي والعلمي ، لان ذلك أمر يستحيل الوصول اليه لكل انسان .

أما فيما يتعلق باختياري لموضوع الكتاب ، فقد قادتني تأملاتي ودراساتي ، واقتعتني مطالعاتي بأن « الحروب ، ابتداءً تنشأ في الافكار وتنتهي في الافكار في نهاية المطاف » .

وهذا ما حملني ، على ان اعطي للحرب اسما جديدا هو : « حرب الافكار » واعتبره عنوانا مناسباً لموضوع كتابي هذا الذي يبحث ، بالدرجة الاساس ، عن كل ماله علاقة بالفكر وصفاته ، من موضوعات الحرب والاستراتيجية ، ومفرداتها ، بغية ابراز دور القيم الفكرية الواسع والحاسم في قيادة الاحداث والتأثير بالقيم المعنوية والمادية وتأثرها بهما

عسى ان اكون قد وفقت في هذا الاختيار للعنوان ، وموضوع الكتاب ، بأن معا ، وآمل ان يحقق الفائدة المرجوة ، ويستفيد منه القارئ العسكري والمثقف والمدني على حد سواء .

وقد يكون من الاوفق ، ان يعلم القارئ مسبقا لكي لا يستغرب ، خروجي عن العادة المتبعة في هذا النوع من المؤلفات ، وابتعادي عن سرد الشروحات التاريخية ، لغرض استنباط الدروس المستفادة من الحروب

السابقة ، لان ذلك ليس الهدف من هذه الدراسة ، وانما الهدف منها ، إعادة جميع الامور الى الاصل ، أي الى « الافكار » ، لان الافكار ، تكون مهلكة ومنقذة بمفرزات الخطأ والصواب تماما كاستعمال السلاح السيء او الجيد.. وينبغي ان نعلم بان الفكر ، لا يقارع الا بفكر ألمع ، كما ان العقيدة لا تناهض الا بعقيدة اسمى وأرسخ ..

على ذلك ، توخيت قدر الامكان ، تحاشي كل ماهو مألوف ، ومعروف وسبق ذكره وتكراره في العديد من المؤلفات ، فيما يتعلق بدراسة الحرب كأسباب ونتائج .. وعليه فقد اقتصر البحث على الجوانب المؤلفة من عناصر القوى المعنوية والمادية وعوامل اخرى غير مادية وغير ملموسة ، التي لها جميعا علاقة ، وارتباط ، وآثار متبادلة مع القيم الفكرية ، ايجابا وسلبا وحياداً .

لذا فقد تضمن « الجزء الاول » من الكتاب في الفصلين «الاول والثاني» دراسة العلاقة القائمة بين الفكر والحدث ، والحرب (كحدث) تستمد قوتها من الفكر ..

ولما كان من السابق لاوانه ، البحث عن هذا الموضوع هنا عليه نكتفي بالتلميح الى وجود آثار متبادلة بينهما ، الا ان عمل الفكر ، هو الاول ، الذي يميز الامور المتشابهة والغامضة ، ولكن ليس عمل كل فكر هكذا دائما . وانما هناك صفات فكرية عليا ، خلاقة ، مطلوبة في الحرب كضرورة ملحة .. ولكن المطلوب ليس الفكر المجرد وحده ، وانما الفكر المدعوم بالقوة المعنوية وقوى النفس والارادة والشخصية ..

وعليه فقد تضمن البحث في الفصول (الثالث الى العاشر) علاقة الفكر بعناصر القوى المعنوية التي فضلنا تسميتها « بانفضائل الحربية » وهي تتألف من (فضيلة العبقرية الحربية ، وفضيلة الشجاعة العسكرية ، وفضيلة الاقدام وفضيلة الحزم والصمود ، ، وفضيلة روح الوحدة او القطعة واخيرا فضيلة القيادة »

وفي الفصل (التاسع) تكلمنا عن الامزجة البشرية ، لعلاقتها بهذه الفضائل الحربية . كما وتناولنا في الفصل الاخير من الجزء الاول (الفصل الحادي عشر) البحث عن عوامل غير مادية وغير ملموسة وهي (القدر والحظ - والصدفة والشك) هذه العوامل التي تلعب دورها في الحرب بعمق وسعة أكثر مما تلعبه في الحياة . حيث قد تأتي لتعقد كل الامور او تحل كل العقد وتبسط كل المشاكل ... مع ذلك فمن المدهش حقاً ، تناسي ، او اهمال آثار هذه الظواهر الخارجية في الحرب بالرغم من أهميتها وخطورتها ، وتأثيرها في تقرير مصائر الاشتباكات (المعارك) وعدم متابعتها سوى من قبل قلة من المنظرين العسكريين والمفكرين ، وبشكل عابر في معظم الاحيان .

ومن ثم عرجنا في « الجزء الثاني » من المؤلف في الفصول (الثاني عشر الى الفصل السادس عشر) على معالجة الفكر وعلاقته بالنظريات الحربية والستراتيجية ، على اعتبار ان النظرية (كل نظرية) تعني في حد ذاتها « رؤية فكرية » موجهة لكشف طبيعة الاشياء والقوانين التي تحكمها . وهي بهذه الصورة ، ليست رؤية محدودة المدى ... وكما ان اول مهمة لكل نظرية من النظريات هي ، ترتيب الافكار والمفاهيم المتشابهة والغامضة ، وتصنيفها ، بغية العثور على قواعد وأسس ومبادئ عامة وثباته ، للتعامل مع الاشياء وفق قوانينها الخاصة ...

ولا يقودني الخجل الى اخفاء حقيقة كون دراستي هذه ، اولية ، مبنية على أسس اولية مسبقة ، وضعها كبار رجال الحرب والفكر ، (ولست بحاجة الى ذكر اسمائهم هنا ، لانني اشرت اليهم في الهوامش) الذين صرحوا بانفسهم بانهم تركوا الباب مفتوحاً لمن يأتي بعدهم ، للاستزادة والاستكمال ، وها أنا فاعل ذلك ، وبدوري اترك الباب مفتوحاً لغيري ، أقراراً مني بعدم الكمال ، لان الكمال لله وحده وهو ولي التوفيق .

المؤلف

الجزء الاول

الجزء الاول

الفصل الاول

« الفكر والحدث

- الانسان هو صانع الحرب ، وهو أدواتها الاولى •
- ان القوى العقلية للانسان ، هي محرك الحرب •
- ان الفكر البشري فوق جميع القوى في العالم •
- الفكر هو الاساس الخلاق لكل حدث ، حتى •
وان كان انعكاسا للحدث ذاته •
- ان توليد الفكر يأتي لاحقا لتوليد الحدث (الحرب)
فمن الذي يقود الاخر - الفكر ام الحدث ؟... •
- هنالك علاقة خفية بين طرائق رجل الحرب وطرائق
رجل الفكر ، الا أن رجل الحرب في وضع أفضل
من رجل الفكر •
- ما علاقة النشاط الفكري ، بباقي النشاطات
البشرية ؟... وماهي سماته الاساسية
وأوصافه ... ؟ •

الفصل الاول

الفكر والحدث

« أنا افكر اذن أنا موجود »

« ديكارت »

« ان التفكير القوي الواضح في داخل المكتب شيء جميل حقا ،
الا أن التفكير يمثل هذه القوة وانوضوح وسط القذائف
هو الممارسة المثالية للقدرات الانسانية » (١) .

« غوفيون سان سير »

١ - الانسان هو صانع الاحداث ومنها الحرب ، كحدث ، وهو أدواتها
الاولى ، ولكن الحرب تستخدم جميع قوى هذا الكائن ، المادية ، والعاطفية
والمعنوية والفكرية الكامنة . . الا ان القوى العقلية للانسان هي محرك
الحرب ، فمنها تنبثق الارادة والتصميم ، والفضائل الحربية الاخرى ، الى
جانب اساليب القتال وفنونه ، وتنظيمه وشكله ، فلا غرابة في ذلك لان الفكر
البشري فوق جميع القوى في العالم ، لانه مكتشفها ، وفاتح رموزها ،
واسرارها ، وموجهها نحو الخير والسعادة احيانا ، والدمار احيانا اخرى ،
وهو الذي بدل سطح الارض ، وشيد الحضارات وقوضها (٢) .

- (١) الذكاء والقيم المعنوية - الجنرال جان بيريه (ص ٢١٩) تعريب
اكرم ديري والمقدم الهيثم الايوبي .
(٢) المصدر السابق (ص ٥) .

إذا كنا سنتبع التقليد الدارج الذي جعل العسكريين في كل الأزمنة ،
يهتمون بتدخل الذكاء (الفكر) في الصراعات المسلحة ، علينا ان نحدد
صفاته بوضوح بالنسبة للأنواع الأخرى من انشطاطات العقلية الواعية
للإنسان ، التي تتمثل ، منذ زمن بعيد ، على شكل نشاطات فكرية ، معنوية ،
جمالية ، دينية ، اجتماعية •

ونحن نقدم النشاط الفكري على الأنواع الأخرى ، لا ، لانه يتمتع
بقسط اكبر من الفعالية ، بل هو الأساس الخلاق ، لكل حدث ، حتى وان
كان انعكاسا للحدث ذاته في ذهن الإنسان كما يرى ذلك كارل ماركس •

وهذا لا يعني اننا نرى النشاطات الفكرية مختلفة بعضها عن بعض ،
بصورة جذرية ، كما لا ننكر تأثيراتها المتبادلة في بعضها ، ولكن عمل الذكاء
(الفكر) هو الأول الذي يميز الأمور ، ويصنفها ، ويضع الأولويات ،
والمفاضلة لمجموعة من الأمور المتشابهة والغامضة ، ولكن ليس عمل كل
فكر هكذا دائما ، وانما هناك صفات فكرية عليا مطلوبة في الحرب ايدا ،
وهي كما يقول (كلاوزفيتز) •• « القدرة على التركيب والحكم •• على ان
تكون هذه القدرة مرتفعة بحيث تصل الى نظرة فكرية رائعة ، تلامس وتطرد ،
خلال تحليلها الف فكرة غامضة ، يتعرض الذكاء العادي الى صعوبات
هائلة ، قبل كشف غموضها » (٣) ويقسم اجنرال (جان بيريه) في كتابه
(الذكاء والقيم المعنوية) الأفكار لدى الأشخاص المتفوقين الى نوعين :
افكار منطقية ، واخرى تلقائية ملهمة ،

وان امتزاج هذين النوعين ، ضروري ، فبالمنطق نبرهن ، وبالإلهام
نخترع (٤) •

(٣) المؤلف - في الحرب - كارل فون كلاوزفيتز - (ص ١٣٤) تعريب
اكرم ديري والمقدم الهيثم الايوبي •

(٤) المرجع المذكور (ص ٨) ، (الذكاء والقيم المعنوية ٢ •

ويكمل نابليون هذه الصفة الفكرية ، حين يقول :

« انني أبدو دائما جاهزاً للرد على كل شيء ، ومجابهة أي شيء ، وما ذلك ، الا لاني فكرت طويلا قبل الاقدام على العمل ، لقد توقعت كل مايمكن ان يقع ، وليست العبقرية هي التي تكشف لي فجأة وبصورة سرية ما علي ان اقوله او افعله ، في ظرف لا يتوقعه الاخرون ، * اذن فمن يقوم بكل ذلك ؟ * انه تفكيري ، انه التأمل » (٥) .

غير أن رفض نابليون فكرة العبقرية ، التي يعتبرها البعض ، هبوط شرارة في الوقت الملائم على رأس مختار ، أو القدرة انروحية والفكرية الخلاقة ، والمنبعثة عن موهبة خاصة ، والتي هي صفة ، مركبة من قوة النفس والذكاء الحاد ، الموجهة نحو نشاط من النشاطات البشرية التي منها النشاط الحربي ، لا يعني الغاء العبقرية ، في اساسها ، وانما دعوة الى التفكير والتأمل ، لان التفكير المنبعث من الذكاء الواسع والحاد ، المقترن بالتجربة ، والالهام ، يؤلف الاسلحة الفكرية الثلاثة لكل قائد عسكري .

٢ - ان الفكر هو ابن الذكاء ، وهو القدرة على فهم ، العلاقات بين الاشياء والاحداث ، يملكه الجميع بدرجات متفاوتة ، واشكال مختلفة ، ولا يخضع الذكاء الى القياس بشكل دقيق ، ولكن هناك عدة طرق واختبارات لتحديد بعض صفات الذكاء ، والسمات الرئيسية للفكر ، غير ان تلك الدراسات التي تقدم بعض المعطيات الكمية كلها تقريبية ، وهناك احتمال للخطأ عندما نأخذ بنتائج القياس الناجمة عن التجارب المعدة مسبقا وفق مخطط ، ذلك لان من المستحيل تمييز اعماق الانسان الوريثية عن صفاته المكتسبة .

(٥) المصدر نفسه (ص ٣٧ - ٣٨) .

ومع ذلك فإن الملاحظة والتجربة الدقيقتين المنهجيتين ، بالاشتراك مع المحاكمة التحليلية والتركيبية ، قد استطاعت ان تقدم بعض المساعدة والامكانية ، تسمح بتصنيف الافراد الى زمر ، ومعرفة الصالحين لبعض الاعمال السهلة ، وتقدير امكانيات الشباب ، الا ان هنالك امعالا تتطلب صفات فكرية خاصة لدى (علماء ، مبدعين ، قادة) مع قدرة غريبة ، هي « مزيج من الالهام ، والتخيل المبدع ، والحدس ، وهذه الصفات الثلاثة تنم عن العبقرية » (٦) .

٣ - واني لا احاول تجنب التكرار هنا ، حينما اؤكد ثانية على أهمية اكتشاف الدور الخاص بالقيم الفكرية ، بعد استعراض آراء عدد من المفكرين فيما تقدم ، وعلى العلاقة الوثيقة القائمة بين الفكر والحدث (الحرب) وبينه وبين القيم المعنوية ، والفضائل الحربية بالاضافة الى الفضائل البشرية الاخرى ، فضلا عن القيم المادية ، تلك العلاقات التي سنطرق اليها بشيء من الاسهاب فيما بعد .

ومن الملاحظ ان التجارب الاوربية المتلاحقة في عالمي الفكر والحياة ، تمد جذورها الى اعماق التاريخ باحثه عن المبررات ، والحجج والاساطير ، متطلعة الى صيغة اكثر عملية ، وانطباقا على وقائع المسيرة البشرية من اجل ان تعتمد في التحرك على ارضية الواقع صوب المستقبل ، وليست تجارب الثورة الفرنسية ، والعسكريتارية الالمانية والاشتراكية الطوباوية ، والماركسية، والتوينبية ، في ابعادها الفكرية (الايدولوجية) والواقعية العملية ، الا نماذج فحسب لمدى الارتباط بين الفكر والحدث ، وبين التجربة والحصيلة وبين الرؤية التاريخية (٧) .

(٦) المصدر السابق (ص ٨) .

(٧) كتاب - التفسير الاسلامي للتاريخ - تأليف د. عماد الدين خليل ، ص ٧

أن توليد الفكر يأتي لاحقا لتوليد الحدث (الحرب) فمن الذي يقود
الاخر ، الفكر أم الحدث ..

بيد ان الجواب على هذا التساؤل يأتي في دياليكتيك (جدلية) ماركس
مناقضا لجدلية هيغل ، فبينما يرى هيغل ، ان عملية التفكير خالقة للعالم
الخارجي ، والعالم ليس الا الشكل الخارجي الذي تتخذه الفكرة ... يرى
ماركس على العكس من ذلك ، ان الفكرة ما هي الا العالم المادي ، بعد
أن يعكسه ذهن الانسان ويصوغه في شكل افكار ... وبعبارة اخرى انها
(الافكار) انما هي انعكاس الواقع الموضوعي على الدماغ البشري^(٨) .

ويمكننا القول ، ان تأثير طريقة او اسلوب التفكير على النشاطات
البشرية والاحداث العالمية ، لم يكن ملحوظا يوما من الايام مثلما هو عليه
في العصر الحالي ..

كان التأريخ يبدو ، بسبب طبيعته ، وكأنه بنأى عن امكانية التعليل
بواسطة فكر الانسان ، اما ، لان هذا التعليل ، يتعذر انجازه بسبب وجود
مستقبل للتأريخ ، او لان التأريخ عبارة عن احداث غير متوقعة غالبا ،
ولا تتعلق في غالبيتها ، بالضرورة ، بالاحداث التي سبقتها^(٩) .

وما ان جاء القرن الثامن عشر ، حتى ظهر انصار التأريخ العام ، وتساءل
هيغل بعد ليسينغ ، ما اذا كان من الممكن ايجاد قانون عام لحركة التأريخ
مماثل لقانون الطبيعة وقانون الفكر ، بحيث يكون الفكر البشري الذي
يعرف قانون التطور ويطبقه جيدا ، قادرا على التطابق مع حركة الاحداث
المولدة للتأريخ ، ومنها الحرب (كحدث) .

(٨) المرجع السابع - ص ٤٢ .

(٩) الفكر والحرب - جان غيتون ، ص ٦٩ ، تعريب اكرم ديرى والهيثم
الايوبي .

والرائع في الامر ان الانجاز البشري يتم بالضرورة ، بفضل قانون التطور ، ان البشرية لا تستطيع ان تتم نفسها كما يقول (غيتون) الا عبر معارضة نفسها ، عبر الصراع والصدام ، ويوجد هناك نوع من المصير المحتوم ، حيث يكون الشر نفسه في خدمة الخير^(١٠) .

فاذا انتقلنا من المفهوم السامي واصافي ، في مجال الافكار اي مجال الاحداث (الاعمال الوطنية ، الانتفاضات الشعبية ، انبثاق عقائد انسانية ، والامال القومية) وصلنا بسهولة الى الفكرة القائلة بان الحرب (كحدث) هي القانون الدائم للعلاقات ، وان من الضروري عدم الاستغراب من هذه الفكرة وعدم العمل لاصفاقها ، طالما ان الخير الاعلى لا يمكن ان يأتي الا من الصراع الاقوى والاعنف ومن التعارض الاقصى .. لان كل شيء ، يعتبر حربا الى حد ما ، حتى السلم نفسه .. الامر الذي يفسر لنا ظهور تعابير متعددة تصف السلم القائم باسماء متعددة كالحرب الباردة ، والحرب الساكنة ، والحرب السرية ، الحرب الدعائية ، الحرب الاقتصادية والتجارية او حرب الكلام الخ . وهي كلها احداث ترتبط بالحياة البشرية ومآلها ، كفكرة ورغبات وارادة .

وفق هذا المسار ، اذا كانت الحرب هي الحدث المستمر ، والحوار العنيف ، او الجدل الداخلي للتاريخ (بحسب تعابير الفلسفة الهيغلية) عندئذ لا يمكن تصور حدوث - على هذا المسار - سوى انقطاعات وقتية قد تطول او تقصر ويبقى المسار مستمرا ولا يتوقف ابدا .

وعليه فلا بد ان تتولد لدى قادة الشعوب يوما ما تقنية جديدة تكون اقرب الى سيكولوجية الجماهير منها الى استراتيجية القوات المسلحة ، تستهدف هذه التقنية التأثير المباشر على البنية التحتية للاواعية لدى

(١٠) نفس المصدر ، ص ٧٩ .

الانسان • ولايضاح هذه الفكرة ، التجيء الى التساؤلات التي اثارها
(غيتون) قائلا :

لم لا نستخدم المعارف الجديدة التي نملكها عن الاشعور وعن الحلم
والهذيان ، وعن الايحاء •• ؟ ولم لا نستخدم الحد الاقصى لتفتيت القوى
التي تجابهنا •• ؟ والتي هي في جوهرها قوى نفسية ! وقد كشف لنا
الطب النفسي وجودها وقوتها ، من بينها مثلا « الشعور المرضي بالخطأ » (١١) •
ومن الجدير بالملاحظة ان كل هذه الطرائق ، سواء ما استخدمت من
قبل عقائدين او رؤوساء (ماديين) عبارة عن اساليب للاقناع تفترض تفوق
الفكر على الجسد ، وتفوق الفكرة على المادة ، والعقيدة على القتال ••
وانطلاقا من هذا المنظور ، على الفكر ان يخضع للحقيقة لا ان يخضع
الحقيقة لقوانينه ••

واخيرا ينبغي كما قال (اوغوست كوت) « ان يكون الفكر دائما
سيد القلب ، لا أن يكون عبداً له » (١٢) •

فاذا كان من الضروري الاقرار ، بان دور القيم المعنوية الى جانب
دور انقيم المادية ، في العمل ، دور مهم وواسع ، علينا أن نفر ايضا بان دور
الفكر الذي يقود ويوجه تلك انقيم اعظم راوسع من جهة ، ومن جهة
اخرى ، لانه مكتشف جميع القوى في انعالم ، سواءا اكان انعكاسا
للحدث ذاته او خالقا له •• ولكن « اكبر ابتكار للفكر البشري هو الابتكار
الذي يعطي وجوداً لما لا وجود له » برأي نابليون عند وصفه للعبقري •

(١١) المصدر السابق ، ص ٨٧

(١٢) كتاب - الذكاء والقيم المعنوية - جان بيريه (ص ٦) تعريب اكرم ديري
والهيشم الايوبي •

الجدلية - (الديالكتيكية) - والحرب :

٤ - لقد بحث (جان غيتون) وهو أحد الفلاسفة الفرنسيين من (المجمع العلمي الفرنسي) في كتابه (الفكر والحرب)^(١٣) موضوع الحرب ، وفق جدلية - هيغل - وماركس - انطلاقاً من ملاحظته بوجود علاقة خفية بين طرائق رجل الحرب وطرائق رجل الفكر ، وأن هذه الطرائق قادرة على أن توضح بعضها وتدعم بعضها تماماً كما فكر (ديكارت) بالنسبة الى الهندسة والجبر ••

ولقد كان ابو الفلسفة (ديكارت) فيلسوفا وجنديا بآن واحد ، ولهذا فان الطريقة التي وضعها ، والتي اثبت منها الفكر الحديث ، مرتبطة ارتباطاً غير عرضي بالتفكير حول الحرب •

وهناك قرابة خفية بين المبادئ التي تستوحي منها هذه الطريقة وفن الحرب ، المذكور في بديهياته الدائمة •

ويعتبر (غيتون) طريقة الجدلية (الديالكتيكية) طريقة طبيعية بالنسبة الى الفكر البشري (لان الفكرة في الوقت نفسه حوار داخلي وحديث مع النفس) ••

ولنا الان ان نتوقف قليلاً عن السير مع الفيلسوف في مخاضات الفلسفة الديالكتيكية هذه ••• ونقبل دعوته الى التفكير معه بالطبيعة الالية والسهلة والسطحية غالباً ، التي تقدمها لنا الطريقة الجدلية في حالات كثيرة والتي هي ببساطة عبارة عن تطبيق لحظات الجدلية الثلاث التي - كما هو معروف - تتشكل من :

المقولة - والنقيض - والمركب •

(١٣) الفكر والحرب - جان غيتون ، ص ٣٩ - تعريب اكرم ديري والهيثم الايوبي •

او كما يسميها البعض :

الفرضية - والنفي - والصيرورة •

ويطبقها على موضوع الحرب باعتبارها ، حدثا يستمد قوته من الفكر ••
حيث يقول :

ان رجل الحرب في وضع افضل من رجل الفكر ، لان رجل الفكر
يهتم بالفكرة المجردة ، وهو ميال بشكل او باخر ، لايجاد النقيض (النفي)
وفق صورته وشبهه •• في حين ان رجل الحرب ، لا يحتاج الى البحث عنه
بعيدا •• فالنقيض بالنسبة له هو « العدو » وهو لم يخلق هذا العدو وفق
صورته •• وهذا العدو شيء مختلف عنه ، يعمل ما في وسعه بغية الاختفاء ،
والمباغتة ، وهو ليس متحذلا باستمرار ، ومعاديا وغامضا ، ومموها
فحسب ، بل معقد ويعمل دائما لتحقيق الخداع انه نقيض (حقيقي) لا
مصنوع ، متحرك مخادع ، خبيث^(١٤) ومن هنا يظهر الحرب ضمن مراحل
الجدلية الثلاث كما يلي :-

المقولة (الفرضية) = وضعنا ونوايانا •

النقيضة (النفي) = وضع العدو ونواياه •

المركب (الصيرورة) = الانتصار •

وهذه المرحلة الاخيرة وهي المرحلة الاعم ، قادرة على خلق عدم توازن ،
يلائمنا ، ويتم الحصول على عدم اتوازن هذا عن طريق التغلب على النقيض
(العدو) وهذا يعني النصر •

ومن ثم يستخلص (جان غيتون) في نهاية تطبيقه للجدلية على ادارة
الحرب ، فكرة استراتيجية رائعة ، حري بالافتباس ، وهو حيث يقول :-

(١٤) نفس المصدر السابق - ص ٥٦ •

« نلاحظ هنا بالنسبة الى الانتصارات التي تستحق الاعجاب اكثر من غيرها ، بدأت غالبا بلحظة هزيمة ، وينطبق هذا القول على معركة مارينغو ، ومعركة اوسترليتز ، ومعركتي عام ١٩١٤ - ١٩١٨ ، وانا اميل الى الاعتقاد أن هذا يعود الى طبيعة الاشياء البشرية ، التي تعتبر ، ان اكثر النجاحات ضمنا هي عبارة عن نكسات اصلحت وسليبات قومت ، ورفع مستواها وهذا هو جوهر مسار الجدلية » (١٥) .

ويحدد (غيتون) بعد ذلك الصفة الفكرية للقائد : بأن يتمتع بفكر لا يتمسك بمنهج محدد ، ولا يصاب بالتحطيم عند المفاجأة ، ولكنه ينتظر الاحداث المفاجئة ، ظراً لان عبقريته تتسم بميزة مجابهة مثل هذه الاحداث ، ويعرف جيداً ، ان النصر ينبثق بسهولة من وضع يبدو وكأنه هزيمة ، لان اكثر اللحظات حاسمة بالنسبة للخصم هي اللحظة التي يرى نفسه منتصراً (١٦) .

وحينها يتم تحليل الحروب عبر العصور ، بشيء من العمق والتجرد وفق قوانين ومنهجية جدلية ، ومن هذا المنطلق ، نرى حروبا ، قد دارت رحاها ، بفكر نابع من خلفية فلسفية او عقائدية ، أضحت انجازاتها هامة وحاسمة على الدوام . وعلى العكس من ذلك ، كلما كان العمل متقدما على الفكر ، لا يستند على عقيدة او فلسفة معينة ، وكأن الفكر ينوء تحت وطأة العمل في ادارة الحرب . انساق اطراف النزاع الى طريق مسدود . وكانت الحرب بينهما « عقيمة » لم تبلغ هدفها . حتى وان أحرز فيها أحد طرفي النزاع الانتصار ، وهزم الطرف الآخر . ذلك لان « المولود » أي « الصيرورة الجدلية » لم يتمخض الا عن سلم مؤقت ، يفتقر الى مقومات الديمومة والرسوخ

(١٥) نفس المصدر السابق - ص ٥٨ .

(١٦) المصدر السابق ، ص ٥٩ .

وفق هذا المنظور نجد ان هنالك حروبا سعيدة (اذا صح لنا هذا التعبير) قد نشبت في التاريخ ، كان قد اخضع فيها العمل لتوجيه الفكر ، ونعني به « انعكاس واقع العمل الموضوعي على الفكر » او بعبارة اخرى « انعكاس واقع شكل الحرب المقبلة على الفكر » كان « الوليد » سلما دائما وعادلا .. لم يتضمن في طياته ، احتمالات العودة الى الحرب ثانية ، بين نفس اطراف النزاع على الاقل ..

هذا وأن الحروب الثورية (حرب فيتنام ، كوريا ، كومبوديا ، الثورة الجزائرية ... الخ) عبارة عن نماذج وأداة ساطعة لهذه الحقيقة التي خضع العمل الحربي لتوجيه الفكر الثوري (السياسى والاجتماعي والنفسى) .. في حين ان تلك الحروب في الجانب الاخر من التل (جانب الدول الاستعمارية التي شنت حروبا لقمع تلك الثورات وكذلك الحربان العالميتان الاولى والثانية ، وحملة السويس عام ١٩٥٦) تعتبر أدلة ونماذج للحروب العقيمة خضع فيها الفكر لتوجيه العمل ، فهزم القوي امام الضعيف ..

الفصل الثاني

« الفكر والحرب »

- * تنشأ الحروب والثورات ، في نهاية المطاف من تفكير المحاربين والثوار ، بالمعنى النهائي للإنسان ، والحياة ، والموت •
 - * عالج الاستراتيجيون من أمثال (جبير) الحرب كفكرة ، أسوة بالسياسة ، والاقتصاد، والتشريع ، والفنون والتعليم •
 - * لم يعد الفكر الاستراتيجي ، يكتفي بدراسة الحرب كعمل مادي عنيف ، بل أصبح يهتم بدراسة الحرب كحدث يستمد قوته من الفكر ...
 - * فما هي صفات الفكر العليا ؟ وما هي خصائص هذا الفكر ووظيفته في الحرب ؟ كذلك طبيعة المعارف الضرورية وغذاء الفكر ! ...
- ولم لا يكون القائد الحربي عالماً ؟

الفصل الثاني

الفكر والحرب

١ - لقد بات من الواضح ، بأن الحروب والثورات ، تنشأ في نهاية المطاف من تفكير المحاربين والثوار بالمعنى النهائي للإنسان والحياة والموت ، وما بعد الموت ، ومن البديهي أن تختلف ردود فعل الشعوب بحسب درجة قوة الإيمان بالعقيدة والاهداف .. وهذا ما افترض وجود فلسفة ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقية) .. لان عدم التضحية ، او التضحية بحياة الاف ، وحتى ملايين من الافراد ، مسألة ، ترتبط - برأي جان غيتون - بالحياة البشرية ومآلها .. وقد عبر (بسكال) عن هذه النظرية بقوله « يتغير علم الاخلاق تغيرا كبيرا وفق الايمان بخلود الروح او بنائها »^(١) ..

ومع أن الحرب حدث من أهم وأخطر الاحداث في حياة الشعوب والامم ، وكانت تعتبر قدرا الهيا محتوما ، في بدايات الحضارات وحتى الحروب الاخيرة .. فان الاستراتيجيين (كما يقول جاك غيتون) يصمتون امام هذه الحالات العقائدية ، لانهم يعتبرونها مجالات ذاتية او خاصة او سرية ، لا تهم رجال الحرب ... كذلك الذين يصنعون الثورات او يقاومونها يخضعون لقانون هذا الصمت ...

(١) كتاب - الفكر والحرب - جان غيتون ، ص ١١ . تعريب اكرم ديري والهيثم الايوبي .

ولكن عصرنا الحالي الواضح ، لا يقبل الغموض والاساطير المقدسة السابقة أبداً •• وأن أكثر المشاعر احتراماً ، والتي كانت حتى يومنا هذا لا تمس ، دون ان يشكل مسها تديساً لمحرّمات ، لم تكن كافية لتوحيد الضمائر ••

ولا يتساهل الشبان ، وهم صورة المستقبل ، ازاء التفاف والدجل ، حتى لو كان مفيداً ، وكذلك ازاء الخداع المقدس ، وهذا لا يعني ان الحب والاخلاص للوطن والامة قد تناقص وتدنى ، وانما يعني انه ينبغي ان يكون هذا الحب وذلك الاخلاص ، معللاً ، ومقنعاً ، وذاتياً ، وواعياً ••

فهل علل الشبان الايرانيون^١ الصغار الذين زجوا بمحرقة الموت ، هذا الحب والاخلاص ••؟ فهل أقفنتوا بهذا الاندفاع المجنون ذاتياً وواعياً ••؟ حينما ينظر الى الحرب باعتبارها حدثاً من أهم أحداث حركة التاريخ البشري ، ينبغي أن ينظر الى الفكر الذي يعكس هذا الحدث العنيف ، او ينعكس عليه •• فان اشكال العمل التي تنبثق من هذا الفكر تكون مختلفة، من سيء وحسن •

ويعتبر (ليدل هارت) في مؤلفه « الاستراتيجية وتأريخها في العالم »^(٢) ان احسن شكل من اشكال العمل الذي يمكن ادراكه وتصوره واكثره فاعلية للالتصار على المدى الطويل •• هو عمل الرجل الذي يقول الحقيقة دون لف او دوران او قيود او تحفظات ، ويدعى هذا الرجل نبياً •• ويضيف ليدل هارت قائلاً : مما لا ريب فيه ان عمل النبي يتعلق بعمل القائد ، وان على القائد ان يكون استراتيجية وفيلسوفاً في الوقت ذاته • • وهذا يعني عليه ان يثبت اهتمامه بتجسيد ما اعتبره النبي حقيقة •• وان يطابقها مع الظروف وان يقبل الشر الذي لا مناص منه ••

(٢) راجع المؤلف - الاستراتيجية وتأريخها في العالم - ص ٢٣ ، تعريب المقدم الهيثم الايوبي •

ولكن على حكمة القائد ، أن لا تضحي بالحقيقة على مذبح سير الامور
الآنية دون فائدة مجدية للمصلحة العامة ، ولان : « كل من اعتاد اخفاء
الحقيقة ، بغية تسهيل العمل الفوري ، انتهى الى فقدان قوة تفكيره
وسلامته » ..

ان ليدل هارت كما يقول (جان غيتون)^(٣) عبر بذلك تعبيرا صادقا
وقويا عما نقوله جميعا بصوت منخفض : ان العلم والتقنية وانسياسة
والاستراتيجية ، ليست الا وسائل تقرب المرء من غرضه النهائي ، وهو امتلاك
الحقيقة والتمتع بها ، وهذا مايسميه الاقدمون « الحكمة » وهناك فرق قائم
بين العلم والحكمة ، معروف من قديم الزمان .

فالعلم يقتصر على المعرفة الشفافة ، أما الحكمة ، فهي فن السعادة ،
والسمو رغم الآلام ، والهدوء ورباطة الجأش في حالات الفشل .. وبين
العلم والحكمة ، يقف الفن ، وهو مركب من العلم والحكمة ، لانه الممارسة
المستندة الى المعرفة ، وبأقامة هذه العلاقة بين العلم والحكمة والفن رفع
(غيتون) الحرب على دعائم ثلاث كما سنوضحها عند الكلام عن الفكر
والنظرية الحربية^(٤) ..

ان فن الحرب تقنية تستهدف الخير رغم الالم الذي يسببه موت
الالوف ، ذلك حينما يكون هدف الحرب هو انتقاذ الشعب الذي يخوضها ،
وتجنيبه الهزيمة الجذرية التي تتأتى من خسارة الاستقلال والاتقاص
من الحرية ..

(٣) كتاب الفكر والحرب - جان غيتون - ص ٧ ، تعريب اكرم ديري والهيثم
الايبوبي .

(٤) راجع الفصل الثاني عشر - ص ١٣٩ .

٢ - الحرب كفكرة :

في القرن الثامن عشر ، عالج الاستراتيجيون من امثال (جبير) الحرب كفكرة .. أسوة بالسياسة والفنون والتشريع والاقتصاد ، والتعليم ، ولكن حتى الان ، ومازلنا ، ابناء هذا القرن المفكر والعقل أحيانا - والمجنون والمدمر أحيانا اخرى ، حيث لا وجود لفكرة من الافكار ، إذا لم تهز الاسس من جذورها ، ومع ذلك ، من الغريب ان نرى حروبا عديدة قد وقعت في القرنين التاسع عشر والعشرين ، تقدم فيها العمل على الفكر ، وبدا وكأن الفكر ينوء تحت وطأة العمل (الحرب) ..

ويقول (جان غيتون) لقد انقلب التعبير العسكري الذي ، يدعى (الاستراتيجية) واضطراب عند بحث المسألة اعاجلة التي كانت تتضمن دروسا من الحرب الاخيرة (العالمية الثانية) لاعداد حرب جديدة (الثالثة المحتملة) .

ويضيف أما الذين حاولوا السمو على هذا الهدف (وكان اعظمهم كلاوزفيتز) بعد (جوميني) ثم ليدل هارت في انكلترا و (ريمون آرون) في فرنسا (ولكن الفلاسفة لم يستمعوا اليهم كما ينبغي ، ورغم اهتمام فلاسفة القرن العشرين بالعلوم والاديان والفنون ، فانهم لم يهتموا بالستراتيجية ابدا .. ولكن ، بيد ان الامر لا يمكن ان يفي بهذا الشكل في عصرنا الحالي بسبب الطفرة الاستراتيجية الناتجة عن ظهور الردع النووي والاسلحة الحديثة المتطورة الفتاكة ، مما يدعو مد الاظار نحو مجال عمل اكبر من عمل الاسلحة والمعدات ، الى مجال الفكر .. الفكر الذي يقود السياسة والاقتصاد والحرب .. لان رجل السياسة ورجل الاقتصاد كالفيلسوف والرجل العادي ، أحسوا جميعا بانهم معنيون بالحرب المحتملة،

(٥) المصدر السابق ، ص ٨ - ٩ .

فمن واجبه اهتمام بالستراتيجية^(٥) فاتجهت الانظار نحو هذه العلاقة القائمة في العصر النووي والاسلحة المتطورة الفتاكة ، بين الفكر - والحرب - والستراتيجية تباعا .

وهكذا فان العالم قد شهد في النصف الثاني من القرن العشرين طفرة فكرية وستراتيجية واسعة بسبب ظهور (المطلق) اي اسلح النووي . . . ولم يعد الفكر الاستراتيجي يكتفي بدراسة الحرب كعمل مادي عنيف تشترك فيه القوات المسلحة لاطراف النزاع ، بل اصبح يهتم ايضا بدراسة الحرب كحدث يستمد قوته من الفكر ، ويسعى كل طرف مشترك فيها ، الى التأثير على فكر الطرف الاخر ، ومعتقداته ومفاهيمه . . .

وتطرح هذه النظرة دراسة العلاقة الوثيقة القائمة بين الفكر والحرب . . . لازدياد هذه العلاقة في العصر النووي الى حد لم تعرفه البشرية من قبل . وانعكاس هذا الازدياد على الاستراتيجية المعاصرة التي لا تختلف عن استراتيجية عصور ما قبل الذرة ، في درجتها فحسب ، بل وتختلف عنها في طبيعتها ايضا .

ويستخلص من كل ذلك : ان الاحداث الحربية ، ليست الا انعكاسات للافكار المسبقة ، لذا فان الحرب عبارة عن فكرة في الاساس والجوهر . . . تتجلى فيها أهمية اكتشاف الدور الخاص بالنم الفكرية ، ذلك لان الفكر هو الذي يربح الحرب وهو الذي يخسرها ، فالفكر من القوة والسعة في الحرب ، كما في النشاطات الاخرى في الحياة ، بحيث يكون قادرا على تبديل طبيعة الحدث الواحد ، واعطائه وصفين مختلفين مثال ذلك :

« القائد الذي يتمركز بين قطعتين معاديتين ، يصف الحادث لقيادته العليا . . . (انه لقد مزق جيش العدو وشطره الى قسمين) . . . في حين ان القائد المعادي يخبر مقره الاعلى من جانبه انه . . . (قد وضع العدو نفسه بين النارين) . . .

فأي القائدين على خطأ ؟ وايهما على صواب ؟ .. ان المخطيء ، ولا شك هو ، من يصاب تفكيره من بعد ذلك بالتردد او الشلل فيخسر المعركة .. أما الفكر المبادر في حالة تساوي الظروف على وجه التقريب ، لاسيما فيما يتعلق بالعدة والعدد فهو الذي يربح المعركة ، مع صحة كلا الوصفين السابقين « (٦) » .

على ذلك يمكننا القول ، لا بد من وجود صفات محددة وواضحة للفكر تمكنه من التعامل المتلاءم مع احداث الحرب المختلفة . كما سترى ..

صفات الفكر العليا :

٣ - ينبغي على الفكر ، الذي يتولى قيادة الحرب ، وتنعكس عليه أحداثها ومفرداتها ، بصيغ وقوالب محددة وغير محددة أن يتمتع بصفات عليا متميزة ، بحيث تتلاءم وحجم المخاطر ، وعنق الاحداث التي تنطوي عليها ، كذلك التغيرات الجذرية التي ستؤول اليها الاحداث في نهاية المطاف .. فما هي اذن صفات الفكر العليا ؟ .. او بالاحرى ماذا يجب ان يتطلب من صفات الفكر العليا في الحرب ؟ ..

ان المطلوب منه كما يرد (كلاوزفيتز) على هذا التساؤل : « القدرة على التركيب والحكم على ان تكون هذه القدرة مرتفعة بحيث تصل الى نظرة فكرية رائعة ، تلامس وتطرد ، خلال تحليلها الف فكرة غامضة ، يتعرض الذكاء العادي الى صعوبات هائلة قبل كشف غموضها ، (لان الحقيقة نفسها واقع ضعيف) وهناك اختلاف كبير بين العلم والارادة ، وبين المعرفة والقدرة كما ويشكل الشعور أهم الدوافع التي تحت المراء على العمل ، على حين يتلقى الانسان افضل الدعم من تلاحم الروح والفكر .. ذلك التلاحم

(٦) المثال مأخوذ من اقوال (جوزيف دوميسستر) في حاشية ص ٣١٢ من المصدر السابق .

الذي يدعي بتسميات متعددة ، كالتصميم . والصلابة وقوة الشخصية^(٧)
وقوة الايمان .

ويتابع (كلاوزفيتز) « اذا فكرنا في الاختلافات الموجودة بين الصفات
الفكرية التي تحددها تعابير اللغة العادية ، دون ان نحاول تعريف القوى
الاسمى للروح بشكل ادق ، وتسألنا عن نوع الذكاء الذي يلائم العبقرية
العسكرية اكثر من غيره ، دلنا التمهيد ، وعلمتنا الخبرة ، على اننا نفضل
في الحرب ، الافكار المستقصية اكثر من الافكار المبدعة ، والذكاء الواسع
اكثر من الذكاء الموهوب في اختصاص معين ، والادمغة المترنة اكثر من
الادمغة المندفعة^(٨) .

وينبغي التمييز بين الادمغة المندفعة والادمغة المبادرة ويكون من المفيد
ان نستمع الى (جان غيتون) وهو يقول بهذا الصدد :

« ان جميع العناصر التي تركز عليها مبادرة ما ، يزنها رجل واحد ،
هو القائد » « ولذهنه المتردد » او « المدفوع الى المبادرة » نصيب كبير في
التقويم الذي يكونه عن كل عنصر من هذه العناصر ، فالذهن المتردد
يميل الى تضخيم الصعوبات في حين يميل الذهن المبادر الى تصغيرها ، ويتجه
تفكير المتردد بشكل خاص نحو ما يجب ان يخشاه لدى عدوه ، بينما يفكر
الذهن المبادر ، قبل كل شيء في عمله هو ، دون ان يهمل ما سيفهم به
الخصم . . . والمتردد بطيء في اتخاذ القرار ، مما يتيح لخصمه فرصة سبقه
وضربه ، أما المبادر فانه يقرر بصورة اسرع ويفرض بالتالي مبادرته

(٧) المؤلف في الحرب - كارل فون كلاوزفيتز - ص ١٣٤ تعريب اكرم ديري
والهيثم الايوبي .

(٨) نفس المصدر السابق ، ص ١٣٥ .

فالمبادر هو الذي يطرح المسألة ويمسك الورقة الرئيسية الراححة بيده، التي ستؤمن له المكسب اذا كان قد زان الامور بصورة صحيحة»^(٩).

غير اننا نرى ذلك يتبع مسألة المزاج وليس الفكر ، لان التردد ينتج عادة عن الخوف ، وعدم الثقة بالنفس ، في حين ان المبادرة على العكس من ذلك تنبع من الشجاعة ، والثقة العالية بالنفس ، وان كان للخوف والشجاعة والثقة بالنفس صلة وثيقة بالفكر والذكاء كما سنرى ذلك عند بحثنا الفضائل الحربية - وعلاقتها بالفكر في الفصول القادمة - « الفصل الثالث الى الفصل العاشر » .

خصائص الفكر ووظيفته في الحرب :

٤ - وتعتبر الخصائص الفكرية للقائد من الاهمية بمكان الى جانب خصائصه النفسية والمعنوية . . ان محصلة هذه الخصائص الثلاثة ، هي التي تضع القائد بمكائنه الصحيحة . . فبالاضافة الى ما ذكرناه - في الفقرة السابقة - فان ما ينتظر من دماغ متقلب خيالي ، مندفع في الحماس ، قليل النضوج ، لا يشبه بما ينتظر من ذكاء متزن وحاد وهادىء في أية حال من الاحوال .

وتزداد وظيفة الفكر في الحرب ، وعند استخدام العنف ، وان هناك ثورة تتحقق في هذا المجال ، وانه لكي تتحرى بدقة معنى ما يحدث تحت بصرنا ، علينا ان نتجاوز اختصاص الحرب او السياسة والقانون ، والاقتصاد، والاخلاق . . وان نحاول رؤية الفكر الذي يمثل اساس العلاقات الداخلية لهذه الاشكال المختلفة من العمل ، وأن ننظر الى كل شىء نظرة كلية شاملة وموحدة وبسيطة^(١٠)

(٩) كتاب الفكر والحرب - جان غيتون - ص ١٤٧ ، تعريب المقدم الهيثم الايوبي واكرم ديري .

(١٠) المصدر السابق ، ص ٩ .

ان فكرة الحرب على المؤخرات ، مقرونة بالحرب النفسية ، التي تستهدف شل الجهاز العصبي المعادي ، التي اتبعها هتلر في الحرب العالمية الثانية ، فوسع بذلك مفهوم الاستراتيجية ، في الهجوم غير المباشر ، ترتبط فكرته تلك كما يقول (ليدل هارت) بشكل دقيق ، بجميع القضايا الناجمة عن تأثير الفكر على الفكر^(١١) .

واذا كان المطلوب من الفكر ان يتمتع بصفات عليا وخصائص معينة هكذا عليه لابد وان يكون مزوداً بمعلومات ذات طبيعة معينة وضرورية في الحرب ، فما هي طبيعة المعارف الضرورية للفكر في الحرب ؟؟

طبيعة المعارف الضرورية في الحرب :

٥ - ليس من الضروري ان يكون القائد مؤرخا واسع العلم او أدبيا او كاتباً ، كما يقول (كلاوزفيتز) ولكن عليه ان يكون مطلعاً على شؤون الدولة العليا ، ان كان قائداً عاماً ، وينبغي ان يعرف كيف يقدر بصورة صحيحة النزعات التقليدية والمصالح الحيوية ، والمسائل الواجب حلها ، كما ينبغي عليه ان يعرف الشخصيات المسؤولة ..

وليس من الضروري ان يكون عالماً نفسانياً حاذقاً ، او يقوم بتحليلات عميقة للطبيعة البشرية ، الا انه ، عليه ان يعرف طباع رؤوسيه ، وطرق تفكيرهم ، واخلاقهم ، وصفاتهم ، وعيوبهم الخاصة ...

غير ان ليدل هارت رأياً آخر في هذا الموضوع ، ويوافقه عليه المارشال مونتغمري فهما يريدان « ان يكون القائد استراتيجياً وفيلسوفاً في الوقت ذاته ... ورجلاً استثنائياً ونادراً ، اذا ما وصل حد الكمال ... » ويعلقان عمل النبي بعمل القائد^(١٢) .

(١١) كتاب الاستراتيجية وتأريخها في العالم ، ص ٣٣ ، ليدل هارت - ترجمة الهيثم الايوي
(١٢) راجع نفس الفصل ، والفصل العاشر .

واننا تتطابق مع الرأي الاخير ، فيما يتعلق بالقادة في اعلى المستويات .
ولو ان القائد الاعلى لا يحتاج الى معرفة كل التفاصيل ، ولكن عليه ،
أن يكون فكرة صائبة عن الامور الجوهرية ، فضلا عن المعارف التي لا تكسب
الا بالحكم الصحيح المطبق على الحياة العملية ، كما لا يمكن ادراكها الا
بالموهبة او بشيء من العبقرية ..

ومن غير المجدي الاستعانة بحقائق مضادة وبحدلقة في سبيل اثبات
القيمة الفكرية للنشاط العسكري .. فليس هناك في التأريخ رجل كبير او
قائد عسكري بارز محدود الذهن ، وكن الحالات التي يجد فيها رجالا في
الوظائف الصغيرة حالات عديدة ، الا انهم عندما انتقلوا الى الرتب العليا ،
بقوا في مستوى اقل من المستوى المتوسط ، لعدم كفاية مداركهم الفكرية ..
لذا فمن الضروري ان يقام نوع من التسلسل بين الرجال الذين يتولون
القيادات ، وكذلك ضمن قيادات عامة استنادا الى درجة السلطة التي يتمتعون
بها ، وهذا ما هو متبع في جيوش جميع الدول تقريبا ، اليوم .

غذاء الفكر :

٦ - يتكون فكر الانسان ، وينمو عبر المعارف التي يتلقاها ، ومن خلال
التوجيه التي يطبعه بطابعه ..

ان العظمة - كما يقال - هي التي تجعله عظيما ، أما التفاهات فتجعله
نافها .. الا اذا كان لدى فكر ما ، الاستعداد الكافي للفظ كل هذه التفاهات
دفعه واحد ، للتمسك بما هو ، قيم ، ومجد ونافع ..

ان النظرية الحربية تعالج عدداً ضئيلا من الاشياء ، وهذا ما يقلل من
المعلومات والمعارف الضرورية لادارة الحرب .. وعليه فان الكميات الهائلة
والتفصيلية من المعارف ، يفترض وجودها قبل ان ينتقل الجيش المجهز
تجهيزا كاملا الى مواقعه القتالية ..

وقد انكر البعض بساطة المعلومات والمعارف الضرورية للحرب وخطبوا دائما بين المعرفة الحربية ومجموعة المعارف والكفاءات الثانوية ، لذا فانهم وجدوا انفسهم غير قادرين على حل التناقض الخفي الذي يقعون فيه مع ظواهر الاشياء وحقائقها ، وعليه فقد أنارت لديهم هذه الارهاصات التساؤل التالي :-

« لِمَ لا يكون القائد الحربي عالماً .. ؟! »

٧ - من الملاحظ ان القادة العسكريين الكبار ، يبرزون بسرعة في الحرب ، وكثيرا مانجح رجال نجاحا باهرا في الحرب على المستويات العليا، وفي مناصب قيادات عامة ، مع ان نشاطاتهم كانت مختلفة عن النشاط الحربي ... والواقع ان القادة العظام لم يخرجوا أبدا من طبقة العلماء - برأي كلاوزفيتز - لان وضعهم لم يكن يتيح لهم الحصول على معلومات واسعة، لذا القي كل شيء برأيه على عاتق العقيرة ... (١٣)

وهذا لا يعني بالضرورة عدم خروج قادة بارزين من بين طبقة الضباط المثقفين ثقافة عسكرية عالية * الى جانب اولئك الذين كانت نشاطاتهم مختلفة عن النشاط الحربي ... والغريب ان كلاوزفيتز صاحب الرأي الاول الذي وضع معظم استنتاجاته (في الحرب) من الدروس التي استقاها من الحروب النابليونية لم يشر الى النخبة من القادة العسكريين الذين خرجوا من بين المثقفين العسكريين *

فاذا كان لا مناص من متابعة افكار (كلاوزفيتز) هذه وقبولها ، علينا ان نستمع اليه وهو يتابع القول بهذا الصدد :

« هكذا أمام هذه الحقيقة احس اصحاب الحس السليم بالفراغ الكبير الذي لابد من اشغاله بين العقيرة الفذة - والمثقف ثقافة عسكرية عالية ... »

(١٣) الوجيز في الحرب - كارل فون كلاوزفيتز - ص ١٦٣ ، تعريب اكرم ديري والهيثم الايوبي *

فتوصل هؤلاء الى رفض كل نظرية ، واعتبار العمل الحربي ، نوعا من المهنة الطبيعية للرجل . . يقوم بها بشكل جيد او سيء طبقا للصفات الموروثة التي وهبها له الطبيعة .

ولا ينكر (كلاوزفيتز) كون هؤلاء أقرب الى الحقيقة من اولئك الذين أولوا أهمية كبرى لتزويد من يؤهل للحرب بمعارف خاطئة وغير نافعة ، فلا وجود لنشاط ممكن للذكاء الانساني دون وجود كمية معينة من المفاهيم ، ومعظم هذه المفاهيم على الاقل غير موروثة « (١٤) » .

فالجواب على ذلك : ان على المفاهيم ان تكون موجهة نحو الامور التي تهتمنا مباشرة في الحرب وان تتطابق مع الرتبة والمنصب والمهام .

تطابق المعارف مع الرتبة :-

٨ - ينبغي ان تتغير المعارف مع اختلاف الرتبة والمنصب ، وتنصب على أشياء أقل أهمية وأكثر تحديدا في المستويات الادنى وعلى امور أهم واوسع في المراتب العليا ، فلو تسلم بعض من كانوا في القيادات العامة ، قيادة لواء مشاة مثلا لما نجحوا ، والعكس صحيح ايضا . .

فيمكن القول ان النشاط الفكري الحربي ، ليس سهلا ، وبسيطا الا في المستويات الصغرى ، ويزداد صعوبة تبعا لعلوه في سلم القيادة . . ويغدو هذا النشاط من اصعب الصعوبات التي يواجهها الفكر البشري على مستوى القيادة العامة .

٩ - تحويل المعرفة الى الارادة :

ينبغي أن تتحول المعارف في الشؤون الحربية الى الارادة . . ولكي تتحول المعرفة الى الارادة ، من الضروري ، تمثيل هذه المعرفة وهضمها كاملة في الذهن ، حتى لا يبقى شيء موضوعي ، على وجه التقريب .

(١٤) الوجيز في الحرب - كلاوزفيتز ، الكتاب الثاني ص ١٦٣ ، تعريب : اكرم ديري والهيثم الايوبي .

ففي معظم الفنون ونشاطات الحياة الأخرى ، يستطيع الشخص القائم بها ، ان يستخدم الحقائق التي تعلمها برمتها ، ويمكنه استخلاصها من الكتب والمصادر ، دون ان يعيش روحها واتجاهها ، حتى بعض الحقائق التي يستعملها يوميا ، قد تبقى غريبة عنه ..

فأن حسابات المهندس وفحوصات الطبيب ، لا تنبع من الذهن دفعة واحدة .. في حين ان الامور في الحرب لا تجري بنفس الاسلوب ، فرد فعل الفكر ، والشكل المتبدل للأشياء باستمرار ، يجبران القائد العسكري ، على أن يحتفظ بكل علمه كاملا في جهازه العقلي ، وان يكون في كل مكان وفي كل لحظة ، قادرا على ان يستخلص من علمه القرار الضروري والمناسب مع الموقف .. وبهذا المعنى يردد العسكريون المقولة الشائعة « العلم في الرأس وليس في الكراس » .

ان هذا التمثيل الكامل للمعرفة في ذهن رجل الحرب وهضمها في حياته العسكرية الخاصة يحول المعرفة الى قدرة حقيقية للعمل وبأرادة قوية، وبمبادرات تلقائية ، وهذا هو السبب الذي يبدي كل شيء سهلا للرجال الذين يبرزون في الحرب .. لان معارفهم كما قلنا تتحول الى ارادة عمل قوية .. وقد يعزي البعض ففهم هذا الى الموهبة الطبيعية ، غير ان ذلك، في الحقيقة يعزى الى تكوّن العادة الفكرية لديهم أي تتحول عندهم المنبهات الى الاستجابات بطريقة آلية ...

وهكذا نصل الى الاستنتاج من ان الحرب عبارة عن فكرة في الاساس، والجوهر .. فتتجلى فيها اهمية اكتشاف الدور الخاص بالقيم الفكرية ، لان الفكر هو الذي اضحى يربح الحرب ويخسرهما .. فلا بد اذن ، يتمتع بخصائص معينة ، كما بينا ، ان يكون له « القدرة على التركيب والحكم » على أن تكون هذه القدرة مرتفعة بحيث تصل الى نظرة فكرية رائعة ، تلامس وتطرد خلال تحليلها ألف فكرة غامضة ، لتحديد الفكرة الوحيدة الصائبة،

ويدألفها ، ولاشك ان مثل هذا النوع من الصفة الفكرية ، لا ينبع الا من ذكاء الذي يتلاءم مع العبقرية العسكرية ، والذكاء المطلوب هنا ، هو الذكاء الواسع اكثر من الذكاء الموهوب في اختصاص معين ، النابع من الادمغة المتزنة اكثر من الادمغة المندفعة ، على ان يجري التمييز بين الادمغة المبادرة، والادمغة المندفعة واخرى المتخاذلة او المترددة . وكذلك يفضل في الحرب الافكار المستقصية اكثر من الافكار المبدعة ..

ولما كان المطلوب من الفكر ، هكذا ، ان يتمتع بصفات عليا وخصائص معينة ، فلا بد اذن ، ان يكون مزودا بمعارف ومفاهيم ذات طبيعة معينة ، وضرورية في الحرب .. حيث لا وجود لنشاط ممكن للذكاء الانساني لاستقصاء افكار خلاقة ، دون وجود كمية معينة من المعارف والمفاهيم ، ومعظم هذه المفاهيم على الاقل غير موروثة ولا غرو ، تناسب تلك المعارف مع الرتبة والمنصب ، ولكن المطلوب التمثيل الكامل للمعارف في ذهن رجل الحرب وهضمها في حياته العسكرية الخاصة ، بحيث تتحول المعرفة الى قدرة حقيقية للعمل ، وبأرادة قوية ، ومبادرة تلقائية ..

وكما ان وظيفة الفكر تزداد وتتسع كثيرا في الحرب وتتجاوزها الى السياسة والاقتصاد والقانون والاخلاق .. الخ . مما يشكل رؤية الفكر الداخلية ، اساس العلاقات لهذه الاشكال المختلفة من المجالات حتى ينظر الى كل شيء في الحرب نظرة كلية شاملة وموحدة وبسيطة .

واخيراً فان مكانة رجل الحرب ، لا تحدد بخصائص صفاته الفكرية فحسب وانما تحددها له ، خصائصه الثلاث (الفكرية والمعنوية والنفسية) . وينبغي علينا ان نعلم بان الشعور يشكل أهم الدوافع التي تحث المرء على العمل ، على حين يتلقى الانسان افضل الدعم من تلاحم الروح والفكر ..

الفصل الثالث

- الفكر والقيم المعنوية في الحرب

« الفصل الثالث »
الفكر – والقيم المعنوية
في
الحرب

هناك عدد لا يحصى من المؤلفات ، تبحث عن القوى المعنوية في الحرب (المعنويات في الحرب) وجميعها تشير وتؤكد على أهمية العامل المعنوي في كسب الحرب ، وكما تستهدف تلك المؤلفات بناء القوى وترميمها في احوال التعرض للاهتيار ، وبعضها تبحث عن الدوافع الكبيرة لها ، واخرى تدعم فضيلتها التربوية القومية والوطنية سواء عند الاعداد للحرب او خلال ادراقتها ***

ويكاد لا يوجد هناك قائد كبير ، او صاحب نظرية من نظريات الحرب لم يؤكد في يوم من الايام على أهمية القوى المعنوية في الحرب ..

~~Handwritten text, mostly illegible due to heavy scribbling and crossing out.~~

وقديما قال نابليون حرفيا وبالتص « ان كل شىء في الحرب معنوي»^(١) ، هذا بالاضافة الى أقواله الكثيرة الاخرى بهذا الصدد .. وقد قصد فريدريك شارل ، امير بروسيا ، نفس الشىء عندما كان يؤكد على ذلك،

(١، ٢، ٣) راجع كتاب الذكاء والقيم المعنوية - جان بيريه ص ١٤٣ تعريب :
اكرم ديرري والهيثم الايوبي .

« ليست الطرق المعنوية هي التي تقرر ، وانما روح المعنوية »^(٢) . ولا تصنيفا الدهشة إذا وجدنا بأن المارشال (دوساكس) القائد الفرنسي المشهور ، قد فكر بنفس الشيء عندما قال : « القلب الانساني هو نقطة انطلاق كل شيء في الحرب »^(٣) . وكثيرون غيرهم . ولكن ربما من المدهش حقا ، وبالتالي مع المقنع بصورة أقوى - كما يقول (جان بيريه) ان نكتشف تأكيد أهميتها من قبل ميكافيلي نفسه ، ذلك السكرتير الفلورنسي التحيل ، الذي يعتبر في نظر الكثيرين ، الداعية الى الكذب والاحتيايل والغدر ، مع انه صاحب نظرية من اكبر النظريات العسكرية في زمنه اذ يقول « ان عامة الناس يخدعون انفسهم ، عندما يؤكدون ، ان المادة عصب الحرب ، فهل تغلب داريوس الفارسي على الاسكندر المقدوني ؟ او هل اخضع اليونانيون الرومان ؟ . وهل قهر الدوق السويسريون ؟ كلا!! لقد برهن كل هؤلاء لنا ، على ان المادة ليست عصب الحرب ، وما عصب الحرب الا قيمة الجندي »^(٤) .

وقد قصد ميكافيلي بذلك ، بأن المهزومين جميعا كانوا يملكون كنوزا من الذهب ، ومع ذلك فقد هزموا ، لانهم كانوا يفتقرون الى القوى المعنوية . هذا وانني لا انوي أن اضيف الى ماتقدم تأكيدات اخرى لابرار أهمية القوى المعنوية على هذا النحو وانما احاول المساس بعلاقاتها بالقيم افكرية من خلال عناصرها ، التي تتأثر ايجابا او سلبا بها والتي يطلق على تلك العناصر اسم (الفضائل الحربية) وتتألف من :

العبقرية الحربية - والشجاعة العسكرية - والاقبدام - والحزم والصمود - وقوى الارادة والنفس والشعور والشخصية - والامزجة البشرية - روح الوحدة او القطعة او الجماعة - واخيرا القيادة .

هذه الفضائل الحربية سنأتي بذكرها ، بالتفصيل تباعا لبيان علاقاتها بالفكر ايجابا أو سلبا ، وأهميتها في الحرب في الفصول القادمة

(٤) نفس المصدر ، ص ١٤٤ .

الفصل الرابع

الفكر والفضائل الحربية

« ان الفضائل الحربية التي يظهرها رجل من الرجال في المعركة، هي ثمرة الحياة ، فعلى الاسرة والمدرسة والمؤسسة بكاملها ، اذن تولده هذه الفضائل وتنميها ، فالمشكلة تتجاوز اذن ، اطارها العسكري الظاهر ، انها مشكلة السياسة القومية العليا ، التي يجب ان ينتبه اليها كل من يهتم ببناء المجتمع ، خاصة ، وان الفضائل الحربية ، تعبير عن فضيلة الرجولة والشهامة التي لا يجوز ان يتخلى شعب عنها ، حتى في ايام السلم » •
(جان بيرييه)

« الفصل الرابع »

١ - الفضيحة الاولى :

الفكر - والعبقريّة الحربيّة

وقد اشرنا فيما تقدم الى ان الفكر ، هو الاساس الخلاق لكل حدث، ومنها (الحرب) كحدث ، يستمد قوته من الفكر ... وان الفكر البشري فوق جميع القوى في العالم ، لانه مكتشف هذه القوى ، وفتح رموزها واسرارها ... وان القوى العقلية للانسان ، هي محرك الحرب فمنها تنبثق الارادة والتصميم ، الى جانب اساليب القتال وفنونه وتنظيمه وشكله وادارته .. كذلك تنبثق منها الفضائل الحربية جميعا تقريبا ومنها العبقريّة الحربية ... فما هي العبقريّة الحربية ؟ وما علاقة الفكر بهذه الصفة البشرية الرائعة ؟

فلو اردنا البحث بتعمق عن مفهوم العبقريّة ، تعين علينا اللجوء الى الكتب والمصادر المغمورة بالغبار ، وأهتدينا الى معان عديدة ، وتعاريف مختلفة ومتحذقة لهذا التعبير .

وبما انني لست رجلا من رجال النحو والصرف والفلسفة ، عليه ينبغي الا احشر نفسي في مثل هذه الظلمات ، واقتنع بالمعنى الشائع للتعبير ، وبعض التعاريف المصاغة لها ... حيث يعتقد البعض ويعتبرها « هبوط شرارة ، في الوقت الملائم ، على رأس المختار ... أي انها موهبة الهية ...

وهناك من يعتبرها صفة فكرية خاصة ، تظهر لدى (علماء ، مبدعين ، قادة) مع قدرة غريبة هي « مزيج من الالهام ، والتخيل المبدع ، والحدس » .
وهذه الصفات الثلاث عندما تقترن ، تنم عن العبقرية^(١) .

ولكن قد لا يمنعني ذلك من محاولة ايجاد تعريف بسيط لهذه الصفة البشرية الخلاقة بالاستناد الى التعريف الذي صاغه (كلاوزيتز) لها واقول :
« انها القدرة الروحية والفكرية الخلاقة ، منبعثة من موهبة خاصة » ...

فهي بهذه الحالة صفة مركبة من « قوة النفس » و « الذكاء الواسع والحاد » الموجه نحو نشاط من النشاطات البشرية ، التي منها النشاط الحربي ...

بيد ان من النادر اقتران هاتين الصفتين في كل الاشخاص لذا فأن العبقرية العسكرية ، تظهر بشكل نادر عند الافراد ، ولكن كلما دعت الضرورة الى ترجيح النشاط الحربي لشعب من الشعوب ، كلما زاد ظهور عبقریات حربية بين صفوفه ...

واننا نصادف في شعب بدائي مقاتل عددا من الرجال المقاتلين يفوق ما نصادفه في شعب متحضر ، لان جميع المقاتلين في الشعب ابدائي لديهم ميل طبيعي للقتال .. على حين ان معظم افراد الشعب المتحضر يجندون للقتال عند الضرورة ، لا بدافع ميلهم الطبيعي ، ولكن العبقرية بمستوى القيادة نادرا ما تظهر في شعب بدائي ، لانها تتطلب تطورا فكريا يستحيل الوصول اليه في شعب محروم من الثقافة^(١) ...

(١) راجع المؤلف - في الحرب - كلاوزفيتز ص ١١٧ . تعريف اكرم ديري والهيثم الايوبي .

يعترض الاستاذان اكرم ديرى والهيثم الايوي على فكرة (كارل فون كلاوزفيتز) هذه ، مع اقرارهما بتمتع فكرته بقسط كبير من الصحة ، ويشيران الى بعض الامثلة التاريخية التي تناقض هذه الفكرة بشكل سافر وهما يقولان :-

« أن ما قدمه الشعب العربي وهو في اول اطلاقاته الثقافية وعلى بداية طريق تقدمه الذي ملأ العالم نورا فيما بعد ، قادة عسكريون ذوي موهبة استراتيجية لا جدال فيها « كخالد بن الوليد » الذي كان بحق خريج مدرسة الصحراء القاسية ، لا خريج المدارس والكليات الحربية » •

وفحن نميل الى تأييد هذا الاعتراض بالنسبة للامثلة الاخرى^(٢) ويمكن اعتبارها استثناءات عن القاعدة ، ولكن الشعب العربي لم يكن شعبا محروما من الثقافة كما يقولان وان كان في بداية انطلاقة جديدة لما كان لدى الشعب العربي من حصيلة متوارثة من المميزات الحضارية ، للحضارات القديمة قبل الاسلام ، وعليه ندون اعترافنا لرأيهما هذا •

ونعود الى الموضوع لنرى مع (كلاوزفيتز) ان افضل دليل على العبقرية الحربية التي يظهرها القائد على وجه الخصوص هو معرفته وبراعته ، بتنظيم حربه بتطابق صحيح بين وسائله واهدافه ، دون ان يبالغ فيها او يقصر في استخدامها ••

ولا تظهر آثار هذه العبقرية في اشكال العمل المذهلة التي يتكررها بتجدد ، بل يظهر بالمحصلة النهائية الناجمة عن مجمل الاعمال في نهاية المطاف •••

(٢) للاطلاع على الامثلة الاخرى - راجع نفس المصدر حاشية الصفحة المذكورة

وان ارتباط الفكر بالقوة الروحية ، ينتج عنه نوع من الحافز المتبادل يؤدي الى تنفيذ النشاط بمهارة فائقة ، وبقدرة عالية من الفهم والاحساس ، فتقوم باستخدامات غريبة يمكن عندئذ ، وصف الروح المنبثقة منها بصفة العبقرية ..

وهنا سؤال يطرح نفسه هو : هل بالامكان تنمية العبقرية العسكرية عند القادة ؟؟؟ ويجمل بنا ان نستمع الى (جان غيتون) وهو يجيب على هذا السؤال في ختام محاولته اقامة علاقة بين الفكر والحرب ويقول :-

« لا يستطيع الضباط كافة ان يكونوا كذلك (صناع الانجازات) اذ ليس لديهم جميعا العبقرية .. فالعبقرية العسكرية لحسن الحظ (برأيه) وقف على بعضهم فقط ، ولكن بالامكان تأهيلهم جميعا على طرائق التفكير الصحيحة ، وهذا مايفعلونه عند تعليمهم اسلوب التفكير » ويضيف « في معارك الحياة كما في معارك الحرب ، نجد ان الانسان بكل ما يحمله من طبع وشخصية ، هو الذي سيستثير هذه الموارد ، ولن يستخلص منها - مهما كانت غنية - الا ما تتيحه له صفاته الشخصية ان يستخلص »^(٣).

ونفهم من كل ذلك بوضوح ، ومن التعريف الذي قدمناه في بداية كلامنا عن العبقرية الحربية ، على انها صفة شخصية ومركبة من قوة النفس والذكاء الحاد .. ولكنها ليست صفة مجردة بهذا الشكل ، بل بحاجة الى كمية من المعارف والخبرات ، مع تنمية الفضائل الحربية الاخرى .. ومن هنا نلاحظ كلما دعت الضرورة الى ترجيح النشاط الحربي لشعب من الشعوب ، كلما زاد ظهور عبقریات حربية بين صفوفه على ان يقترن ذلك الترجيح بالمستوى الثقافي والعلمي والتقني المواكب للعصر ، وينبغي عدم تناسي توفر الامكانات والظروف المادية والروحية المواتية

(٣) الفكر والحرب - جان غيتون ، ص ٥ ، تعريب اكرم ديري والمقدم الهيثم الايسوبي .

الفصل الخامس

٢ - الفضيلة الثانية

١. الفكر والشجاعة العسكرية

ليست الشجاعة العسكرية ، كما يظن البعض ، تابعة لغريزة قتالية بدائية ، بل على العكس من ذلك ، تكتسب اجتماعيا ، فهي تقدم فكري ، بقدر ماهي تقدم أخلاقي ، أنها فضيلة اجتماعية في روحها ، لأنها القدرة على التضحية بالذات من أجل الجماعة •

(الجنرال جان بيريه)

١ - الأصل الفردي والاجتماعي للشجاعة العسكرية :

من المعروف ان الحيوان ليس شجاعا ، فهو يطبع غريزة البقاء الفردية، ورد فعله الاول هو الفرار من الخطر ، انه يخاف قبل كل شيء .. وهذا صحيح بالنسبة لاقوى الحيوانات وأضعفها ، فلدى اول حركة مشبوهة يهرب الاسد والنمر ، كما يهرب الارنب والفأر .. واذا لم يهربوا ، فذلك لانهم بوغتوا وفوجئوا ، ووجدوا انفسهم مضطرين لمجابهة الخطر ، وان المعركة تفرض نفسها باسم غريزة المحافظة على البقاء نفسها ، لان الفرار مستحيل او لان الجوع يزمجر في احشائهم ، او تحت دفع الغريزة الجنسية او غريزة الامومة ، هذه الغرائز التي ليست الا امتدادات لغريزة المحافظة على البقاء .

ان الرجل البدائي ، كالحيوان تفوقه غريزة المحافظة على البقاء ، هذه الغريزة التي تولد الخوف بصورة طبيعية ، وهو بحاجة الى طعام ، ويلتزم بالمجابهة عندما لا يتمكن من الفرار ، وتدفعه الغريزة الجنسية ، وغريزة الامومة ، ان كل هذه الغرائز هي الغرائز الوحيدة للصراع ، فهو لا يعرف الا الشجاعة الضرورية^(١) .

الا ان الرجل المتحضر اجتماعي ، فهو لا يستطيع ان يعيش وان يحسن بصورة خاصة ، شروط حياته ، الا بالاندماج في جماعة من الجماعات ، اذن فمن الضروري ، ان يضحي الفرد بنفسه من اجل الجماعة ، عندما يتعرض وجودها للخطر ، وتحل عندئذ محل غريزة البقاء الفردية ، غريزة حفظ البقاء

(١) كتاب الذكاء والقيم المعنوية - جان بيرييه - ص ١٥٩ - منشورات دار الطليعة - بيروت .

الجماعية الى حد ما ، ولو جزئيا ، ويتقوى هذا النقل كلما بدأ المجتمع في التحسن والرقى .

ويخضع هذا النقل الغريزي في بادئ الامر الى ضرورات مادية صرفة والزام خارجي ، والى العادة والتقليد ، ولكن يملك الرجل مهما كان بدائيا روحا مرهفة ، ان حاجته للحياة في المجتمع ، تنصدر الشروط المادية . . انه تواق للود والثناء والمدح ، ولا يستطيع الحصول عليه الا بالتضحية ، ويظهر عنده الاخلاص للقائد وللرفاق ، وانضباط بارادة حرة ، والوفاء للجماعة الاجتماعية ، (القبيلة والامة) والالتزام بالمنطلقات المشتركة من المثل والقيم والمفاهيم المعنوية او الدينية او القومية والوطنية . .

وعندما تعي مجموعة من الرجال التشابه فيما بينها ، او تعي مصيرها المشترك فانها تحاول التمسك بتقديرها واحترامها المتبادل وتعمل من اجل مجد الشخصية المعنوية التي تمثل تلك الجماعة .

وتقوم بين هذه المجموعة من الرجال قواعد عامة والقيم والمثل ، لا يستطيع أن يتعد عنها ، او مخالفتها ، دون التعرض لاحتقار وازدراء الآخرين . . وهكذا يولد الاحساس بالشرف ، كما يتحقق في هذه الكتلة البشرية تطور مواز مع التقدم الاجتماعي ، اذ يبدأ المخ النفسي يلعب دوره الموازن بفاعلية اكبر ، ويتدخل (التفكير) بمنابعه القوية (٢) عندئذ نجد غريزة المحافظة الجماعية قد نمت وامتدت جذورها القوية ، فتظهر في نفس الوقت الذي يظهر فيه الاحساس بالشرف . . .

فالاحساس بالشرف هو الشجاعة العسكرية الحقيقية برأي (جان بيريه) فالشجاعة العسكرية ، ليست كما يظن البعض تابعة لغريزة قتالية

(٢) - المخافر الامامية للخيالة الخفيفة - الجنرال دوبراك - حاشية في كتاب الذكاء والقيم المعنوية ، ص ١٦١ .

بدائية ورثناها من قرون طويلة ، بل ان الشجاعة العسكرية على العكس من ذلك تكتسب اجتماعيا ، وهي تقدم فكري بقدر ماهي تقدم اخلاقي ، انها فضيلة اجتماعية في روحها ، لانها القدرة على التضحية بالذات من اجل الجماعة ••

انها قدرة تكمن في آلية مكتسبة بواسطة تتلاءم مع واجب محدد وواضح ، طويل الامل ، وقد تعلمها الوجدان في بادىء الامر ، بواسطة ضغوط مادية ، وعقوبات معتدلة ، وباقناع على المستوى العقلي او العاطفي ، قبل ان تنزل وتندمج في اللاشعور لتولد فيه الاحساس بالشرف»^(٣) •

٢ - أسس الشجاعة العسكرية :

يضاف الى العوامل الفردية في شل الخوف والتشبث بالشجاعة العسكرية وتنميتها وتعميمها ، عامل الضغط الاجتماعي الذي يمارس دوره في كل الميادين المادية والمعنوية والفكرية ••

وهناك في بادىء الامر :

- أ - الانضباط الحازم : مما يتبعه من الجزاءات الايجابية والسلبية (مكافآت مادية او معنوية ، او عقوبات مناسبة رادعة) •
- ب - ثم يأتي في الترتيب العاطفي - الاخلاص للواجب وتقديسه ، للقادة والرفاق بمنطلق الثقة المتبادلة •
- ج - الوطنية الغريزية والوطنية الواعية ، اساسها الاخلاص لمثل اعلى فلسفي او عقائدي او معنوي ، وهذا ينبع من الترتيب الفكري •
- د - الايمان الديني - ومن الملاحظ ان الروح الدينية تتجدد والايمان يقوى في مطلع كل حرب •

(٣) المصدر السابق ، ص ١٦٢ •

غير ان مختلف هذه العوامل ذات فعالية غير متساوية ، فمن النادر ان يوافق رجل على المخاطرة بحياته دون ان يكون لديه سبب من الاسباب ، ولكن بعضها لا يمكن ان يكون الا دواءً مقويا ، في حين ان الرجال الذين يكون سبب التضحية لديهم سببا فكريا ، فانهم نادرون ، ولكنهم يصنفون في مرتبة عليا من سلم القيم الانسانية ، انهم ينتمون الى صفوة من القادة او انهم جديرون بمثل هذه المكانة .

فالحقيقة ان المبدأ الحاسم ، الذي يحرك ، في الواقع ، معظم المقاتلين في المعركة هو الشرف ، وان الشرف هو الذي يجعل من المقاتلين حماة للقيم المعنوية والمادية والفكرية المتنوعة كثيرا ، تبعا للظروف ، فهم بذلك حماة الوطن ، وعليه كما يقول الرئيس القائد : لا شرف للرجال اذا ضاع الوطن .. حقا لمن الصعب جداً ، كما يقول (جان بيرييه) ان تقتصر في سطور بسيطة على شرح التعقيد اللامتناهي لردود فعل البشرية في الحرب .. وهو يحدد بشيء من التحفظ العوامل او الاسس الفاعلة المباشرة في تحويل الخوف ونقله الى الشجاعة العسكرية في عوامل الثلاثة الاتية :-

أ - الحماسة

ب - التعمود على الخطر

ج - الشرف

ولا يلعب الانضباط الحازم والعوامل المادية الا دورا ثانويا ، أما بالنسبة للعوامل المحركة (العاطفية والفكرية) ، مهما كانت أهميتها كبيرة ، فهي لا تعمل الا بصورة غير مباشرة ... وليست فعالة الا ضمن المدى الذي تثير فيه الحماس والاحساس بالشرف برأي (جان بيرييه) وفيه كثير من الصواب ، ولكن فبينما العوامل العاطفية يقتصر دورها كما يقول في اثاره

الاحساس الحماسي والشرف في حين ان دور العوامل الفكرية يتجاوزها الى تحليل الواقع المادي والعاطفي بآن معا ..

واخيراً فإن الشعور الاصلي الذي يحس به البدائي ، هو ، الخوف ، أما الشجاعة ، فهي مكسب وتقدم انساني ، وفضيلة اجتماعية ... عندما نكر الشجاعة ، لا يمكن ان تفهم ابداء عملية القوى المعنوية في الحرب ، ومن ثم اتنا تفقد بذلك ، احد المفاتيح التي تسمح لنا اكتشاف ، سر عظمة الامم وانحطاطها .

ولم يبق لنا ان نضيف الى تلك الصورة الرائعة لاسس الشجاعة وأصلها الفردي والاجتماعي ، الا الدعوة الى التفكير والتأمل ، ثم الممارسة والعمل ، ونلقي نظرة على انواع الشجاعة العسكرية وآثارها ...

٣ - انواع الشجاعة العسكرية :

ان الانسان عبارة عن الجسد والفكر ، ولا ينفك الاثنان عن التأثير المتبادل الواحد في الاخر . . . وليس ذلك لان هناك علاقة مباشرة بين القوى البدنية للفرد وشجاعته فهناك رجالا يتمتعون بأجسام رياضية رائعة ، بينما هم في منتهى الجبن . . .

فالمقاتل يجد نفسه في مواجهة الخطر والتعب والآلام ، مدفوعا بنوعين من الدوافع :-

١ - الايجابية - كالحماس بمختلف انواعها ، والطموح والشرف والتعود على الخطر وتحمل التعب والآلام .

ب - السلبية - وتصعد من اعماق أحشائه ، منبثقة من غريزة المحافظة على البقاء ، وحيانا اللامبالاة الناجمة عن التكوين الفردي .
على ذلك فأن الشجاعة نوعان (٤) :

الاول - الشجاعة الشخصية .

الثاني - الشجاعة أمام المسؤولية المفروضة من قوة خارجية او من قوة داخلية (الاحساس بالواجب) .

ولن نتكلم هنا الا عن النوع الاول .

الشجاعة الشخصية :- وبلورها نوعان :

النوع الاول - ويعود الى اللامبالاة الناجمة عن التكوين الشخصي او عن أزدراء الموت ، او العادة ، فهي بهذه الصورة ، حالة دائمة .

(٤) راجع في الحرب - كارل فون كلاوزفيتز - الكتاب الاول ص ١١٨ - تعريب أكرم ديري والهيثم الايوبي .

النوع الثاني - قد ينجم عن اسباب ايجابية ، كالطموح ، والوطنية ، والحماسة
بمختلف انواعها - ولا يمكن اعتبار هذا النوع من
الشجاعة حالة دائمة ، فهو اذن شعور وانفعال •

ومن البديهي ان لكل نوع من النوعين تأثيرا مختلفا عن الآخر :-
فالنوع الاول - اكثر ضمانا ، لانه جزء من طبيعة الشخص ولا يمكن ان
يتخطى عنه •

أما النوع الثاني - فليس حالة دائمة ، بل يتذبذب مع قوة او ضعف الانفعال
والحماس والشعور •• وغالبا ما يقود المقاتل الى مدى
أبعد مما ينبغي •

فيعود الحزم الى النوع الاول ، على حين يرجع الاقدام الى النوع
الثاني ••• ويستثير الاول الذكاء بشكل محدود ، بينما يزيد الثاني أحيانا
قدرة الفكر ، ولكن غالبا ما يضل هذه القدرة • ويؤدي توافق هذين
النوعين وتكاملهما الى افضل انواع الشجاعة •

وبما ان الشجاعة جزء ضروري من الاجزاء التي تتألف منها الفضيلة
الحربية ، فقد تتأتى بالرغم من كونها استعدادا طبيعيا للفرد من التدريب ،
والتعود على المخاطر بالنسبة للعسكريين ، وينبغي ان تخضع الى مطالب
القيادة العسكرية ، ومتطلبات الطاعة والنظام والقواعد والمناهج •

وتمنح الحماسة في سبيل القضية التي نحارب من اجلها اعلى درجة
من الشجاعة والبطولة ••

وينبغي علينا ان تأخذ العنصر البشري بنظر الاعتبار ، وان نخلي مكانا
للشجاعة والبطولة والجرأة والاقدام في خططنا الحربية ، لان الشجاعة
النادرة تكون كفيلا ، بتعديل الخطأ المرتكب في بعض المناسبات ، ولكن
يجب ان لا ننسى ان نقص الذكاء يظهر دائما في النتيجة العامة ••

الشجاعة والفكر :

يحتاج المرء في الحرب الى صفتين هامتين ضروريتين ، ليتمكن من اجتياز الصراع الدائم مع الامور غير المتوقعة - وما اكثرها في الحرب - دون التعرض لاضرار كبيرة :

الصفة الاولى - (الفكر) - لانه يقود الانسان وسط الظلام المتزايد ، ويحافظ على كل ذرة من ذرات الوضوح الداخلي اللازم للوصول الى الحقيقة .

الصفة الثانية - (الشجاعة) : فهي ضرورية لتابعة هذا القيس الضعيف فيينا تسمى الاولى « الفهم بنظرة خاطفة » في حين تدعى الثانية « الصميم » .

الشجاعة الفكرية :

هنالك تلاحم بين التصميم والشجاعة المطبقة على حالة خاصة ، فإذا غدت صفة من الصفات الشخصية ، أصبحت عادة فكرية ولا يقصد بالشجاعة هنا ، الشجاعة أما الخطر ، بل امام المسؤولية والخطر المعنوي ، وهذا ما يسمى (بالشجاعة الفكرية) .. لانها منبثقة من الفكر ، ولكنها لا تشكل عملا من اعمال الفكر ، بل من اعمال المزاج .

وعلى هذا يؤكد الجنرال جان بيرييه في كتابه (الذكاء والقيم المعنوية) على افضلية التفكير ، على كل الصفات المسيطرة في ميادين القتال .

ان الذكاء المجرد لا يخلق الشجاعة ، لان اذكى الناس يفتقرون عادة

صفة التصميم .

ان على الذكاء قبل كل شيء ان يوقظ الشعور ويدعمه ويحافظ عليه .
أذ يطيع الرجل في اللحظات الحرجة أحاسيسه اكثر من ان يطيع أفكاره....

ويبرهن بعض الاشخاص امام المضلات الصعبة جدا عن تفكير حاذق ، ولا تنقصهم الشجاعة اللازمة لمواجهة مستويات كبيرة من الاوضاع ، على حين يقف هؤلاء الاشخاص امام الاوضاع متوسطة الصعوبة ، عاجزين عن اتخاذ أي قرار يتسم بالتصميم .. ذلك لان ذكاءهم وشجاعتهم أمران منفصلان لا يتفقان مع بعضهما .. وهذا ما يمنع التصميم ، فالتصميم لا ينبثق الا من عمل الذكاء الذي يجعل الاقدام ضرورة واعية ويحدد الارادة، وانه ناجم عن توجيه الذكاء الذي يقهر خوف الانسان ، ويتغلب على تردده، ونقاط ضعفه ، وهذا ما يضع التصميم في موضع القوة ، لذا فان رجالا متوسطي الذكاء ، لا يمكن ان يصمموا بكل معنى الكلمة ، وقد يتصرفون في الاوضاع الصعبة دون تردد ، ولكنهم يفعلون ذلك بلا تفكير ، ولا يخضع الرجل الذي يعمل بدون تفكير لمضايقات الشك واحكام الصدفة ، وانه قد يتصرف بصواب ما بين آونة واخرى •

الفصل السادس

■ الفكر والاقدام ■

في الحرب

- فقد يسود الاقدام في جيش من الجيوش ، اما لانه صفة من صفات الشعب ، او انه ثمرة حرب ظافرة ، يقودها قائد فذ مقدام •

« الفصل السادس »

٣ - الفضيلة الثالثة

الفكر - والاقدام

في

الحرب

الاقدام وعلاقته بالفكر :

١ - وكما ان الشجاعة العسكرية أسمى الفضائل الحربية وأهمها ،
فأن الاقدام بدوره ، يعتبر أهم وافضل فضيلة في الحرب ، وهو يظهر في
جيش يجند من شعب ترعرع فيه الاقدام ونما على مر العصور •
ولا يمكن لهذه الفضيلة ان تظهر في جيش شعبه محروم من هذه
الفضيلة •

وليس من حق أي انسان أن يقلل من أهمية القيمة الروحية والفكرية
للاقدام في الحرب (كما يقول كلاوزفيتز) •• ولو انه يقف وجها لوجه
أمام التعقل والحيلة والحذر •• لانه يعتبر القوة الدافعة النبيلة ، وكمبدأ
خاص وفعال •• ولان النفس البشرية تفتحم بفضلها أسوأ المخاطر واكبرها
في الحرب •• على ذلك فان الاقدام أفضل فضيلة ، يمكن ان يتسم بها كل
فرد مقاتل من الجندي البسيط حتى القائد العام •• فهي القوة الدافعة التي
تتيح للسلاح حدته وبريقه^(١) •

(١) في الحرب - كارل فون كلاوزفيتز - الكتاب الثاني ص ٢٣٨ • تعريب
اكرم ديري والهيثم الايوبي •

وينبغي أن نعلم : ان للاقدام في الحرب مزايا خاصة ، فضلا عن نتائج الحساب المتعلق بالزمان والمكان ، حيث هناك نسبة مئوية اضافية للاقدام تضاف الى مكاسبه الخاصة ، نستخلص من الضعف الذي يصيب الخصم • ويؤدي الى جبهه ، وخفض معنوياته ، بتأثير الاقدام نفسه ، فكلما صادف الاقدام الجبن كلما زادت فرصة نجاحه وانتصاره ، وتكون عندئذ قسوة دافعة تزيد من مستوى الشجاعة ، وتعممها بين الرفاق ، فيظهر التأثير المتبادل بين الشجاعة الحماسية والاقدام بوضوح تام •

والاقدام لا يتراجع الا عندما يصطدم بالتعقل او الحذر الواعي ، الذي يميل (كلاوزفيتز) الى اعتباره نوعا من الاقدام ، لان التعقل في حد ذاته مواز في قوته وحدته للاقدام ••• اذن لا يجوز ازدراء الاقدام الطائش ، لان في اعماقه قوة روحية نبيلة وجازمة ••• ولو انها تمارس عملها بشكل عاطفي في غياب حكم العقل ••

ولكن ومع ذلك يجب ان نعامل الاقدام ، على انه شر خطير ، عندما يرفض الخضوع لمنطق العقل ، او عندما يرفض الخضوع لسلطة اعلى منه ، علينا عندئذ ، ايقافه عند حده ، لا بسبب كونه خطيئة كبرى ، بل لانه يرتكب خطأ عدم الطاعة فلا شيء في الحرب اهم من الطاعة^(١) •

وكلما ارتفعت الرتبة ، كلما أضحى من الضروري ان يكون الاقدام مزودا بالتفكير ، حتى لا يفقد جدواه او يصبح غريزة عمياء ، او يكون تابعا لغريزة قتالية بدائية ، شأنه في ذلك شأن الشجاعة الحريسية (برأي بعض الناس) •• بيد ان تدخل الفكر الواضح ، او بالاحرى سيادة العقل ، تسلب من كل القوى الانفعالية جزءا كبيرا من عنفها •• ولكن كلما ارتفع الهرم التسلسلي للرتب ارتفعت مكانة الفكر والذكاء والفهم العميق للعمل • • واعيد الاقدام الذي ينبثق من ميزات الطبع الى المقام الثاني ، لكي يحتل الاقدام النابع من الفكر المقام الاول •••

فالبسالة التي يوجهها ذكاء متحكم هي ، علامة البطولة والاقدام ، على ان لا تشتمل مثل هذه البسالة على اعمال جريئة مضادة لطبيعة الاشياء ، او مخالفة لقانون الاحتمالات وانما كلما اعطت البسالة اجنحة للفكر والفهم بنظرة واحدة ، كلما حلت عالية ، واتسعت رؤيتها وبلغت هدفها ••

ومن البديهي ، انه من المحال تخيل آمر او قائد بارز في الحرب ، لا يتميز بالاقدام ، كما ان شخصا غير موهوب بهذه الصفة ، منذ الولادة ، لا يمكن ان يشار اليه بالبنان في مهنة الحرب •• لان هذه الصفة تعتبر شرطا هاما من شروط امتهان الحرب •

الاقدام والشجاعة :

٢ - ان الشجاعة والاقدام في الحرب صنوان لا يفترقان ، والتفريق بينهما ، اذا ريد لهما ذلك ، لا ينصب على الطبيعة ، بل على الدرجة فحسب ، ويظهر ذلك في مجال ممارسات كل منهما ••• ومن الواضح ان مجال ممارسة الشجاعة في الحرب اوسع من مجال ممارسة الاقدام •• (والمقصود هنا الشجاعة الشخصية وليس أمام المسؤولية) • فبينما يقتصر الاقدام على العمليات الايجابية من صفحات القتال (كالهجوم ، والهجوم المقابل ، والاغارات وبعض المهمات الخاصة) •• في حين ان مجال الشجاعة يشمل بالاضافة الى العمليات الحربية الايجابية ، عمليات اخرى تنطوي على شيء من السلبية (كالدفاع المستكن والانسحاب ، والكماين •• وغيرها) •

وكما أسلفنا فيما سبق ، ان الشجاعة العسكرية ، ليست كما يظن البعض ، تابعة لغريزة قتالية بدائية ، وراثتها منذ قرون طويلة ، بل على العكس من ذلك ، تكتسب اجتماعيا ، وهي كما قنا تقدم فكري بقدر ماهي تقدم أخلاقي ، وانها فضيلة اجتماعية في روحها ، لانها القدرة على التضحية بالذات من أجل الجماعة ، كذلك الاقدام ، فهو افضل فضيلة من بين الفضائل الحربية الاخرى ، انه القدرة على اقتحام أسوأ المخاطر واشدها ، ويرتبط بالتقدم الفكري فضلا عن التقدم الاخلاقي •

الاقدام والتخاذل :

٣ - ينبثق الاقدام من الادمغة المبادرة ، على حين ان التخاذل يرجع الى الادمغة المترددة ، ومن البديهي ، ان المتردد بطيء في اتخاذ القرار مما يتيح لخصمه فرصة سبقه وضربه ، أما المبادر المقدام ، فانه يقرر بصورة أسرع ويفرض بالتالي مبادرته على الخصم ، فالمبادر المقدام هو الذي يطرح المسألة ويمسك الورقة الراجعة بيده ، التي ستؤمن له مكاسب مادية ، ومعنوية وفكرية اضافية ، اذا كان قد زان الامور بصورة صحيحة .

وبما ان الامور ، يزنها رجل واحد ، هو القائد ، وعليه فان (لذهنه المتردد) او (المدفوع الى المبادرة) كما قلنا سابقا ، نصيبا كبيرا في التقويم الذي يكونه عن كل عنصر من عناصر النجاح او الفشل .

فالذهن المتخاذل والمتردد ، يميل عادة الى تضخيم الصعوبات في حين يميل الذهن المبادر للرجل المقدام الى تصغيرها ، ويتجه تفكير المتردد بشكل خاص نحو ما يجب ان يخشاه لدى عدوه ، بينما يفكر المبادر المقدام قبل كل شيء في عمله هو ، دون ان يهمل ما سيقوم به الخصم .

الاقدام والتصميم :

٤ - ان التصميم الذي يتغلب على حالة الشك ، واحكام الصدفة ، ثمرة من ثمار الفكر النير الفذ . بهذه الصورة ، لا ينبثق التصميم الا عن عمل الذكاء الواسع الذي يجعل من الاقدام ضرورة واعية ، ويحدد الارادة الصلبة . انه ناجم عن توجيه الفهم العميق الذي يقهر خوف الانسان ، ويقضي على تردده ، ونقاط ضعفه ، وحالة الشك والقلق من احكام الصدفة . اذا فان رجالا متوسطي الذكاء ، او ذوي الافكار المشوشة لا يمكن ان يتصفوا بالعزيمة الصادقة بكل معنى الكلمة ، وبالتالي لا يتوقع منهم الاقدام والتصميم في العمل . لانهم يميلون عادة الى الحذر ، كلما لاحظوا الخطر

الذي يضخمه لهم ترددهم ، ذلك التردد الذي يشلهم شلا اكبر ، لانهم اعتادوا على العمل المتسم بالحيلة المبالغ بها ، بحيث تتحول الى ما يشابه الخوف المفضي الى الجبن •

وقد برهنت التجارب ، بما لا يقبل الشك ، بان مايسببه الخوف وبالتردد من الخسائر ، يربو عدة اضعاف على ما يحدثها الاقدام ، حتى وان كان يعتبر طائشا من بعض النواحي ••• واني لوائق من موافقة القارىء المجرب ، المشارك في حروبنا السابقة ، وفي قادسية صدام المجيدة على هذه الحقيقة •

وهناك فرق قائم بين الاقدام والتصميم ، من حيث طبيعة الاشياء وينبغي للتمييز بينهما ، النظر لاهدافهما •••

اذ نحن نعجب اشد الاعجاب من عمل شخص قام به ، بمنتهى الجراءة والجسارة ، ويمكن وصفه بانه عمل مقدم ، ولكن اذا ماتعمقنا في البحث عن هدف عمله هذا ، فعندئذ يمكننا الحكم ، فيما اذا كان عمله « مقداما » أم انه مجرد تصميم ، تحت ضغط الضرورة ••

مثال ذلك :

عندما يقفز ، فتى ، ترعة عريضة او سياج عال ، كي يظهر لنا براعته كفارس بطل ، فهو يبرهن على البسالة والاقدام •• أما عندما يقوم بالعمل ذاته ، تخلصا من أفراد عصابة تطارده لقطع رأسه ، فهو يكون مصمما فقط تحت ضغط الضرورة ، وقد قبل الخطر الاصغر ، ليدري عن نفسه الخطر الاكبر ••

ومع ذلك ليس من حقنا ان نقلل من أهمية تصميمه الذي لا يخلو من قيمة ووزن • وفي الحرب مجالات خاصة مطلوبة لكل من الاقدام والتصميم وبحسب الحالات •••

- وبقي علينا ان نضع تقديرنا الاخير لصفة الاقدام بوجه عام :
- فقد يسود الاقدام في جيش من الجيوش ، اما لانه صفة من صفات الشعب ، او انه ثمرة حرب ظافرة يقودها قائد فذ مقدم •
 - وينبغي ان نعلم بأنه : لا يمكن لشعب من الشعوب ان يأمل ذات يوم بأحتلال موقع مرموق بين شعوب العالم ، الا اذا كان لخصائصه القومية ولاعتياده الحرب تأثير متبادل ومتواصل ••

الفصل السابع

• الفكر والحزم والصمود • في الحرب

• ان التمسك بالقناعات المسبقة ، والاخلاص لها ، في الحالات التي يكتنفها الغموض ، يكفيان لاعطاء تفكيرنا ثباتا واستمراراً يرفعان من قدرتنا على الصمود •

« الفصل السابع »
٤ - الفضيحة الرابعة
الفكر - والحزم والصمود
في
الحرب

١ - وان كان هنالك تشابه كثير ، وصلة وثيقة بين كلمتي « الحزم » و « الصمود » ، ورغم استخدام كلمة الحزم غالبا مكان الصمود ، ولكنهما في الحقيقة من طبيعة مختلفة •

فكلمة الحزم : تعني المقاومة الصلدة ، ضد صدمة منعزلة ووقتية ، ولأنه يرد على افعال واحد وعنيف ، وقد يكون ناجما عن مجرد قوة الشعور •

في حين ان كلمة (الصمود) تحمل في طياتها معنى المدة والاستمرار ويتطلب الصمود بلاشك دعما من الذكاء والتفكير ، ومما لا ريب فيه ايضا ، أنه كلما طالت مدة العمل كلما اصبح الفكر بحاجة الى التلاءم مع مخطط معين ، يتضمن دعما للصبر واستمراراً للصمود طويل الامد ••

وغني عن القول •• انه ليس هناك انتصارات مجيدة تحققت بدون جهود مضنية ، وعناء كبير ، وحرمان ، وآلام •

ان الانسان ميال بطبعه للاذعان، في حالات الأحساس بالضغط والانهاك والآلام••• غير أن هنالك طاقة تظهر بثبات يدهش العالم والايال الصاعدة، وهذا الثبات هو الصمود في الحرب الذي يقودنا الى الانتصار •

ان المقاتل في الحرب بحاجة الى القوة معنوية وقوة مادية كبيرتين ، لكي يحافظ على استمراره في القتال في جو مضطرب وقاس .. وهذه القوة المعنوية تعرف عند الكتاب العسكريين ، بالحزم والصمود ، نابعين من قوة النفس - وقوة الشعور - وقوة الارادة - وقوة الشخصية تختلف استخدام هذه التسميات حسب تبدل الظروف المتعددة ، ومتطلبات الموقف، ويمكننا ان نعتبر جميع هذه الظواهر في الحقيقة من طبيعة واحدة ، تنم عن البطولة ، والاستبسال ، اساسهما قوة الارادة معدلة حسب الظروف ..

تتصدر هذه الصفات البشرية من اصل واحد ، الا انها لا تكون صفة واحدة ...

ومن المفيد ان تلقى ومضة خافتة من الضوء على هذه الصفات البشرية وعلاقتها بالفكر وأهميتها في الحرب ..

الصمود - وقوة النفس أو قوة الشعور :

يعني هذا المفهوم ، ميزة الاستماع الى صوت العقل وسط أقوى الانفعالات ، وفي عاصفة أشد الاهواء .. ولا يدل ذلك على عنف التعبير عن المشاعر أو الاهواء

فهل تتعلق هذه الميزة ، بقوة الذكاء او رجحان الفكر ؟... هذا الامر مشكوك فيه (كما يقول كلاوزفيتز) .. حيث يوجد اشخاص عاجزون عن السيطرة على النفس ، رغم تمتعهم بذكاء خارق او فكر لامع ، لان السيطرة على النفس ، قد تتطلب ذكاءً خاصا يتصف بالقوة اكثر من الاتساع، وتلك الميزة التي يسمونها السيطرة على النفس ، كامنة في المزاج نفسه ، والحقيقة أن هناك شعوراً آخر يؤمن رجحان العقل ، وهو الشعور بالكرامة البشرية، انه الكبرياء النبيلة ، لذا فيمكننا القول ، بأن النفس القوية ، هي النفس التي لا تفقد توازنها حتى في اعنف حالات الاضطراب .

وهناك أيضا ملهمان ، يشكلان أفضل وانبل فضائل الطبيعة البشرية وهما : الطموح للشرف والمجد • وكما يشكلان في الحرب الفكر الصحيح الدافع الذي يعطي الروح لهذا الجسد الضخم ، على حد تعبير (كلاوزفيتز) فهو يعلو ويسمو على بعض الاحاسيس الاخرى القادرة على اعطاء قوة دافعه للفرد كالاخلاص الحماسي ، والشأر والانتقام ، غير انه لا يمكن ان تحل محل الطموح للشرف والمجد ، الذي يوقظ لدى القادة الرغبة في العمل ، يفوق ما لدى زملائهم ، والصمود يفوق صمود عدوهم •

الصمود وقوة الارادة :

٣ - ان مقاومة العدو وصموده يؤثران على القائد والمقاتلين ، ولكن بطريقتين مختلفتين (تماما كما تؤثر مقاومتنا وصمودنا على قائد ومقاتلي العدو) فالمقاومة الطويلة ، تمس مسؤولية القادة من الخسارة في الامكانات، أذ تقع قوة ارادته موضع الاختبار وسط جو محاط بالقلق والشك •• وهذا أول عبء من اعباء القائد ، فهو اول معضلة يحلها بنفسه مع نفسه دون ان يحس بها احد •• بينما التأثيرات الاخرى الناجمة عن صمود ومقاومة العدو تنعكس على المقاتلين الخاضعين لاوامره ، وتؤثر فيه من خلالهم ••

فاذا كانت شجاعة رجاله متأججة وقواهم المعنوية عالية فان بلوغ الهدف لا يتطلب من القائد قوة ارادة كبيرة •• ولكن ما ان تنبعث صعوبات - وهذا الامر كبير الاحتمال ، عندما يتجاوز العمل حدود السير العادي - حتى تتعثر الامور ، فلا تسيير بصورة آلية . فتظهر امام القائد صعوبات اضافية ، للتغلب على المقاومات ، عندئذ يتطلب منه ذلك اظهار قوة ارادة كبيرة •• فعلى القائد ان يتغلب على تأثير هذه الصعوبات في نفسه اولا ، ليسيطر عليها بعد ذلك عند الآخرين ، الذين ينقلون له احساسهم ومشاعرهم ومتاعبهم ، وآمالهم بصورة مباشرة او غير مباشرة •

وينبغي أن لا تتجاهل تناقص قوى الافراد وتلاشيها الواحدة بعد الاخرى .. وتهالك ارادتهم وتحولها لكي تقع على ارادة القائد وحدها .. وعلى هذا القائد استخدام الحماسة المتأججة لاذكاء الحماسة والتصميم ، واشاعة نور الامل عند المرؤوسين .. ولا يتمكن من ذلك ويحافظ على رقابة هذه الكتلة البشرية ، والبقاء سيداً لها ، الا اذا كان على مستوى هذه المهمة ، فاذا أضحت شجاعته غير كافية لاثارة شجاعة المرؤوسين وحماسهم، سقط مستوى شجاعتهم الهابطة ، وضاع وسط هذه المجالات الدنيا للطبيعة البشرية التي تتراجع امام الخطر ، لانها تجهل معنى الخجل^(١) .

ولا يمكن حساب قوة الارادة ، ولكن يمكن حساب قوة السبب الذي اوحى بهذه الارادة ، فاذا افترضنا ان تقديرنا لقوة العدو كان صحيحا الى حد ما ، فعلينا عندئذ ان نكيّف جهودنا حسب ذلك ، وان نعزز هذه الجهود بالقدر الذي يحقق لنا الصمود لفترة اطول ، او ان نعمل قدر المستطاع اذا لم نكن نملك من الوسائل مايعزز هذه الجهود ..

ويلجأ الخصم الى الاسلوب ذاته ، فيقوم عندئذ نوع من المبارزة ، وهنا يظهر العمل المتبادل بصورة فعل ورد فعل .. وينبغي في هذه الحالة تدقيق امكانيات الطرفين بطريقة تراكمية ، مع عدم اغفال قانون الاحتمالات ، .. فاذا وجدنا ان عامل الوقت قد بات ينصب من نفسه حكما ، يعود اليه قول الفصل ، عندئذ نكون أمام مايسمى بـ (حرب الاستنزاف) فيكون النصر الى جانب الذي يتمتع بقوة الصمود لفترة اطول بدعم من (الموارد المادية والمعنوية) وفي هذه الحالة يبرز مبدأ الاقتصاد بالقوى والموارد ، تحتل الصدارة من بين المبادئ الاخرى ..

(١) في الحرب - كارل فون كلاوزفيتز - ص ١١٩ ، تعريب اكرم ديـري والمقدم الهيثم الايوبي .

ولكن لو فرضنا ان هناك توازناً ، يملك فيه الطرف الذي يتابع الهدف الايجابي أقل الموارد واضعفا ، ولكنه يخضع للدوافع والمغريات أقوى مما لدى الطرف الاخر الذي يملك موارد أكثر بشكل ينتج عنه التعادل والتوازن في مجموع الدوافع والقوات والموارد .. عندئذ نستطيع القول : إذا سم يتوقع أي تعديل في هذا التوازن من تدخلات خارجية او تغييرات داخلية فأن المعسكرين سيضطران الى اقرار السلام .. أما اذا كان هناك توقع لحدوث تعديل في التوازن المذكور ، ولصالح معسكر واحد فقط ، الامر الذي ، لا بد من ان يستحث الطرف الاخر على العمل بنشاط اكبر ، فيستمر صمود الطرفين لمواصلة الحرب .. وهكذا نرى اذن ، ان فكرة التوازن لا تفسر هدنة المعارك ، بل فكرة انتظار وقت اكثر ملائمة .

ولكن هناك دوافع للصمود .. فالدولة المعتدية ليست لديها السبب للصمود ، بل الرغبة في الحصول على مكاسب .. في حين يترتب على الدولة المعتدى عليها الصمود الذي يرتفع الى اعلى مستوى بسبب دوافعه النبيلة، وهي ، حق الدفاع عن الوجود ، والارض والسيادة ، والاستقلال .

ينتج تصميم المعركة في الهجوم الى الحاق الضربة الاولى ، بضربات متتالية حتى يتم تدمير كل شيء (الموارد المادية ، وتقنيات المعنويات) وان مدى التدمير والتفتيت يتوقفان على الهدف من شن الحرب .. أي بعبارة اخرى ، يتبع المهاجم - كما يقول (الادميرال الاميركي جي سي ديلي) السوق المتعاقب في حين يتعين على المدافع الصامد اتباع مايسميه (جي سي ديلي) (بالسوق التراكمي) ويعني ازالة ضربات متفرقة وفردية على الخصم ، والقيام بالتجريد السوقي الجوي و / او البحري ، فاذا كان لا بد من المثابرة والصمود في الصراع اكثر من العدو فعليه ينبغي الاكتفاء بنتائج متواضعة ، قدر الامكان ، تتناسب مع الوقت ، لان طبيعة الاشياء تتطلب ممن ينبغي هدفا كبيرا ، ان يحاول تبديد قوى الخصم ، بتخصيص ما يطلب الهدف

الصغير •• واصغر هدف يمكن تحديده في هذه الحالة ، هو المقاومة البحتة البسيطة ، أي القتال الذي لا يحمل اية نوايا ايجابية •• وفي هذه الحالة يتأكد ضمان النتيجة اكثر ، اذا كانت الوسائل قوية نسبيا •• ولكن الى أي مدى يمكننا ان نذهب في هذا السبيل ••؟ •

انا بلاشك لا نستطيع السير ، في حدود السلبية المطلقة ، لان الاستمرار والجلد وحدهما لا يحسمان المعركة، والمقاومة عبارة عن نشاط يرمي الى تدمير مجموعة من القوى تبلغ مايدفع الخصم الى التخلي عن مخططه ، وهذا كل مانود الحصول عليه في كل عمل من اعمالنا ، وهذا مايتضمن الصفة السلبية للنوايا ، وهذا مايعكس للعدو صمودنا •••

ولا شك ان النية الدفاعية السلبية المتمثلة بعمل واحد ، هي أقل فعالية من العمل الهجومي الموجه في الاتجاه ذاته •• ولكن النية السلبية الدفاعية تتيح عملا اسهل من العمل الهجومي الايجابي وتقدم ضمانات اكبر ، وان ماتفقده من الفعالية ، تسترد بفضل الوقت أي بفضل الاستمرار في القتال ، لهذا فان النية السلبية الدفاعية التي تكون المبدأ الاساسي للمقاومة الصرفة ، وهي وسيلة طبيعية للاستمرار في القتال مدة اطول من مدة قتال العدو ، انها عبارة عن استنزافه وانهاكه وبالتالي اجباره على التخلي عن نواياه •

وهذا هو الفرق بين الدفاع والهجوم بالنسبة لاهدافهما ، فالدفاع ينم عن الصمود ، في حين ان الهجوم بحاجة الى الاقدام ••• الا ان الاقدام ، اذا كان نابعا عن المزاج وليس عن الفكر، فانه سيقود الى الهواية •

والنتيجة : اذا استطاعت النية الدفاعية تجميع كل الموارد بغية المقاومة البحتة وتحقيق التفوق في القتال ، واذا بلغ النفوق مبلغا كافيا لموازنة التفوق المحتمل لدى العدو ، فأن استمرار المعركة كاف وحده لتبديد قوى

العدو شيئاً قشياً ، حتى يصبح هدفه غير ملائم لجهوده ، عندها يضطر الى التخلي عن القتال ... وهكذا فإن طريقة انهك الخصم واستنزافه تشمل فعاليات متعددة منها الاستمرار في القتال والصمود ..

الصمود وقوة الشخصية (أو الشخصية) :

٤ - تدل قوة الشخصية او (الشخصية) على الاصرار والتمسك بالقناعات سواءً أكانت هذه القناعات ناجية عن احكام الشخص نفسه أو مستمدة من احكام الآخرين ، وسواءً أكانت مستندة الى مبادئ ثابتة او آراء وليدة ساعة ، وقتية او مرحلية ، أو أي شكل من اشكال القناعات الفكرية .. ومن المؤكد ان مثل هذا النوع من الصلابة ، لا يظهر ، عندما تتعرض القناعة لتبدل مستمر ، ولتحولات غير ناجمة بالضرورة عن مؤثرات خارجية ، بل تنبثق عن الحركة القلقة الذاتية للفكر نفسه .. الامر الذي يدل على عدم ثبات الافكار عند الشخص ..

ان من يغير رأيه في كل لحظة يفقد كثيراً من المقومات الشخصية ، حتى ولو كانت أسباب التبدل نابعة من ذاته ..

ولا يدل الصمود الناجم عن الصلابة ، الا على قناعات ثابتة وصافية ، وعميقة الجذور ، عندئذ فقط لا تتعرض للتغيير ، أما عند الرجال اللمفاويين (البلاء) فان نقص النشاط الفكري عندهم لا يتيح أي مجال للتغيير ، ولكن لا يوصلهم الى اعمال مجيدة ..

أما في الحرب - فأن الشك يهز كل معلوماتنا وقناعاتنا ، فتتعرض الروح لتأثيرات عنيفة وعديدة ، لذا يزداد عدد الدوافع التي يجعل الرجل ينحرف عن الطريق الذي بدأ يسير عليه ، كما يجعله يشك بنفسه بمن حوله ، ولكن هذا الانحراف ، وذلك الشك في الحرب اقوى منهما في أي نشاط انساني آخر ..

وكما يشير الخطر ومنظر الالم في الحرب مشاعر تسيطر بسهولة على القناعات الفكرية .. فأن بصيص النور الخافت والقلق المنتشر في كل مكان، يجعل (الاحساس) الواضح والعميق في حالة من الاضطراب ضمن مثل هذا المناخ في الحرب ، ولا تستند الا على حقائق مخمنة او متوقعة ، لذلك تظهر اختلالات في وجهات النظر ، تتعارض مع القناعات الاولى ، ولا يستطيع اكثر الناس لمفاوية حماية نفسه من ذلك ..

أما الافكار والمبادئ العامة والقناعات الثابتة التي تنطلق من وجهة نظر عليا والتي توجه العمل ، فلا يمكن ان تكون الا ثمرة تفهم كامل وواضح .. على حين تغدو الاراء المتكونة عن الحالات الخاصة والآنية ، ضعيفة امام المبادئ .. ولكن الصعوبة تكمن في ان علينا التمسك بكل صلابة بنتائج التفكير السابق رغم الاحكام والظواهر المتناقضة التي تظهر في العمل *

وبين المبدأ وآراء حالة خاصة طارئة ، هوة كبيرة ، لا يمكن ، غالبا ، ردمها ، بتسلسل منطقي ظاهر ، في هذه الحالة ، يفيدنا أمران هما :

أ - الثقة بالنفس *

ب - درجة معقولة من التشكيك *

هذا المبدأ هو الاصرار في حالة الشك على وجهة نظرنا الاولى ، والتمسك بها ، وعدم التخلي عنها .. الا امام قناعة واضحة جداً .. وهذا أصعب الصعوبات التي يتعرض لها الفكر البشري في الحرب *

ولكن ينبغي ألا ننسى : ان الايمان الذي لا يتزعزع بالحقيقة السامية لمبادئ اكيدة ، تثبت صمتها مدة طويلة ، ويبقى اقوى من الظواهر العابرة، رغم قوتها الآنية ..

وان التمسك بالقناعات المسبقة في الحالات التي يكتنفها الغموض ،
والاخلاص لهذه القناعات ، كافيان لاعطاء تفكيرنا ثباتاً واستمراراً يرفعان
من قدرتنا على الصمود •

الصمود والعناد :

هـ - ولقد علمنا لحد الآن ، ان دوافع الصمود ناجمة عن قناعات فكرية
عليا ثابتة ، وفهمنا مدى اسهام المزاج المتزن ، والذكاء الخاص في بناء قوة
الارادة ، التي تكون ساساً للصمود في الازمات ، ولكن الكلام عن قوى
الارادة والشخصية يقودنا الى الحديث عن شكل آخر من اشكال هذه القوى
وهو « العناد » ... وغالباً مايستشهد بوحدة مقاتلة دافعت عن
موقعها بعناد ! !

فماذا يعني العناد ؟ وما علاقته بالصمود ؟ ..

وقد يصعب على المرء ان يحدد نهاية الصمود وبداية العناد الا أن إيجاد
الفرق المجرد النظري بين هاتين الصفتين ، ممكن بدون صعوبة كبيرة •

يعرف علماء النفس العناد : على انه ليس عيباً من عيوب الذكاء، ولكنه
تعبير يستخدم لتحديد رفض الخضوع لفهم اعلى رفضاً ، لا يمكن ان يعزى
الى الذكاء الذي هو قدرة كبيرة على التفهم ، بدون ان يكون في ذلك تناقض،
فالعناد اذن ، عيب من عيوب الطبع ، وليس نقصاً في الذكاء • ويمكننا ان
نعتبر العناد قوة اكبر من قوة الصمود ، ولكن بدون دوافع واضحة وسامية •

وبهذه الصورة يكون للقناعات الفكرية دور أهم يحث المرء على العمل
على حين يتلقى الانسان دعماً افضل من تلاحم الفكر مع الشعور ، ذلك
التلاحم الذي يدعى بتسميات متعددة • كالصمود ، والصلابة ، والاصرار،
وقوة الشخصية ، والعناد وهذا ما عالجنه في هذا البحث •

الفصل الثامن

■ الفكر ■ المزاج ■ واثرهما في الحرب

« المزاج خاصية بشرية لها مردوداتها المختلفة على الانسان
في الحياة .. كما لها تأثيراتها المتباينة في الحرب »

« الفصل الثامن » الفكر – والمزاج واثراها في الحرب

١ – ان الانسان هو « معيار كل شيء » في الحرب ، كما يقول
(العقيد البرتغالي – ميكشه) وأن العلم والتقنية ، والمعدات المتطورة •
وأساليب القتال وفنونه •• كذلك السياسة ، والاستراتيجية (السوق)
والتعبية ، كلها وسائل تقرب الانسان من غرضه النهائي من الحرب ، وهو
الحياة الافضل ضمن اطار من السلم الدائم والعدل •••

وأن الانسان عبارة عن الجسد والروح ، والفكر ، •• لقابليته البدنية،
وروحه المرهفة ، ولقوة نفسه وشعوره وفكره النير ، مساهمات جادة وفعالة
في الحرب ، كما في الحياة ••

وان كل ما يحمله من الطبع والشخصية ، هو الذي سيستثمر هذه
الموارد ، ولكن سوف لن يستخلص منها ، الا ماتتيحه له صفاته الشخصية
أن يستخلص •

وتبرز أهمية هذه الظواهر البشرية ، بحسب الظروف المتعددة ،
ومتطلبات المواقف المختلفة •

ويؤثر الفكر ، ويتأثر بها ايجاباً او سلباً ، فتنبثق الطاقات البشرية
بالمحصلة ، ليدهش العالم ، والاجيال الصاعدة وقد تنضم تلك الطاقات
لتحل اللعنة والعار ، ابد الدهر ••

ومن المعلوم ان فكر الانسان ومزاجه (طبعه) أمران منفصلان الواحد
عن الآخر •••• اذ يطيع الانسان ، في المواقف الحرجة احساسه اكثر مما

يطيع أفكاره ... فينما يستند عمل الفكر او الذكاء ، على مجموعة من المفاهيم معظمها على الاقل غير موروثة ، في حين ان عمل المزاج ، لا ينبثق الا من معلومات وهمية ، لا اساس لها في الغالب .

ومما لا ريب فيه ، ان الامزجة البشرية ، متعددة ومختلفة وانها نابعة من التكوين الفردي للانسان ، ولها آثارها في حياة الانسان وانعكاساتها عليه ، وعلى الآخرين من اتباعه .

٢ - لقد صنف علم النفس ، الامزجة البشرية ، بشكل عام ، عدة تصنيفات ، لا يتسع المجال لخوض تفصيلاتها ، وتشعباتها نظراً لعدم الاختصاص ، ولاننا نرى في التصنيف التالي ثلاثاً وانسجاماً اكثر ، مع موضوع بحثنا هذا ، لذا نكتفي بأستعراضه ، ونجنب انفسنا من سبر أغوار تعقيدات النفس البشرية اللامتناه . ويجري تصنيف الرجال بناءً على نوعية أمزجتهم وطبائعهم الى اربع مجموعات وكما يلي :-

أ - اللغاويون او (البلاء) :

وأن هؤلاء ، أناس ، قليلو الافعال ، والاحساس بالمخاطر ...

ب - الحساسون الهادئون :

وهؤلاء افعاليون ، وحساسون ، ولكن لا تتعدى مشاعرهم درجة معينة .

ج - أصحاب المزاج الانفعالي :

أما هؤلاء ، فهم المندفعون الذين يفعلون بسرعة وتنفجر مشاعرهم فجأة ، ويعنف كالبارود ، ولكنها تنطفئ بسرعة ايضاً .

د - المتزنون ذوو الاهواء القوية :

وهؤلاء ، لا يفعلون بسرعة ، وفي ابسط الظروف ، ولا تستيقظ حساسيتهم بسرعة وفجأة ، بل وبصورة متدرجة وتصبح مشاعرهم ،

عندئذ قوية ، تدوم مدة طويلة من الزمن ، انهم متزنون ذوو الاهواء
القوية والعميقة ، والصامتة •

لنر ما هي انعكاسات هذه الطبائع البشرية المختلفة على النشاط
العسكري وتأثيرهما في خلق قوة شخصية ؟••

اولا — الرجل اللمفاوي : نراه لا يفقد توازنه بسهولة ، وينعدم عنده
كل مظاهر الفاعلية ، ولكن ذلك لا يعني انه قوي الشخصية •

وقد يظهر نوع من الفعالية لدى أمثال هذا الرجل في الحرب ، ولكن
وحيدة الاتجاه ، تقود الى الثبات الكامل ، ولكن حرمانه من الدافع الايجابي
للعمل والنشاط ، لا يوصله الى النهاية المجدية ، كما ان ثباته او نشاطه ،
لا ينتقلان الى الآخرين ، لانهم لا يقتدون به ، لوضوح محدودية نشاطه
وعمله ••

ثانيا — أما افراد النوع الثاني (الحساسون الهادئون) فهم يفعلون
بسهولة مع الامور الصغيرة ، ولكنهم يقفون عاجزين أمام القضايا الجليلة،
أنهم سريعو الاندفاع لنجدة شخص بأفس ، ولكن منظر بؤس جماعي يثقل
كواهلهم بدلا من ان يدفعهم للعمل •

أما في الحرب فيعمل هؤلاء الرجال بفاعلية ونشاط وتوازن ، الا انهم
لا يقومون ابدأ بأعمال جليلة ، أنهم رجال الظل ، يصلحون لمناصب درجة
ثانية بعد القادة •

ثالثا — اصحاب المزاج الانفعالي : لا يصلح اصحاب المزاج الانفعالي
المندفع للحياة العملية ، كما لا يصلحون للحرب بشكل عام •• ولكن من
الملاحظ ان ميل حساسية هؤلاء الرجال الى الشجاعة والطموح ، يجعلهم
قادرين على القيام بأعمال حسنة في وظائف صغيرة •• وذلك لان الاعمال
الحرية الخاصة بالمراتب الصغيرة هي عادة اعمال محدودة المدى ••

ان الایعاز « الى الامام » ينطلق بكل قوة من هذا المزاج الانفعالي المندفع ، ولكن سحره لا يدوم الا لحظات بسيطة على حين ان القتال العنيف الذي يعقبه يستمر طول اليوم او عدة ايام .. وعلى ذلك يجد هؤلاء الرجال بسبب عنف مشاعرهم صعوبة مضاعفة للمحافظة على توازنهم ، وغالباً ما يطيش صوابهم ، وهذا أمر خطير اثناء القتال .

الا ان التجربة تبرهن لنا ، على وجود رجال مزاجهم من هذا النوع ، ولكنهم مع ذلك أقوياء ، أي قادرون على حفظ توازنهم .. وهؤلاء ، هم في الغالب اناس يحملون في اعماقهم طبعاً نبيلاً .. وأنهم يتمتعون غالباً بهذا الشعور ، الذي لا يجد الوقت الكافي لعمل بفاعلية كاملة . لذا ما أن ينتهي الاندفاع الاول ، حتى يصبحوا فريسة احساس قوي بالهوان .. ولكن إذا ما تعلموا بالمراقبة والتجربة والممارسة ، كيف ينتبهون الى انفسهم ، ويراقبون في لحظة الانفعال القوة المعاكسة الكامنة في نفوسهم ، أصبحوا قادرين على التصرف بنفس قوية .

رابعا - وأخيراً هنالك الرجال المتزنون ، ذوو الاهواء القوية الذين يفعلون بصعوبة ، ولكن انفعالهم عادة عميق وعنيف ويعتبرون بالنسبة لسابقيهم كالجمر بالنسبة للهب ، وهم بفضل قدرتهم الجبارة ، أقدر الناس على تحريك كتل الجماهير العريضة ، وتشبه مشاعرهم حركات الجماهير التي لا تقاوم ، رغم بطء مسيرتها ..

ولا يقع هؤلاء الاشخاص ضحية مشاعرهم ، ولا تستطيع هذه المشاعر جرهم الى أفعال يخلطون منها بعد ذلك ، كما هي الحالة بالنسبة للنوع السابق ..

ولكن التجربة تدلنا ، رغم كل هذا ، على انهم يفقدون بعض توازنهم ، ويقعون ضحية هوى اعمى ، وهم يقعون في مثل هذه الهاوية ، إذا لم يتمتعوا

بالألفة والكبرياء ، والسيطرة على النفس •• أو إذا لم يكن آتئذ لمشاعرهم
أَنزَان كَاف •

وننتهي من كل هذا الى القول : ليست النفس القوية ملكاً لمن لا يعرف ،
الا ، الانفعالات القوية ولكنها ملك لمن يعرف كيف يقى سيد نفسه ،
تحت تأثير اعنف الانفعالات ، واشدها سوءاً ، بحيث يحتفظ بقدرته على
الحكم بكامل مهارتها ، رغم العاصفة المزمجرة في قلبه ••
وهذه فضيلة اخرى من الفضائل البشرية ، لها مردوداتها المختلفة على
الانسان في الحياة •• كما لها تأثيراتها المتباينة في الحرب •••
وعليه فأن هذه الدراسة البسيطة للامزجة البشرية ، تفيدنا ولا شك ،
لمعرفة مايدور حولنا ، في جو القتال المضطرب ، الباعث للقلق والمليء
بالانفعالات ، والاهواء ••

وتمكننا من فهم دوافع تلك التصرفات التي يديها الرجال في وحدة
مقاتلة ، أيام السلم او الحرب ، ويهمننا ذلك كثيراً في بناء مايسمى بـ (روح
الوحدة او القطعة) على أسس نفسية راسخة ومتينة •
ويكون عندئذ من الحكمة والدراية ، عندما تعهد للرجال مهام معينة،
أن تؤخذ • نوعية مزاجه بنظر الاعتبار ، وينبغي أن يخضع للاختبار مسبقاً ،
تماماً ، كما تخضع قدراته الفكرية والبدنية والفنية والعلمية للاختبار ،
خاصة عندما يعهد لهم ، بمهام او مناصب قيادية او إدارية مختلفة •

« حضور البديهة »

يقودنا الكلام في موضوع « الامزجة البشرية » الى موضوع آخر
هو « حضور البديهة » •

ولقد اعتبره (كلاوزفيتز) صفة فكرية ، التي ولا شك ، تعتبر فضيلة
مفيدة من الفضائل البشرية ••• وانها ميزة خلاقة للفكر هذه الميزة التي لا بد

وان تأخذ مكاناً كبيراً في مجال عمل مليء بالمفاجآت غير المتوقعة ، وفي حقل الصراع مع الامور الطارئة ..

وما اكثر ما يجد القائد الحربي نفسه في مثل هذه الامور في الحرب واننا نعجب كل العجب بحضور بديهة الفرد ، عندما يرد بشكل صحيح على سؤال غير متوقع ، كما نعجب بحضور البديهة ، باتخاذ اجراء ملائم وسريع ضد خطر مفاجيء ... ولا يهم بعد ذلك ، ان كان الرد او الاجراء عاديين ، لان اكثر ما يهمنى هو ، قدومهما بشكل فوري وملائم .. لان الامر يبدو عديم الاهمية اذا ماجاء بعد تأمل طويل .. وهذا التصرف المفاجيء للذكاء يأخذ أهميته الخاصة ، عندما ينبثق في الوقت المناسب ، فيقدم لنا عندئذ سرعة الانقاذ والتدارك بكل دقة وسهولة ...

فهل تنجم هذه الصفة البشرية الرائعة عن اسلوب خاص بالفكر أم تنحدر من طبع متوازن ؟ أم هي بنت تأملات طويلة ومسبقة لدقائق الأمور في حقل المعارف ؟

هذا الامر يختلف باختلاف الحالات .. وان كان حضورها باعتقادي بحاجة الى الامور الثلاثة معاً .. فسهولة الاجابة تنأتى عادة من عقل مفكر ومتأمل ، ومعطاء وفق اسلوب خاص اما الرد الذي يصيب كبد الحقيقة ، في اللحظة المناسبة ، امام خطر مفاجيء فإنه من دون شك ، يتطلب توازناً كبيراً في الطبع والمزاج .

الفصل التاسع

- روح الوحدة او القطعة او الجماعة

الفصل التاسع

روح الوحدة ، القطعة ، الجماعة •

« وهذه فضيلة اخرى من انفضائل الحربية »

١ - مما لا ريب فيه ان الحرب مهنة صعبة من بين المهن وحتى عندما يتخذ الرجال الصالحون للخدمة العسكرية ، لذا فانها تبقى مع ذلك مختلفة كل الاختلاف ، ومستقلة عن النشاطات البشرية الاخرى •• بممارسة هذه المهنة الخاصة تتكون لدى كل مقاتل فضيلة تسمى بـ (روح الجماعة او روح القطعة او روح الوحدة) (١) •

فعند تشبع كل فرد بروح المهنة وفكرها ، واكتسابهم الثقة والالفة الناتجين عن التدريب والمعيشة مع حسن الادارة والتنظيم والقيادة ، يتعزز لديهم روح الطاعة والنظام والتفاني والاخلاص في نفوسهم فيكون لديهم هذه الفضيلة النافعة في القتال ••

« فأن افراد الوحدة او التشكيل ، عندما يحافظون على تشكيل القتال تحت نيران الحارقة المدمرة ، ولا ينساقون للمخاوف الوهمية ، ويعرفون كيف يقاومون اعنف الاوضاع ، ويفخرون بضحاياهم ، ويحتفظون ، حتى وقت الهزيمة بالنظام والطاعة واحترام الرؤساء ، والثقة بهم ، ويعتبرون رغم

(١) يختلف الكتاب والمؤلفون في تفصيل استخدام احدى التسميات الثلاثة في كتاباتهم •

انهاك قواهم البدنية ، ومعاناتهم من الحرمان والجهد المستمرين ... ان هذه الجهود التي يبذلونها في المعارك هي وسيلة للنصر ، وليس لعنة نزلت عليهم من السماء ، عندئذ ، تكفي فكرة المجد وشرف الوحدة والسلاح ايقاض هذه الفضيلة عندهم » (٢) .

ولكن في التأريخ شواهد تدلنا على امكانية الحصول على النصر دون ان يحضى الجيش بمعونة هذه الفضيلة ، وذلك بفضل قائد محنك ، قصاد جيشه للنصر رغم غياب هذه الفضيلة في بداية الامر . لذا يمكننا القول ، بأن انعدام الفضيلة المذكورة ، لا يعني عدم حصول حرب ظافرة ، فهي تظهر كقوة معنوية محدودة ، لا يمكن تجريدها ، وبالتالي لا يمكن حساب تأثيرها ، هذه هي خصائصها ، أما تأثيرها فلا يمكن قياسها ومعرفتها الا مع الاجزاء الاخرى من الفضائل الحربية ، كعبقرية القائد ، والصفات الطبيعية لافراد الجيش ، وأبناء الشعب .. من الشجاعة والاقدام والمهارة ، وقوة التحمل ، والصبر والحماسة ... الخ (٣)

فكيف يمكن تنمية هذه الفضيلة ؟

٢ - لقد ابرز (غوستاف لوبون) في كتابه المشهور (بيسكولوجية الجماعات) تأثير الافراد بعضهم على بعض ، ضمن اطار جماعة من الجماعات ، بشكل تكسب معه هذه الجماعة ، اشكالا من الاحساس والتفكير ، خاصة بها ، تختلف عن الاحساس والتفكير الفردي لدى كل منهم بصورة مستقلة ، تحت ظل بعض الشروط ..

ويتم التوصل الى خلق « روح مشتركة جماعية » ليس من محصلة النفوس الفردية ، وانما بخضوعها لنفسية (بيكولوجية) وفكرية خاصة ..

(٢) المؤلف في الحرب - كارل فون كلاوزفيتز - ص ٢٣٤ تعريب اكرم ديري والمقدم الهيثم الايوبى .
(٣) المصدر نفسه (ص ٢٣٥) .

وقد تنتقل الحالة النفسية والفكرية الفردية الى الحالة الجماعية النفسية والفكرية وفق شروط معينة ..

لقد نقل جان بيريه^(٤)... ملخص استنتاجات (غوستاف لوجون) مع اضافة بعض نظريات (جبرائيل دونارد) عن التقاليد .. لبيان حركة نقل هذه في كتابه - الذكاء والقيم المعنوية - أراني مضطراً على القيام مقام به (بيريه) نظراً لاهمية الموضوع ومسارنه خط تفكيري في هذا البحث... بعد ان اقتنعت بدوري بالاسس التي وردت في هذا الملخص .. مما يكون من السهل الحصول على بعض الاستنتاجات المفيدة وذلك باضافة بعض الايضاحات الضرورية من وجهة نظرنا وخبرتنا عليه في الاسطر التالية ...

٣ - انتقال الأحاسيس والأفكار من الفرد الى الجماعة :

من الملائم ، في بادئ الامر ، تعريف (جماعة بسلوكية) او كما يسمى في المفردات العسكرية (روح الجماعة ، او روح القطعة ، او روح الوحدة) ..

« ان مجموعة من الافراد المجتمعين في مكان واحد ، لا تشكل بالضرورة والالزام (جماعة موحدة نفسياً - جماعة بسلوكية) .. أذ ينبغي وجود فعل بعض عوامل الاثارة العقلية والفكرية ، وبصورة خاصة ، العاطفية ، كي تنبعث (روح الجماعة) » .

على ذلك هناك جماعات من مختلف الانواع .. ولكن يمكن تقسيمها بشكل عام الى نوعين من الجماعات البشرية * وكما يلي :

(٤) راجع كتاب - الذكاء والقيم المعنوية - جان بيريه ، ص ١٨١ ، تعريف: اكرم ديري والهيثم الايوبي .

أنواع الجماعات :

أ - جماعة غير متجانسة ، مؤقتة (غير ثابتة) : كجماعة عديدة كبيرة ، اجتمعت بمحض الصدفة ، في الوقت والمكان المعينين أو لهدف محدد أو غاية معينة كالجماعات السياسية أو الدينية أو العقائدية .. أو الجماعات ، لدى أفرادها نوع من التشابه في الوظيفة أو طراز المعيشة (كطبقة بورجوازية ، عمالية فلاحية ، مهنية ... الخ) .

وتعتمد هذه الجماعات كثيراً على زعمائها (القياديين) لغرض توجيههم في الاتجاه السليم .. ولكن من المعلوم ان مجال عمل وتأثير هؤلاء الزعماء محدود ، وانهم قادرون على دفع الجماعة الى الامام في موقعة قتالية قصيرة الامد ، متوسط الاهمية ، الا انهم سيئون في هجوم عصري كبير^(٥).

ب - النوع الآخر - فهو قطعة عسكرية (وحدة او تشكيل) فهي جماعة متجانسة وثابتة ، تملك بدلاً من الزعماء (القياديين) قادة معينين بالنظر لكفاءتهم ، لهم حقوق وواجبات محددة ، وهيبة تعتمد على رتبهم ، ويملكون وسائل شرعية لضبط قطعاتهم ، وعندما تكون الدولة صحية ، تحاول كسب الشباب مسبقاً ، وتقويمهم لانهم جنود المستقبل ، ولان عليهم خدمة الواجب المقدس ، وسيرهن هؤلاء الشباب ، شرفهم الشخصي ، بشكل تلقائي وخفي لاتمام هذا الواجب ، وقد سبق وقال السيد القائد (صدام حسين) (نكسب الشباب نضمن المستقبل) .

والجيش يقسم نفسه دوماً الى مجموعات متجانسة (وحدات ، الوية ، فرق) .. تتدرب ، وتتجهز ، تتسلح ، تبعاً للدور الذي يقع على عاتقها في المعركة - وقبل ان يعرف افراد القطعة ، الآلام ،

(٥) المرجع السابق ، ص ١٨٣ .

والأخطار المشتركة، فانهم يكونون قد تكيفوا على الحياة المشتركة ، فهم يأكلون الحساء معا ، وينتقلون ويعسكرون معا في مكان واحد ، ولوقت طويل ، ويعرفون بل يتعلمون روابط الزمالة التي تنسج الجهد الجماعي ..

وان اسباب ميلاد مثل هذه الروح هي كما يلي :-

أ - يأخذ الفرد الغارق في الجماعة ، مفهوم مشاركة قوى كبرى ، ويفقد الشعور (بالفردية الخاصة) ولو جزئياً .

ب - تنمي ظاهرة التقاليد وما يسمى (بالعنعات) العسكرية في القطعة العسكرية بفضل مراسلات عقلية ، وبفضل مغناطيسية جماعية ليست معروفة جيداً لحد الان .. وتنمي هذه الظاهرة عدوى عقلية حقيقية .. وتكون هذه العدوى اكثر قوة ، كلما ازدادت قوة تلقين الملقنين والموجهين والمحاضرين ، في الوحدة او التشكيل ، وكلما تجاوزت الاعمال الموصى بها مع أهواء افراد الجماعة ..

ج - ان الفرد كعضو في جماعة من الجماعات ، ميل الى تحويل الافكار التي اوجيت اليه الى الاعمال فوراً ، حتى ولو كان معتاداً في مجرى حياته العادية على استخدام حاسة النقد ..

د - ان المعاشية والزمالة ، والشعور بالمسؤولية ، والوعي بالمصير المشترك والتشابه ، كلها عوامل تنمي قوة الالتزام بالتقاليد ، والتمسك بها ويكون من السهل عندئذ ملاحظة مايقدمه هذا السلوك من النتائج الايجابية أثناء القتال .

ويمكن القول بان الالتزام بالتقاليد والتفاني يقدمان نوعاً من الاسمنت يربط افراد الوحدة ، في كتلة واحدة متينة عندئذ لا يشكلون حفنة من الرمال مهددة بالانهيار .. ولا يهم من بعد ذلك ، ردود الفعل

المتعددة والمتشعبة للأفراد ، التي تضاد الاتجاه الموحد للجماعة ، بعد أن تماسكت واستقطبت في اتجاه واحد ..

ولكن في أي اتجاه ؟ .. أهو اتجاه نحو الاندفاع ام اتجاه نحو الفرار؟ .. وهل يرتفع الرجال الى مستوى الابطال ..؟ أم ينحرف الابطال بموجة من الهلع ..؟ .. وهل ستتشر عدوى الشجاعة أم عدوى الخوف ..؟

ان كل ذلك مرتبط بالظروف ، وينبغي ان لا نعتمد كثيراً على هذه الفضيلة بصورة مجردة ، ونعتبرها الدواء الوحيد الناجع ، انما ينبغي اعتبارها كقوة معنوية محدودة فحسب .. ولكن ما أن تندمج مع الفضائل الأخرى وبفضل حسن الإدارة والتنظيم والقيادة حتى تصبح قوة دافعة ايجابية ونييلة ..

وتجد القطعة العسكرية (الوحدة والتشكيل) نفسها مزودة بالعقل والذاكرة والارادة ، عندما تتكامل فيها روح الطاعة والنظام والتفاني ، تتكون لديها غريزة المحافظة على بقاء الجماعة ، لتحل محل غريزة المحافظة على البقاء الفردية ، وبوجود القائد على رأس قطعته العسكرية ، يلعب ازاءها الدور الذي يلعبه المخ النفسي في الفرد ، وهو دور معدل للخيال ودليلا له ويزوده بكل القدرات التي لا تلعب أي دور في قيادة جماعة غير منظمة .

ويمكن بالاضافة الى ذلك ، قيادة القطعة العسكرية ، بشكل افضل من قيادة جماعة غير منظمة ، ويرجع ذلك الى تجانسها وانضباطها ، وترتيبها ، وتمفصلها ، وباندماج بناء قيادي في كتلتها ، ووجود شبكة لنقل الاوامر والمعلومات ، فالأثر المعنوي فيها « سريع ومباشر » وتطير كهربائيا من السبب الى الانطباع (من المنبهات الى الاستجابات) على حد قول (دوبراك) .

فالتقليد الاجتماعي ، يتقدم في القطعة العسكرية ، وينمو ويوجه الى أقصى ما يمكن وتتألف الكتلة البشرية في كائنات ضعيفة ولكن تتكيف

بصورة رائعة ، ويقع (الالفاعلون) (الكسالى انصار الراحة والنوم) الذي عناهم (ربيو) في دراسته تحت تأثير (أقوياء الشخصية) وانصار العمل والكد وكل قطعة مرتبة بشكل يكون معه « أقوياء الشخصية » قادة مكلفين بضرب اروع الامثلة وكوادر مساعدة يشكلون مصادر الاشعاع ومراكز الجاذبية المغناطيسية لهؤلاء الالفاعلون والتأثير عليهم وحثهم الى المحاكاة والتقليد والمشاركة الفعلية ويقول (ثوسيديد) :

« يقاتل الجنود من اجل القادة ويقاقل القادة من اجل النصر » .
ومحاكاة المثل الذي يعطيه القائد وتقليده ، يدعم ويكمل ، اذا استندت الضرورة ، بواسطة الزام الانضباط السريع . . والثناء والمدح والتكريم المناسب .

ان الشخصيات الفردية القادرة على التضحية بذواتها في سبيل مثل اعلى ، هم القادة في معظم الاحوال ، أو الرجال الجديرون بأن يكونوا قادة، انهم نادرون ، ولكن مثلهم الذي يدعو الى المحاكاة والتقليد ، يرفع من همم الافراد المتوسطي الحماس وقدرتهم على التضحية كما قلنا ، ويحرك فيهم لا قيمتهم المعنوية فحسب ، بل يحرك ايضا قوتهم البدنية^(٦) .

لا يتمتع الجندي في القتال المعاصر ، بنفس القاعدية والحماية المباشرة اللتين كان يتمتع بهما في العهود الماضية ، انه لم يعد فعالا ومحيا بقوته الجسمية ، ومهارته في استخدام سيفه او رمحه وترسه ، ولكنه يجد عزاء

(٦) هناك قصة معبرة ، تحدث عن الانقضااض على قلعة (سانت - فليب في بورت - ماهون) من قبل قطعات المارشال ريشيليو . . وكان ذلك الانقضااض يتطلب تسلق سور صخري ، وكانت السلالم قصيرة ، ومع ذلك ، تسلق الجنود على اكتاف بعضهم البعض ، وتوصلوا الى الهدف، وبعد عدة ايام أراد المارشال ريشيليو تكرار هذه العملية خارج نيران المعركة ، الا ان الجنود الذين نفذوها تحت نار العدو لم ينجحوا فسي تنفيذها في المرة الثانية . راجع المصدر السابق - (حاشية ص ١٨٥) .

قويًا في وجوده مندمجا ضمن اطار جماعة ، مقادة بصورة جيدة ، جماعة مدربة ومسلحة تسليحا قويا ، ويتمتع باليقين بأنه وقادته ورفاقه ، يعرفون دورهم الخاص ، وانهم مصممون على القيام به ، كما ان لديهم وسائل تنفيذه . ان كل هذا يوحى للجندي المعاصر بالثقة في الحماية الجماعية التي تضمن حياته الى حد ما ، وتعنيه الى حد كبير على التحكم بانفعالات الخوف .

وقد ذكرنا عند بحثنا - الفكر والشجاعة العسكرية - في الفصول السابقة ، على الدور والاهمية الرئيسة للشعور بالشرف في تنمية الشجاعة العسكرية وتطورها ، وعندما تعي الوحدة او التشكيل بواسطة روح القطعة ، فرديتها الجماعية ، تزداد الشعور بالشرف والنخوة لدى أعضائها فيصبح الفرار او الضعف أمورا مشينة ، ويطلب كل فرد من افراد القطعة بأمكانية الاعتماد على اخلاص الجميع ، وينطلق الى ثقة وتقدير الآخرين ، وتقوم بين افراد القطعة قواعد لا يستطيع أي فرد الابتعاد عنها دون ان يتعرض للازدراء .

وبما ان الحياة ، حياة مشتركة ، فأن الاحساس بالشرف والحرص على سمعة الجماعة ينمو بسرعة لأن كل فرد يجد ، في كل لحظة ، في الجماعة : مثلا ، ودعما ، ومشجعا ، ومشاركا للالام والانراح ، وكذلك مراقبا ومحاسبا للاخطاء والانحرافات .

هكذا فان الرجل الشريف كما قال (رونويه) هو الرجل الذي قيد مصلحته الخاصة بقانون القطعة او الوحدة - انه ينظر الى نفسه ، ويحمل اعتباراً قد لا يعود اليه كفرد من الافراد . . انه يغار على القطعة ويراقب روح القطعة لدى الآخرين . فالقطعة مستودع مقدس ، اودع من قبل الجميع بحراسة كل فرد ، ويحترمه ويقدره كل فرد بأن واحد كأنه للجميع ، ويعتني به كأنه لكل فرد « (٧) » .

(٧) راجع نفس المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

ولكي نولد روح القطعة ونطورها ، وبخاصة في زمن السلم ، نحتاج الى كوادر جيدة وتنظيم رصين ، ووقت ، وجهود ، وكثير من الانضباط والتدريب والتأقلم والمعايشة ، وان روح القطعة او الوحدة ، المولدة للشعور بالشرف والنخوة ، تسمح بتوليد ثقة ثابتة لا تتبدد بالصددمات الاولى في القتال ..

وكما قلنا ان من المفهوم ان القطعة العسكرية ، مجموعة بشرية ، وهي قابلة للفناء والزوال ككل ماهو بشري ، فاذا هزل عمل القيادة ، وقلت اهتماماتها بتنمية وتقويم روح الجماعة في القطعة ، تعرضت هذه الفضيحة للهبوط والانحيار .

واخيراً ، فأن الروح الفردية باندماجها في روح القطعة تزيد من قوتها ، فتكسب جدارة فكرية ومعنوية اعلى من جدارتها الخاصة ، فتكون القطعة العسكرية قادرة على المحافظة على كيانها وتصبح اكثر شجاعة ، وأحد ذكاءً وأشد ثباتاً من مجموع الافراد الذين تتشكل منهم أية جماعة من الجماعات غير منظمة .

الفصل العاشر

الفكر وفضيله القيادة
في الحرب

« الفصل العاشر »

٦ - الفضيلة السادسة :

الفكر - وفضيلة القيادة في الحرب

١ - لا يمكن تجريد أهمية ودور الفضيلة المسماة (روح القطعة أو روح الوحدة)^(١) عن الفضيلة الخاصة بالصفات الفكرية والنفسية والمزاجية للقيادة العسكرية والتي تفضل تسميتها بـ (فضيلة القيادة) .
هناك تأثير متبادل بين الفضيلتين ، وتلاحم يكاد يستحيل الفصل بينهما بحيث إذا تخلقت احدهما ، انهارت الثانية ، فليس لاحداهما القيمة والوزن بدون الاخرى ، لقد عالجتنا فضيلة « روح القطعة او روح الوحدة » في الفصل السابق ، وتتناول الان فضيلة القيادة وعلاقتها بالفكر :

فما هي القيادة وما هي فضيلتها ؟

٢ - لكي تعمل جماعة من الجماعات ، ينبغي ان يكون فرد من الافراد قد قرر مسبقا اتجاه وطريق العمل ، ثم فرض هذا القرار ، وبالتالي تحمل مسؤوليته ، هذا الفرد هو القائد او بعبارة اخرى (القيادة) .

ان أوجز تعبير عن القائد ، كما يقول المارشال مونتغمري : « هو ذلك الرجل الذي يجعل الناس يتبعونه ، ويمكن ان يكون مثل هذا الشخص ، انسانا طيبا او سيئا »^(٢) .
المجتمع البشري وحده يستطيع ان يخلق حضارة

(١) راجع الفصل التاسع من الكتاب .

(٢) كتاب السبيل الى القيادة - المارشال اللورد مونتغمري ، ص ١١ ، ترجمة العميد الركن حسن مصطفى .

ويكاد يكون مستحيلا وجود عمل مشترك يتعاون لانجازه عدد من الرجال مالم يتولى أحدهم مسبقا ، اتخاذ القرار ، ويعين اتجاه سير العمل وانهاؤه .. ومالم يتمتع بشيء من سلطة الالتزام للآخرين ..

وليست السلطة ضرورية في أي مكان كالحرب ، ويحس المقاتل بذلك ، ولكن ربما يكون احساسه مشوشا او مرتبكا ، الا ان احساسه بضرورة وجود سلطة احساس قوي ، ومما لا ريب فيه أن كلما كان حجم العمل اكبر ويتضمن مسؤوليات اخطر ، يزداد التعطش لوجود سلطة قوية تفرض الالتزام .

وقد عبر (فيني Viyny)^(٣) عن هذا التعطش للسلطة الذي تفرضه المعركة بالشكل التالي :-

« ان افضل مساعد يستطيع ان يجده الانضباط ، هو الخطر ، فعندما يتعرض الجميع للخطر ، يسكت كل فرد ، ويتعلق الامر بأول رجل يعطى أمراً او يقدم مثلاً مفيداً »

ومن القصص المثيرة من الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨) التي تبرز ضرورة وجود القيادة واحساس المقاتلين واقرارهم الضمني بحاجتهم اليها ، عندما يداهمم الخطر المحدق ، القصة البسيطة التالية ..

« عندما فقدت جماعة من المشاة متمركزة في حفر القنابل ، ضابطها ، أثناء الانقراض ، فرفع احدهم صوته قائلاً ، بتردد مبهم ، أنه سيتسلم قيادة الجماعة .. فأرتفعت همهمة عنيفة على بضعة امتار منه قائلة « دعنا وشأننا .. تسلم القيادة »^(٤) .

ولكن السلطة الحقيقية ، هي السلطة التي تؤثر في نفوس الافراد ، لتثير فيها طاعة فعالة ، والقائد الحقيقي ، لا يفرض من الاعلى فرضا ، وانما

(٤) المصدر السابق ، ص ١٨٩ .
(٣) كتاب الذكاء والقيم المعنوية - جان بيريه - ص ١٩٠ .

يفرض نفسه بنفسه ، أي أن تعينه ، لا يفعل سوى أن يضعه في وضع أفضل كي يكتسب السلطة الحقيقية ، فمن الذي ، في الواقع ، يمنحه السلطة الحقيقية ، وتتيح له الظروف الصحية لقيادة العمل ؟ • • • ممالا ريب فيه ، أن القطعات التي وضعت بأمرته ، هي التي تمنحه السلطة ، فهي التي تكرسه لقيادتها ، وممارسة السلطة عليها ، وذلك بمنحها له ثقتها المضرة والكاملة ، منحنية أمام حقه ، في الرؤية والتفكير ، والتقدير • •

ولكن كيف يمكن للقائد أو الأمر ، أن يكون أهلا لهذه الثقة • • • ؟ لا ينبغي أن نعتقد أن بإمكان أي قائد أو أمر أن يكرس نفسه بفضل المساعدات والوعود الوهمية ، أو بفضل مجموعة من الوسائل « الديماغوجية »^(٥) ، التي يتعاطاها عادة المرشحون للانتخابات ، لأن لدى الجنود أحساسا عميقا ، بسبب تعلق الأمر بحياتهم ومصيرهم • •

فكيف السبيل الى ذلك • • ؟

عندما يعين القائد ، ليمارس وظيفته ، فإن الوسائل الوحيدة التي يتلقاها من سطلته الشرعية ، هي تلك التي تقدمها له ، الانظمة والقوانين العسكرية ، ويكفي القاء نظرة على بنود تلك الانظمة والقوانين ، وجداول الالتزامات التي تنص على متطلبات الضبط والالزام ، حتى نلاحظ عدم كفايته ، وسخفه في بعض الاحيان ، بحيث يكون من المدهش ، بل من المذهل حقا ، أن نرى ، مع ذلك جماعة من عدة مئات او الالوف من الرجال المسلحين ، لديهم امكانية معارضة أي قرار ، قد يولد موتهم ، ولكنهم مع ذلك ، ينحنون أمام ارادة شخص واحد ، او عدة اشخاص ، زينت ثيابهم بالرتب

(٥) الديماغوجية : تعني حب السلطة من اجل السلطة فقط ، والمحافظة عليها بممارسات قهرية ، ووعود كاذبة •

والنياشين والنجوم ... فلا بد اذن من وجود مشاركة ضمنية لدى الجميع، بفضل العوامل الفكرية والمعنوية التي تحرك لدى المرؤوسين شعوراً الزامياً خفياً ... يتولد هذا الشعور عندهم في الواقع من الثقة والانطباع ، بأن الأمرين والقادة المباشرين على الاخص لا ينطلقون من منطلق شخصي ، ولا يسعون لبناء ، أمجاد وسمعة شخصية ، وانما يعملون لصالح الجميع ، أي لصالح قضية تتجاوزهم جميعاً .

والواقع ان القائد أو الأمر ، لا يمكن له ان يغزو قلوب مرؤوسيه غزواً كاملاً ، الا عندما يحسون بانه يعمل من اجل قضية كبرى ، وهكذا يجب أن تكون سلطته الحقيقية بعيدة عن (الديماغوجية) كما هي بعيدة عن التحيز والانانية .

وكما قال مونتغمري : « ان القيادة هي معركة للفوز بقلوب الناس وافكارهم ... فالقيادة مشكلة بشرية كبيرة ، انها دراسة الطبيعة البشرية، هذه الحقيقة ، يجب ان يفهمها بوضوح كل من يصبو الى القيادة ... وان المخلوقات البشرية ، هي العوامل الحقيقية في العالم الذي نعيش فيه ... فإذا استطعت أن تكسب قلوب الذين يعملون لك ، وان تنال احترامهم ، أمكنك ان تحقق أعظم المنجزات ، وليس في وسع المرء ان يكون عظيماً اذا لم يدرك هذه الحقيقة البسيطة ادراكاً تاماً ... » (٦) .

وهكذا تتبدى في ضوء ساطع ، ضرورة وجود صفة فكرية لامعة للقائد ، وتتبدى الى جانب ذلك ، ضرورة الاستقامة والامانة مطلقتين ... وتفترض مثل هذه الصفات الفكرية ، التعايش مع ذكاء واسع ، مستقيم ، وواضح .

(٦) السبيل الى القيادة - مونتغمري ، ص ٢٨٩ ، ترجمة العميد الركن حسن مصطفى

لقد قال مولنكه مايلي :-

« ان الصفات الشخصية تؤثر بثقلها في الحرب ، اكثر من ثقل الذكاء » ...

ولكن تعبير « تؤثر بثقلها اكثر » لا يرضي (جان بيريه) كما لا يرضيني رضىً كاملاً ، فهو موجز ووحيد الاتجاه ، وتفضل عليها كلمة (نابليون) الذي كان يريد قادة (مربعين) لهم (من قوة الشخصية بقدر مالهم من فكر) ومن ثم يعود (بيريه) ويفضل على كلمة نابليون هذه ، الصيغة العذبة للشيخ الحكيم (لانو) :

« أن كوني جندياً أمر عظيم ، ولكنه يصبح اكثر عظمة ، إذا ما ضمنت الى هذه الصفة ، صفة الحكمة » .. اذ كان يعني بهذه الكلمة توازننا فكرياً ومزاجياً صحيحاً .. أن هذا التوازن ضرورة الزامية ، لان الرجل الذي يستلم منصب تتجاوز مستواه ، لا يلبث ان ينحني ، وتتهار بنيته المعنوية ، ويضعف تحت ثقل مهمة لا يتقنها ، فيضر بنفسه وبالمهمة ، وبالقضية ككل ، لقد قال نابليون بهذا الصدد : « ان أسوأ عمل لا أخلاقي يرتكبه فرد من الافراد هو قيامه بمهنة لا يتقنها »^(٧)

ومن بين الفضائل الضرورية للقائد أو الأمر ، التي ينبغي أن يركز تفكيره بها ، هي الشجاعة التي تكلمنا عنها (فيما سبق)^(٨) ولكن عليه تجسيدها بصيغة متميزة وخاصة هنا : وهي ان يعرف كيف يضرب المثل ، ويعلم بان هنالك طريقة واحدة فقط لتعليم الآخرين ، كيف يتلقون الموت ، بصدر رحب ، وهذه الطريقة هي : « التعرض للموت معهم ، والاقدام اليه قبلهم » •

(٧) الذكاء والقيم المعنوية - جان بيريه ، ص ١٩٧ •

(٨) راجع الفصل الخامس •

ومن الممكن معرفة قوة ورصانة هذه الطريقة ، في اوقات الازمات ، حيث تنتقل العيون لتتركز على القائد او (الأمر) ونستطيع ان ندرك عندئذ التأثير الذي تمارسه هبة القائد او الأمر ، بهدوئه ، ومظهره الدال على السيطرة على النفس ، وبشجاعته الفكرية في اتخاذ القرارات الحاسمة والصائبة ، ومن ثم تنكبه مسؤولياتها .

ومن المعلوم ان هذا النوع من الشجاعة المعنوية يتطلب استقامة فكرية كاملة ، لكي يتجنب القائد اتخاذ قرارات تتلاءم مع بعض النتائج الفورية الناجحة ظاهريا ، وقد تحقق له نجاحه الشخصي ويحافظ على سمعته ، مع علمه بأنها سيئة التأثير على مجموع النتائج في المستقبل، وعليه فان الاستقامة الفكرية الكاملة ، تعني هنا ، التمسك بقاعدة سلوكية معروفة منذ زمن بعيد ، تتضمن « تفضيل المستقبل دوما على الحاضر » وهذا يتطلب دوما اختيار الابد ، والاكثر خطرا في ضباب الشك .. وان يفكر أخيراً مع غوته ..

« أن الله لا يدفع الاجر كل ساجد » .

ان تعداد كل الصفات الضرورية للقائد او القيادة امر غير مجد ولكن هناك اهتمامات تتطلب وضوحا فكريا ، وصفاء النفس ، ضمنا للانتصار الداخلي (فكري ونفسي) وذلك نظراً للطبيعة التناقضية لمجموعة من الصفات التي ينبغي على كل قائد حقيقي ، تحقيقها في ذاته بواسطة التركيب الفكري ، والتوازن النفسي ..

وكما نوهنا فيما تقدم ، بأن للقائد العسكري سلطة واسعة ، وأكثر اتساعا وعمقا من أية سلطة اخرى ، بسبب طبيعة عمله ، وهو قيادة الرجال الى الموت ، رغم مراوغات وتملصات غريزة المحافظة على البقاء . وعليه فان سلطته لا تكون على هذه الشاكلة ، الا اذا بدأ بوضوح انه يمارسها ، لا لفائدة ومجد شخصيين ، بل اخلاصا لقضية تتجاوزه هو ايضا .

فالقائد الذي لا يتمتع بروح قوية ومستقيمة يتعرض للاغراء بتحويل سلطته الى خدمة طموحه الشخصي .. فيرضخ للنتائج ، لا تتطلبها المصلحة العامة ، بل تحكمها رغبة بالنجاح والسعة الشخصية ..

ومن المعروف أن هناك نوعين من الطموح :

ومن الجدير بالاشارة ان هناك فرقا كبيرا ومعروفا منذ القدم بين الطمح والطمع .. وهذا الاخير مرفوض في كل الاحوال ، وعليه فلن نتكلم الا عن الطموح :

الاول - الطموح الشخصي : وهو رغبات وتطلعات شخصية مشروعة نوعا ما .. وليس مجرد من نفع عام ، وينتمي اليه في الحقيقة عدد كبير من الناس الذين يفتشون عن المكاسب ومميزات وامجاد شخصية ، ولا يصعد هذا النوع من الطموح الى القمم الا نادرا .

الثاني - الطموح من اجل قضية اعلى : وهذا اكثر ندرة من الاول ، ولكن أكثر قوة ونبلا ، فهو خاص بالافراد الراغبين بالسلطة من أجل التأثير على الاحداث وخلق عمل عظيم .. وهؤلاء يضعون به بصماتهم على المستقبل ..

وهذا الطموح ملك لاولئك الذين يملكون روح القيادة الحقيقية .. ومن هنا يصح القول بما لا يقبل الشك : لا يمكن لفرد من الافراد أن يكون قائدا حقيقيا ، الا اذا كان عميق الجذور في شعبه ووطنه ، ويعيش بصورة كاملة أحداث مصيرهما ، حتى في احلك اللحظات المؤلمة من المعركة .. انه لا يمكن ان يكون قائدا حقيقيا الا اذا أحس في قلبه كل نبضات قلوب مرؤوسيه من أبناء شعبه .

وعلى ماتقدم ، قد يقال لنا : هل يسكن اعتبار القائد أنسانا استثنائيا ..؟ ينبغي ان لا تردد بالجواب : بنعم ! .. حقا انه استثنائي ونادر ، اذا وصل

مستوى الكمال .. ولكن القطعة العسكرية مليئة بشبكة قيادة كاملة ، ومؤطرة بأسلوب تسلسلي بقاده ، يعتمدون بعضهم على البعض ، عليه فأن توازن هذا البناء يعوض الى حد ما ، من عدم كمال بعض الافراد منهم .. وكما قال دون الحمبراء^(٩)

« اذا كان كل فرد شخصا مهما

فلا احد اذن شخص مهم »

فمن النادر من جهة اخرى أن نجد في فرد من الافراد كل الصفات اللازمة للقيادة الناجحة ..

ولكن كما قال المارشال مونتغمري : ان العناصر الاساسية للقيادة تكمن في الانسان نفسه .. ان قليلين من الناس يستطيعون ان يقولوا : أين تكمن المشكلة التي نجاها .. هل ينبغي ان يكون المرء عبقريا حتى يحسن الحل ؟ .. يجيب نفسه على هذا التساؤل « بالنفي » ولكن بدون تعليل او توضيح^(١٠) .. على عكس نابليون الذي نفى فكرة ضرورة وجود العبقرية ، ولكن لم يكن تفهيم قاطعا ، ومع ذلك قدم تعليلا مقنعا لعدم ضرورة وجودها دوما^(١١) .

ومن ناحية اخرى ، نرى ان (مونتغمري) ، يتطابق مع (ليدل هارت) فيما يخص بتعلق عمل القائد بعمل النبي^(١٢) .. محدداً اربع فضائل أساسية مستمدة من الايمان المسيحي .. باعتبارها فضائل صحيحة من الوجهة النفسانية ، لانها تعالج ، الفكرة ، والرغبة ، والارادة .

-
- (٩) السبيل الى القيادة - مونتغمري - ص ٢٩٠ : دون الحمبراء : بطل في تمثيلية (كيلبرت وسلطان) .
(١٠) المصدر السابق (ص ١٥) .
(١١) راجع الفصل الاول .
(١٢) راجع الفصل الثاني من الكتاب .

وهذه الفضائل الاساسية الاربعة هي :-

- ١ - الهدى - وهي عادة ارجاع جميع الامور الى الارشاد الالهي وتستند الى هذه الفضيلة ، الحكمة ، والانصاف ، وحسن التصرف .
- ٢ - العدالة - وهي اعطاء كل فرد حقه ، حتى الالهة والانسان نفسه الى هذه الفضيلة ، تستند الواجبات الدينية ، والطاعة والشكران ، وكذلك النزاهة والاستقامة ، وحسن النية .
- ٣ - الانضباط - وهي السيطرة على النفس لغرض تطوير الطبيعة البشرية الى ارفع المستويات وللاغراض الشخصية والاجتماعية .
- والى هاتين الفضيلتين الاخيرتين يستند الطهر والتواضع والصبر .

- ٤ - الجلادة - وهي روح التي تقاوم ، وتحمل ، وتتغلب على محن الحياة ، واغراءاتها ، والى هذه الفضيلة تستند ، الشجاعة الادية والمثابرة وضبط النفس (١٣) .

ويرى مونتغمري ان اعظم القادة في كل الازمان ، هم مؤسسو الديانات العظمى (محمد (ص) ، المسيح (ع) وبوذا) ويلاحظ فيهم صفتين بارزتين هما كما يقول :

أحدهما : قوة التركيز :

أن من الجدير بالذكر ، ان ثلاثتهم اعتزلوا مدة معينة من الزمن في حياتهم ، والمفروض ان ذلك كان استعدادا لماحدث فيما بعد . . . وكان المسيح (ع) يبقى وحيداً لمدة طويلة ، يقضيها في البرية أو في مكان آخر . .

(١٣) كتاب السبيل الى القيادة - مونتغمري ص ١٦ ، ترجمة العميد الركن حسن مصطفى .

أما محمد (ص) (الذي ظهر سنة ٦٠٠ بعد المسيح تقريبا) فقد اعتزل
ردحا من الزمن (ويقصد خلوته في غار الحراء) •

أما بوذا (الذي ظهر في نحو القرن الرابع قبل المسيح) فقد جلس
ست سنوات تحت شجرة (بوم) وهي نوع من اشجار التين
البري - وقد جاءته خلال مدة التركيز هذه ، الهداية التي اهتدى
بها لتأسيس دينه ••

وتعتبر القدرة على التركيز صفة ضرورية لكل قائد ، وان التمرين
المستمر لهذه الملكة تساعد في ضبط نفسه ، انها تمكنه من تذليل كل
مشكلة ، والكشف عن الامور الجوهرية ، التي يجب أن يبنى عليها العمل
كله ، وعن التفاصيل غير الضرورية ، وبعبارة اخرى ، تمكنه من فرز الذهب
عن النفاية ••

الاخرى - القدرة على اتخاذ القرار :

أن المقدرة على اتخاذ القرار ، ضرورة اولى لكل قائد وفي حالة هؤلاء
الرسل الثلاثة ، كان من الضروري لهم الوصول الى قرار قبل ان يبدأوا
جهادهم (١٤) •

ومن ثم يحدد (مونتغمري) بعض الصفات والفضائل البارزة للقادة،
نعتقد من غير المجدي تعدادها •• مع انني كنت سأجد نفسي مضطرا لتحمل
عناء تدقيق وتحليل آرائه هذه ، لو لم يكن قد أقر مسبقا ، بانه ليس من
السهل على جندي مثله (ومثلي أيضا) أن ندلي بآرائنا في مثل هذا
الموضوع ، لذا اراني مضطرا على تركه لذوي الاختصاص ان يفعلوا ذلك،
ان شاءوا ، وذلك بالرجوع الى كتابه المشار اليه (السبيل الى القيادة) ترجمة
(العميد الركن حسن مصطفى) •

(١٤) المصدر السابق ص ١٥ •

ولكن مع ذلك يمكننا بسهولة أن نستنتج من تحليله الذي حاول فيه إيجاد نوع من العلاقة بين الدين والقيادة ، أو بينها وبين اليقين الباطني^(١٥) إخفاقه في ابطال دور العبقرية على الرغم من افصاحه بذلك صراحة (كما أشرنا اليه) ذلك لان الانبياء المرسلون ، فضلا عن تلقيهم التعاليم السماوية ، كانوا يتمتعون بصفات شخصية تنم عن العبقرية •• وعليه فان اقامة صلة بين عمل القائد وعمل النبي ، تعني الاقرار ضمينا بالعبقرية ودورها في الشؤون البشرية •

ومن ثم فإن (موتغمري) بأعتباره مسيحيا ، يكون من حقه ان يفضل الفضائل المسيحية ويرى ضرورة تحلي القادة بها ، في حين ، يكون من حق أصحاب الديانات الاخرى ، التحلي بفضائل دينهم والتمسك بها ، على الاخص المسلمين منهم ، لان دينهم الاسلامي الحنيف ، اكثر الاديان كمالا وعظمة ، وكذلك الأمر بالنسبة لاصحاب اليقين الباطني ، كما يرى هو ذلك ••

على أية حال ، لا يمكن لاحد ، انكار ضرورة وجود ، صفات وفضائل بارزة ومشاركة للقادة العظام العسكريين منهم وغير العسكريين ••••• تتربع في قمة تلك الصفات والفضائل باعتقادي صفتان ، وفضيلتان هامتان :

الاولى - الصفة الفكرية ، وتلاحمها بالصفة الروحية ، حتى تنم عن صفة الالهام والعبقرية^(١٦) •

الثانية - الصفة الخلقية : التي تؤلف الفضائل الانسانية الفردية والاجتماعية •

(١٥) المصدر السابق ص ١٥ •

(١٦) راجع الفصلين الاول والثاني - من الكتاب - للاطلاع على التفاصيل •

فبأندماج هاتين الصفتين بالفضائل الحربية ، تظهر « العظمة » عندئذ يمكننا أن نستخلص بإيجاز :

ان الصفة الفكرية والخلقية العليا مع التحلي بالفضائل الحربية (من الشجاعة العسكرية والاقدام - والحزم والصمود وقوى « الارادة والنفس والشخصية ») (١٧) - وبالفضائل الانسانية من (المثل والقيم - كالنزاهة ، والاستقامة ، والصدق ، ونكران الذات ... الخ) تكفي بمجملها « بأن نشعر بأنفسنا - العظمة » .. وايضا لما اعنيه في بضعة الكلمات الاخيرة هذه ... اذكر بعض الايات من قصيدة لـ (جون دربنكووتر Johen Dimkwater) في تمثيلته المسماة « ابراهام لينكولن »

فهو يقول :

« عندما نجد الشجاعة

ونبجل الفكر الثاقب

ونعبد العظمة في الناس

اذن فنحن انفسنا عظماء » (١٨)

~~.....~~
~~.....~~
~~.....~~
~~.....~~
~~.....~~

حكر

فما هي اذن النصيحة التي يمكن تقديمها الى كل شخص يصبو الى القيادة ؟ ..

« لا شيء اكثر مما تقدم »

(١٧) هذه الفضائل الحربية ، كانت مواضيع الفصول السابقة .
(١٨) السبيل الى القيادة - منتغمري - ص ٢٩٢ ، ترجمة حسن مصطفى .

الفصل الحادي عشر

**- اثر القدر والحظ -
والصدفة والشك في
الحرب**

الفصل الحادي عشر

اثر القدر والحظ والصدفة والشك في الحرب

(اللهم أجعل اولادي من اصحاب الحظوظ ليعملهم اصحاب العقول)
ينسب البعض هذا الدعاء للامام علي (كرم الله وجهه) خطأ

١ - لسنا بصدد نفي أو اثبات نسبة الدعاء اعلاه الى الامام علي بن ابي طالب (كرم الله وجهه) ، ولا بصدد معالجة مسألة القدرية والجبرية ، لانها لا تتحاشى مع خط تفكيرنا المركزي في هذه الدراسة ، وان كانت هناك ، ثمة علاقة خفية بينها وبين موضوع هذا البحث ، فيما يتعلق بأثر القدر والحظ في الحرب .. الى جانب دور الصدفة والشك فيها .. هذه العوامل غير المادية وغير الملموسة ، تأتي لتحتك بالقيم الفكرية والمعنوية في الحرب .. كما في الحياة ، فتحدد مصائر الاشخاص ، والجماعات وتعطي للاحداث الحرية مسارات محددة نحو الاحسن او الاسوأ ...

وعندما تكون أسلحة القدر والحظ ، وكذلك دور الصدفة والشك ضد طرف من الاطراف ، يتعرض ذلك الطرف الى صعوبات هائلة ، لا يمكن له التخفيف من حدتها الا بفكر ثاقب وذكاء حاد وأرادة صلبة .. لان الظروف والحظوظ - الى جانب دور العقل وقوة النفس - صنوان لا يفترقان .

هذا ما سنتناول بحثه في هذا الفصل ، لتوجيه الانظار الى طبيعة وآثار هذه احوال غير المادية ، دون ان نضع حلولاً جذرية ومحددة لها لان ذلك بحاجة الى دراسة عميقة ومستفيضة قد تدعو الى وضع مؤلف مستقل

لمعالجة هذا الموضوع الهام ، لذا تترك ذلك لمن يجد في نفسه القدرة على ذلك ..

٢ - قال (جوميني) في الاستراتيجية :

« تقود الاستراتيجية الجيش الى النقطة الحاسمة من منطقة الحركات ، تعد وتحصر لنجاح المعركة ، وتحدد نتائجها مسبقا ، غير ان بلوغ النصر ، لا يكون الا بالتعبية المتحالفة مع : الشجاعة ، والابداع ، والتوفيق » .

ونحن نود ان نقف عند الكلمة الاخيرة من هذه المقولة ، « التوفيق » لنجد ان جوميني ، وهو من اوائل الاستراتيجيين في العالم اعتبر التوفيق في الحرب عاملا من عوامل النجاح وسراً من أسرار الفشل .

وان تأريخ الحرب يحدثنا عن الكثير من المعارك ، وضعت خططها بعناية كبيرة ، وفق أسس وقواعد صحيحة ، وطبقت فيها مبادئ الحرب ببراعة ، كما وكرست لها جهوداً جبارة ، وهيأت لها المستلزمات المطلوبة من الاسلحة والاعتدة والمؤن وغيرها ، الا انه مع ذلك كان تصيب القوات الفشل ، لا لشيء الا لسوء الطالع وعدم التوفيق .

ومن المعروف ان كل قرار حربي ينبثق عن فكرة ناتجة عن المحاكمة العقلية ، سواء كانت هذه المحاكمة ذهنية ، بوقت قصير اثناء معمرات القتال ، او بالدراسة المستفيضة للامكانيات ، والمعطيات والعوامل .. هذه الدراسة التي تتم بالتسلسل المنطقي وبصورة منهجية تسمى في الاوساط العسكرية بـ « تقدير الموقف » ..

ومن المعلوم ايضا ان تقدير الموقف الحربي على الصعيد الاستراتيجي والتعبية ، يبنى على مناقشة عدة عوامل ، كلها تقريبا مادية ، يجر عمل مقارنات كمية بين قوات الطرفين (فرق المشاة والدرع ، وحدات المدفعية أجنحة وأسراب الطائرات ، عدد السفن البحرية وقاذفات ومقذوفات ، عدد

ونوع وقدرات هذه الاسلحة والمعدات) ويتم التوصل الى الاستنتاجات من مقارنة هذه العوامل ، فضلا عن تأثير الارض والانواء الجوية ، ويتضمن أحيانا (المعنويات) التي لا يمكن حساب تأثيرها بدقة كافية ، بل غالبا ماتدخل كعامل مضلل .. هذه هي البنية التحتية للقرار المتضمن عدد من المسالك المفتوحة للطرفين ، الحكومة بقانون الاحتمالات ، ومن الجدير بالاشارة على صعيد الاستراتيجية العليا (او الشاملة)^(١) تقتضي الضرورة ادخال عوامل اخرى في المناقشة ، كعامل السياسة والاقتصاد ، والتقنية ، والامكانات العلمية ، لكلا الطرفين المتنازعين ، اضافة الى انعوامل الآف الذكر ..

وما من شك أن جميع الانظمة العسكرية في العالم ، تتبع هذه المنهجية، في دراسة عوامل القوى ، في عملية تقدير الموقف واتخاذ القرار ، مع عدم اغفال قانون الاحتمالات ، والمتغيرات المتاحة لنا وللخصم ، في اختيار المسالك المفتوحة ..

والملاحظ هنا عدم شمول عملية (تقدير الموقف) هذه على العوامل غير المادية التي لها آثارها الكبيرة ، في تغيير مجرى الامور في الحرب • وهذه العوامل غير المادية وغير الملموسة هي :

القدر والحظ - والصدفة والشك - في الحرب ، موضوع البحث في هذا الفصل ، المبني على اسس نظرية ، نظراً لاستحالة تحديد أثر هذه العوامل على مجرى الاحداث ، وحساب نتائجها مسبقا وبصورة منهجية .. كما أن من المؤسف ، ان تأريخ الحرب يسقط من تسجيلاته أثر هذه الظواهر الخارجية ، في تشخيص أسباب النجاح والهزيمة ، لذا يأتي حكمه في الغالب ناقصا وغير صحيح •

(١) راجع الفصل الخامس عشر من الكتاب .

فما هو اذن أثر القدر والحظ - والصدفة والشك في الحرب ؟

يبدو لنا ابتداءً ، وجود تشابه ، ونوع من العلاقة الوثيقة بين الكلمات الثلاث الأولى (القدر ، الحظ ، الصدفة) وقد يكون بالامكان استخدام ، احداها مكان الاخرين ، في معظم الاحوال ..

فالصدفة الحسنة ، قد يأتي بالحظ السعيد ، والصدفة السيئة تعني تباعاً ، الحظ العاثر ، والقدر ينشر ظلاله عليهما بأعتباره قيمة عليا ..

ليس هنالك صاحب نظرية حربية عالج هذا الموضوع بجدية ، سوى ميكافلي ، الذي اشار الى مسألة القدر او الحظ ، وأثرهما في شؤون الافراد وطرق معالجته في كتابه الشهير « الامير » وقد استلهمنا فكرة بحثنا هذا فيما يخص بالقدر والحظ منه ، وكما ان لكلاوفيتز ، قصب السبق في معالجة مسألة الصدفة والشك في مؤلفه الشهير (في الحرب) وسواهما لم يتابع أحد من المنظرين العسكريين ، أثر هذه الظواهر الخارجية في الحرب ، بالرغم من اهميتها وخطورة تأثيرهما في تقرير مصائر الاشتباكات (المعارك) .

ولكن ربما لدى الجميع عذر في هذا الصمت ، نظراً لاستحالة ادخال مثل تلك الظواهر ، كموامل في تقدير الموقف ، ودراستها بصورة منهجية ، لانها عوامل غير مادية وغير ملموسة لذا فقد ترك الامر الى الموهبة للتعامل معها وفق منطقها الخاص *

بيد انه سيكون من المفيد جداً ، على الاقل ، أن نفهم طبيعة هذه الظواهر الغريبة التي تأتي لتعقد كل الامور .. وان نضع نصب العين ، بأن الصدفة والحظ يلعبان دورهما في الحرب كما يلعبان دورهما في الحياة ، بالرغم من أن الحرب اصبحت تقاد بشكل جماعي ، يتعاون لتقييم الاوضاع فيها ، وحساب الامكانيات ودراسة الاحتمالات القائمة ، الكثير من الهيئات ، والادارات والمقرات ...

ولكن ينبغي ان نعلم ، في مجال الرياضيات ، تؤدي الحسابات التي يتم بنفس العناصر ، الى النتيجة نفسها حتماً ، ولكن في الحرب وفي مجال الاستراتيجية من النادر ان نحصل عند جمع اثنين الى اثنين على رقم اربعة .

لذا فقد تحاول الدول الكبرى التي حصلت اليوم على اكبر تقدم وضع قواعد ثابتة لاحوال غير ثابتة ، وتحاول الحصول على حرية العمل ، ضمن أطار وحدود من (المعايير) . ولكن هذا يقود الى وضع خطط ، قد تبدو منطقية لاول وهلة ، غير انها « متناقضة ومتعارضة » مع آلاف التجارب^(٢).

اثر القدر والحظ - في الحرب :

٣ - كتب ميكافيلي (كما قلنا) عن أثر القدر في الشؤون الانسانية وطرق مقاومتها قائلاً :

« ان الاعتقاد السائد لدى اكثرية الناس ، بأن الاحداث الدنيوية يسيطر عليها القضاء والقدر ، ويتحكم فيها الحظ ... وأن ليس في وسع البشر عن طريق الحكمة والتبصر ، تغييرها او تبديلها ، وان لا علاج لذلك مطلقاً . لذا فأن من الجهد غير المجدي ، أن يعمل الانسان شيئاً لرد ماحكم به القضاء ، وأن عليه ان يدع الامور تجري في أعنتها وفقاً لمشيئة الحظ .. واني عندما أتأمل الاحداث والتبدلات أميل أحياناً الى مشاركة أولئك الناس رأيهم ، ولكن مع ذلك اعتقد ، أن ليس في وسعنا تجاهل ارادتنا تمام التجاهل وفي رأيي ، أن من الحق أن يعزو الانسان الى القدر التحكم في نصف اعمالنا ، وانه يترك النصف الآخر او مايقارب منه لنا لنتحكم فيه بأنفسنا^(٣) .

(٢) كتاب آراء في الحرب - تأليف اكرم ديري - ص ٦٤ - منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

(٣) الامير - تأليف نيقولو ميكافيلي - ص ١٩٠ ، ترجمة خيري حماد .

فكيف السبيل الى ذلك ؟.. وماهي طرق المقاومة المتاحة أمامنا لتحديد أثر هذا المجهول .. فهل هي ، الحكمة والتبصر ، واتخاذ الحيطة والحذر والتعقل ، أم بالجرأة والشجاعة والاقدام والتهور .. ؟

يجيب ميكافيلي نفسه على هذا التساؤل قائلا ..

« أن الناس يختلفون في الطرق التي يتبعونها للوصول الى ما يستهدفونه دائماً من مجد واثراء ، فمنهم من يلجأ الى الحيطة والحذر ، ومنهم من يندفع ويتهور ، ومنهم من يتبع العنف ، وآخرون يتبعون الحيلة والمكر ومنهم من يصبر ويصابر ، وآخرون يتسرعون ، ولكنهم جميعا قد يصلون الى اهدافهم أو لا يصلون ..

وقد نرى شخصين حذرين ، ينجح احدهما في مشاريعه بينما يفشل الثاني ، رغم كون طريقهما واحد ، وقد نجد من ناحية اخرى شخصين يصلان الى هدف واحد ، بطريقتين مختلفتين ، تنطوي طريقة أحدهما على الحذر والأناة والآخر على التسرع والمجازفة ، كل هذا ينجم عن اختلاف طبيعة الزمن التي قد تتفق او لا تتفق مع طريقة الاجراء وينتج عن هذا كما أسلف (ميكافيلي) أن رجلين يعملان بطريقتين متباينتين يصلان الى نفس النتيجة ، بينما هناك رجلان آخران يعملان بنفس الاسلوب فينجح الاول من حيث يفشل الثاني .. وعلى هذا يتوقف أيضا التبدلات في النجاح والتوفيق .. وفي الحرب «الاتتصار» فقد يكون عوامل الزمن والظروف ملائمة لرجل او لطرف من أطراف النزاع ، يعمل بحذر وحسن تبصر ، فيلقى النجاح ، ثم لا يلبث أن تختلف عوامل الزمن والظروف ، فيلقى الهزيمة ويتحطم ، لانه لم يغير طريقته في العمل وفق متطلبات الزمن والظروف ، ولم يحدث قط ، ان وجد انسان على هذا القدر من التعقل والروية ، بحيث يكيف نفسه لجميع هذه العوامل ، أما لانه ، لا يستطيع الانصراف عما يميل اليه طبيعته ، أو لانه ، قد ألف النجاح من السير على طريق واحد ، لا يستطيع

أقناع نفسه ، أن من الخير له أن يتركها ، لذا فإن من تعود على الحذر والأناة، يرى نفسه عاجزاً عن تكييف أعماله ، عندما تقتضي الضرورة السرعة، فيلحق به الدمار والخراب •• حتى إذا كان بأسنطة الانسان أن يغير طبيعته وفقاً لتغير الأزمنة والظروف ، فإن القدر لا يتغير أبداً(٤)» •

ان ما يصح لشؤون الانسان الفرد ، في مفردات الحياة يصح أيضاً لشؤون المجتمعات البشرية ومفردات الاحداث التي تمر عليها •• والحرب كما هو معلوم تعتبر احدى تلك الاحداث الهامة في حياة المجتمعات والافراد. فعلى هذا الانطباق والتشابه بين حياة الافراد والمجتمعات يتشابه أثر القدر والحظ في الشؤون الانسانية ••

ويتابع (ميكافيلي) كلامه فيما يتعلق بطرق معالجة هذا الأثر وهو يقول :

« وأخيراً فإن الحظ يتبدل ، أما الناس فيبقون ثابتين على أساليبهم ، وهم ينجحون ، طالما ان اساليبهم تتوافق مع الظروف ، أما عندما تتعارض ، فإن الفشل سيكون من نصيبهم ، وأحياناً نجد بان التهور خير من الحذر ، ذلك لان الحظ كالمرأة ، تميل الى السماح بامتلاكها للرجل الشجاع ، لا للرجل الذي يسير بتمهل وأناة •• والحظ في الحرب ، كما في مفردات الحياة، شأنه في ذلك شأن المرأة ، تميل دائماً الى الشباب ، لانهم أقل حذراً ، واكثر قوة وضراوة واقداماً»(٥) •

ومن هنا يمكننا اعتبار الجرأة والشجاعة ، والاقدام ، والصمود ، أسمى فضائل الحربية وبفضلها يمكن احتجاز الحظ في جانبنا مع عدم إمكان ادخال تأثيره في حسابات صنع القرار وتحديد نتائجه مسبقاً كما بيناه فيما سبق •••

(٤) المصدر السابق ص ١٩٣ •

(٥) المصدر السابق ص ١٥٩ •

اثر الصدفة في الحرب :

٤ - وقد قلنا فيما تقدم : انه ، ليس هناك صاحب نظرية في الحرب عالج موضوع الصدفة والشك كما عالجه (كلاوزفيتز) ، الا انه مع ذلك لم يضع أسساً وقواعد عامة صالحة للتطبيق لغرض التعامل مع هذه الظواهر كما لم يقدم حلولاً جذرية لها ، وعليه فأنا نظريته عن الحرب ، فيما يخص بـ (الصدفة والشك) أقتصر في الغالب على بيان طبيعتهما ، ولكن بإيجاز رائع ، ومن ثم رمى ، أمر معالجتهما على عاتق الموهبة والعبقرية ، بالتعويل على قانون الاحتمالات ... وهذا ما فعله الآخرون من بعده ، وكان لديهم جميعاً عذراً في ذلك ، كما ذكرنا .

وقد قال (كلاوزفيتز) ما يلي :-

« أن الحرب مجال واسع للصدفة ، وليس هنالك مجال من مجالات النشاط البشري يترك مكاناً فسيحاً لهذه الظاهرة الغريبة كالحرب ، إذ أن المجالات الأخرى ، لا تحتك كالحرب مع الصدفة في كل لحظة ، ومن المؤكد أن الصدفة تزيد ضباب الشك في جميع الظروف ، وتعرقل سير الأحداث » (٦) .

وفي مكان آخر يقول :

« أن تعدد العلاقات وغموضها ، وعدم استقرارها في الحرب تدخل في الحساب عدداً كبيراً من العوامل المتباينة التي لا يمكن تقويم معظمها إلا بناءً على قوانين الاحتمالات ، فإذا لم يتمتع الشخص العامل ، بقوة البصيرة اللازمة لكشف الحقيقة العامة ، نجم عن ذلك ، فوضى في الأفكار والتقدير لا حل لها ، وما أن يجد المرء نفسه وسط هذه الفوضى حتى يعجز عن إيجاد فكرة تساعد على تحديد موقعه وسط مجموع الأفكار ..

(٦) المؤلف في الحرب - كارل فون كلاوزفيتز - ص ١١٩ تعريب اكرم ديري والهيثم الايوبي .

لقد قال كلاوزفيتز في هذا الصدد : نقلا عن نابليون :

« أن كثيراً من القرارات التي يطلب من القائد الحربي اتخاذها ، لو تحولت الى مسائل رياضية ، لطرحت معضلات تستحق ان يدرسها نيوتن وأولر »^(٧) .

وأخيراً يشكل عدم صحة المعطيات صعوبة خاصة في الحرب ، لان كل عمل يتم في جو من العتمة ، ويصبح الاشياء غالباً بطابع غامض ويعطىها حجماً مبالغاً فيه ، ومسلكاً غريباً ، وينبغي ان تعوض موهبة التنبؤ ، او نزعة التسليم للاقدار ، عن انعدام الرؤية التي تسببها هذه الانارة الضعيفة، وهنا ينبغي علينا ايضا ان نعتمد على الموهبة الخلاقة وعلى منحه الصدفة في غياب التعقل الموضوعي^(٨) .

هذا هو مجمل افكار كلاوزفيتز عن الصدفة في الحرب .

واذا اردنا التفكير بعمق اكثر ، في الصدفة ، وفن استخدامها ، فأن علينا ان نعيد قراءة (باسكال) ، حسب نصيحة (جان غيتون) الذي يقول : « لقد كان طموح باسكال (أمير الاحتمالات) القضاء ، قدر الامكان على مانسميه (من وجهة نظر انسانية وذاتية) ، الصدفة السيئة والحظ العاثر ، الهزيمة ، واللعنة ، ونظراً لاننا لا نملك معلومات وان علينا رغم ذلك ان نعمل ، وان نراهن بالتالي ، ولنراهن ولكن ليكن رهاننا بضربة واثقة ، والمثل الاعلى لمهندس الصدفة (باسكال) هو تحديد رهان يستبعد منه عنصر الخطر »^(٩) . واني اتسأل كيف يمكن استبعاد عنصر الخطر من العمل الحربي وهو مشبع بالمخاطر ؟

(٧) نفس المصدر ص ١٣٤ ، الجزء الاول - الكتاب الثاني .

(٨) نفس المصدر ص ١١٥ - الجزء الثالث - الكتاب الثامن .

(٩) الفكر والحرب - جان غيتون ص ١٠٣-١٠٤ منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

وليس من المدهش ، ان فن استخدام الصدفة لقهر الصدفة ، والتغلب عليها ، بأخضاعها لمشروعاتنا ، يجد تطبيقه في العمل الحربي ، وان اكتشاف وسيلة توجيه مصادفات الحرب لصالحنا في ظرف من الظروف هو الرغبة الغامضة للرجل الحربي عند قيامه بحساباته ••

وأذا اردنا ان نطرح المسألة بصورة اخرى ، نقول :

هل توجد في مغامرات الحياة ، كما في مصادفات الحرب ، تدابير معينة جيدة نسمح لنا بالقضاء على الفشل ؟؟؟ وهل بوسعنا السيطرة على الصدفة •• بمواقف ومسالك مضادة للمصادفات ؟؟؟ •

يرى (جان غيتون) في معرض اجابته على هذه التساؤلات ، ان مثل هذه التقنية (ان كانت موجودة) فهي تهتم (السبرينيطفي)^(١٠) سواء كان رجل حرب او رجل سياسة ، ولكن ما أندر المفكرين العسكريين الذين واجهوا هذه المسائل بجدية وعقلانية أن « القادة الكبار » و « كبار رجال السياسة » يحلون مثل هذه المسائل دون حساب واضح ، واعتماداً على الحدس وحده • هكذا (غيتون) يعود بنا الى نقطة الصفر الى النقطة التي اشار اليها كلاوزفيتز قبله بحوالي قرنين من الزمن • عندئذ يكون من الطريف حقاً ان نتطلع الى رأي نابليون في هذه المسألة : وقد قال بعمق ووضوح للسيدة دو ريموزا^(١١) •

« يشتمل العلم العسكري على حساب كل الفرص في بادئ الامر بصورة جيدة وحساب حصة الصدفة بالضبط بصورة شبه رياضية ، وينبغي ان لا نخدع أنفسنا حول هذه النقطة ، فبوسع جزء عشري صغير زيادةً أو

(١٠) السبرينيطيقية - هو العلم الذي يدرس ميكانيكيات الاتصال والتوجيه الالات ولدى الكائنات الحية - حاشية ص ٩٦ - نفس المصدر •
(١١) الكونتيسة دو ريموزا (١٧٨٠ - ١٨٢١) الفت كتاباً عن ذكرياتها في قصر نابليون ، حيث كانت تعمل كوصيفة شرف •

نقصاً ، ان يبدل كل شيء ، غير ان هذا التفسير بين العلم والصدفة لا يمكن ان يستقر الا في رأس رجل عبقرى ، لاننا نحتاج الى العبقرية في كل مكان نريد ان نبذل فيه ، ان اكبر ابتكار للفكر البشري هو الابتكار الذي يعطي وجوداً لما لا وجود له . وتبقى الصدفة اذن لغزاً دائماً بالنسبة الى المفكرين الضعفاء ، وحقيقة بالنسبة الى رجال المتفوقين « (١٢) » .

ولكن هنالك رأي آخر يقول : ان الفكر المتوسط والصدفة ، قادران على الانتاذا اكثر من العبقرية .

فاذا كنا ولا نزال ، مجبرين على قراءة عموميات سطحية وفارغة أحياناً ، ومخطوءة أحياناً اخرى حول آثار عامل الصدفة في الحرب ، كما في الحياة ، ينبغي علينا ، على الاقل ، ان نقبل ، بأن في تعقيدات الحياة ، واكثر منها في ملاسبات الحرب من المصادفات التي لا يمكن السيطرة عليها سيطرة كاملة ، ولا يعني هذا عدم امكان العمل على التخفيف من وطأتها ، والتقليل من شدتها ، قدر المستطاع ، ذلك باتخاذ تدابير مضادة للمصادفات ... (تطبيق مبدأ الامن ، واتخاذ تدابير الحيطة والحذر ، او ممارسة النشاطات حربية ايجابية من الشجاعة والاقدام ، الحزم والصمود ...) مع دراسة الاحتمالات ووضع حلول تبادلية مسبقة لكل احتمال من الاحتمالات القائمة ولكل موقف من المواقف ... ولن نتكلم هنا عن احكام القدر والحظ وتحالفهما ، او تسخيرهما للصدفة ايجاباً لصالحنا أو سلباً ضدنا ، ففي هذه الحالة الاخيرة ، ليس لدينا ، سوى التعويل على الموهبة الخلاقة والعبقرية الفذة او الخضوع الى نزعة القدر .

(١٢) من نابليون الى السيدة دو ريموزا - ذكرها مالمسيميان فوكس في « محادثات نابليون بونابرت » حاشية ص ١٠٩ - الفكر والحرب - جان غيتون .

أثر الشك في الحرب :

٥ - ان الشك زائر مستمر ، ثقيل الظل ، يزاحم أفكارنا في الحرب ،
ويسبب لنا كثيراً من الازعاج .. وهو يحتك بالمعلومات التي تأتينا خلال
الحرب ، والتي تتصف بأنها غالباً ما تكون متناقضة وخاطئة ، تكتنف
معظمها الشكوك .

ونحن بحاجة الى المعرفة بيقين ، او على الاقل بوضوح ، ولكن نادراً
ما يكون ذلك ممكناً . فنحتاج الى وقت طويل ، وتقتضي الضرورة الى تأجيل
العمل ، فيزداد ضباب الشك اكثر ، وكما انه ليس دائماً من الممكن ان يؤجل
كل شيء الى المستقبل ، وغالباً ما نجد انفسنا في الحرب ، مضطرين على العمل
فوراً .. لذا علينا ان نعمل وسط شك من صحة المعلومات التي تكونت
لدينا ، كما لو اننا واثقون من معارفنا ..

وهذا يعود بنا الى القول بان الانسان نظراً لانه كائن عاقل يعيش على
الاحتمالات في معرض الشكوك ، عليه ان يعمل في جو من العتمة ووسط
ظلام ، بلا وضوح .

هذه المفارقة تلقي بظلها علينا في حياتنا ، في الامور الصغيرة والكبيرة،
وتصل الى اعلى نقطة في الحرب . وقد قال (كلاوزفيتز) ذلك بعبارات رائعة
في أيجازها « ان القائد الحربي يعيش ويقرر وسط ضباب الشك ، وهذه
هي مهنته » .. وكل ما يطلب منه في هذا الصدد شيئاً من التمييز الذي
لا يتم الحصول عليه ، الا بفضل المهارة المهنية ، والنفسية ، والقدرة على
الحكم ، وعليه الاعتماد على قانون الاحتمالات .. وهذه الصعوبة لا يمكن
تجاهلها ، عندما يتعاق الامر بوضع خطط اولية ، موضوعة في مكاتب
الاركان ، وخارج نطاق ميدان الحرب نفسها .. وتزداد هذه الصعوبة
بشكل واضح عندما تتوالى المعلومات بصورة سريعة خلال معمعان القتال ..
وتضطرنا الظروف لان نستنتج منها قراراً سريعاً ، لا يلبث ان يظهر سخفه،

مادامت المعلومات في معظمها كاذبة ، او خاطئة او مبالغ فيها ، وباختصار ان معظم المعلومات خاطئة ، لان معظم الناس ميالون الى المبالغة في تناقل الاخبار السيئة ، والجميع ميالون عادة من جانب آخر ، الى تصديق الاخبار السيئة ، قبل الاخبار الحسنة لدرجة تجعل الاخبار المتناقضة تتلاطم فوق بعضها بلا انقطاع كأمواج البحر ، ثم تنعكس لتعود كهذه الامواج دون سبب واضح على حد قول كلاوزفيتز ..

وهنا ، ينبغي على القائد ان يقف صامداً كالصخرة التي تتحطم عليها الامواج^(١٣) . ويحول تلك المعلومات المتناقضة الى احتمالات ، ويفكر بالحلول التبادلية مع التمسك بالافكار المسبقة .

على ذلك نجد ان النصائح التي يقدمها الاستراتيجيون في معظمها تتعلق بالاحتمالات ، ولا شيء قطعي عندهم لنا ، ومن نصائحهم على سبيل المثال :

المطلوب من رجل الحرب ان يكون جريئاً ... وأن يتقدم الآخرين .. ويقتي حازماً في قراره .. وأن يبقى واثقاً من نفسه .. فالغرض من هذه النصائح او (الحكم) هو ردم الهوة بين الفكر والعمل ...

الفكر الذي لا يرى الا الاشياء الممكنة والذي لا يبلغ الموضوع التام أبداً .

والعمل المطلوب انجازه في جو من التردد والشك . وهذا يعني انه مطلوب من القائد أن يعمل كما لو انه واثق من نتيجة عمله ، مع انه يعمل في الحقيقة وسط هاله من الشكوك من ضمان النتيجة ، أي بعبارة اخرى ، عليه ان يكتفي بالمراهنة (كما يقول باسكال) مع الايمان بالريج ، وهذا الأمر كما هو معروف ينطوي على احتمالين بدلا من احتمال واحد .

(١٣) في الحرب - كلاوزفيتز - الجزء الاول - الكتاب الثاني ص ١٦٨ .

وبما ان الفكر البشري ينفر من مفهوم «المحتمل» لانه يسبب حركة قلق ذاتية للفكر ، ذلك لانه لا يرد على السؤال ، بنعم او لا .. ولا يحدد الخطأ والصواب ، وعليه يعيش الانسان وسط احتمالات في كل اعماله ومشاريعه (امامه في المشروع او الامتحان - الفشل والنجاح - وفي المخاطر : النجاة او الموت - في التجارة . الخسارة او الربح - وفي الحرب : النصر او الهزيمة ... الخ) .

وقد طرأ بعض التقدم عندما انتقلت الاستراتيجية الى حساب الاحتمالات^(١٤)، واصبحت تسعى الى بلوغ ما وراء ارادة الخصم ، أي بلوغ فكره ، معلوماته ، فرضياته ، وحتى الصورة التي يتخيلها عنا .. وذلك بغية خلق صبغة كاذبة ومظهر مخادع ، لانه هو بدوره يحاول القيام بذلك بالتأكيد .. عندئذ تتعقد المسألة ، فتنشأ اوهام وشكوك متبادلة لدى الطرفين . لان الحيلة والخدعة والمراوغة كلها سلوك يزيد من ضباب الشك، وأهوال الاوهام ، على هذا استمدت الاستراتيجية اسمها من الكلمتين (الحيلة والخدعة)^(١٥) .

وكما أن الخطر ومنظر الالم في الحرب ، يثير مشاعر عنيفة ، تسيطر بسهولة على القناعات الفكرية ، فالصعوبة تكمن ، عندئذ ، في أن علينا التمسك بكل صلابة بنتائج التفكير السابق ، رغم الاحكام والظواهر المتناقضة التي تظهر أثناء العمل ، ففي هذه الحالة لا يفيدنا الا أمران : الثقة بالنفس .. ودرجة معينة من التشكك ، على أن يقودنا ذلك على اعتبار ، الاصرار في حالة الشك مبدأ عام ، يجب التمسك بوجهة نظرنا الاولى ، ولا يجوز التخلي

(١٤) لقد وجد ارسطو (الاحتمال) وسيلة لدخول المنطق . وقد أخذ حساب الاحتمالات الذي كان (باسكال) يسميه (هندسة الصدفة) يزداد دقة منذ عهد ليبنيث وبرنوسي وبوريل وفون نيومان ، وكل السبيريئطيين . ص ١٠٠ - كتاب الفكر والحرب - جان غيتون .
(١٥) راجع الفصل الثامن عشر من الكتاب .

عنها الا أمام قناعة تامة وواضحة جداً ... تماماً كما ان الايمان بالحقائق السامية لا يتزعزع كمبادئ أكيدة ، تثبت صحتها مدة طويلة من الزمن ، يجعلنا ان نفهم بأن الظواهر العابرة ، تبقى رغم قوتها ، اضعف من المبادئ أي ان الاخلاص للقناعة المسبقة في الحالات التي يكتنفها الغموض والشك يكون كافياً لاعطاء تفكيرنا ثباتاً واستمراراً *

٦ - وفي نهاية هذه اللوحات السريعة والقصيرة ، لبحث طبيعة، وآثار هذه العوامل غير المادية (القدر والحظ - الصدفة والشك) يمكنني ان افصح دون ان يمنعي الخجل ، بأنني لم اقدم في هذا البحث حلولاً جذرية ومحددة لمعالجة تلك الآثار التي تطرأ على الأمور وتعقدها وتحتك بالافكار وتبليها في غياب الموهبة والعبقرية ، وانها تأتي لتلعب دورها في الحرب بشكل اعمق واعنف وأوسع مما تلعبه في الحياة .. مما يقودنا في الحرب الى اتخاذ قرارات قد تبدو منطقية ولكن ، لا يلبث أن يظهر عدم جدواها، بسبب ظواهر خارجية ، فلا يبقى لنا آئذ سوى الاعتماد على الموهبة الخلاقة ، والارادة الصلبة ، او على المنحة التي تقدمها لنا تلك العوامل نفسها، عندئذ تقل أهمية دورنا الى حد كبير ، ولكن دون أن نعترف لها هذا الجميل، بل غالباً ما تنتاسي ، ونشكر لها فضلها علينا ، فنرجع اسباب النجاح والانتصار الى حكمتنا وتبصرنا ولحسن تصرفنا ، ودقة حساباتنا للعوامل المادية .. في حين ، عندما تتغير الظروف وتتحول عنا منحة الحظ والصدفة والقدر ، نمد لها أصبع الاتهام ، ونحملها مسؤولية الفشل والخذلان ..

ولكن ذلك لا يجدي لنا نفعا ، في تبرير موقفنا والتنصل من تبعه الفشل والهزيمة ، أمام الرؤساء في المستوى الاعلى ، لان هؤلاء بدورهم قداسقطوا من حساباتهم دور هذه العوامل غير المنظورة ، عندئذ يجري التدقيق، ويتم تأويل النجاح الى حسن التوجيه والادارة على الصعيد الاستراتيجي ، والفشل يلحق ذمة التعبية .. ولا يشفع لها الالتماس بسوء الطالع والحظ العائر والصدفة السيئة ..

على ذلك يكون من الانصاف وبحق ، أن يؤخذ دور هذه العوامل وتأثيراتها الايجابية والسلبية ، كلما دعت الضرورة الى تدقيق سجلات التاريخ لاستنباط الدروس منها • وتدقيق الاعمال خلال الحرب لكي نكون على البينة من ان تقدير العوامل المادية قد تم بصورة صحيحة ام لا ••• ومن ثم أرجاء الآثار الاخرى الى العوامل غير المادية التي لا حول لنا تجاهها ولا قوة سوى الركون الى الموهبة الخلاقة والارادة الصلبة ، او الاعتراف أخيراً بنزعة التسليم للاقدار ومنح الحظ والصدفة ودور الشك في الحرب كما في الحياة ، ولان الحرب في حد ذاتها قدر الهي ••

الجزء الثاني

١. الفكر والنظرية العربية

الفصل الثاني عشر

الفكر – والنظرية الحربية

١ – تحدثنا في « الجزء الاول » عن الفكر والحدث ، والحرب كحدث من اعظم الاحداث التي تطرأ على حياة المجتمعات البشرية ، وتهز الأسس من جذورها ، وألحنا بالعلاقات العضوية القائمة بين الفكر والحدث ، وأسبقيه ولادتهما – ومن الذي يقود الآخر ، الفكر ام الحدث ؟ وتطرقنا لخصائص الفكر العليا المطلوبة في الحرب ، ووظيفته ، وطبيعة المعارف الضرورية وغذاء الفكر .. كما واثرننا الى ان الاستراتيجية ، أصبحت ، منذ مدة ، تهتم بدراسة الحرب كفكرة ، اسوةً بالسياسة ، والاقتصاد ، والتشريع والفنون وكحدث يستمد قوته من الفكر ، لذا ركزنا على ابراز أهمية ودور القيم الفكرية لاسيما عند تلاحمها مع القيم الروحية ، والمادية .. وعلاقاتها ايجاباً أو سلباً وبمعناصر القيم المعنوية (الفضائل الحربية) من (العبقرية الحربية ، والشجاعة العسكرية ، والاقدام ، والحزم والصمود ، وروح القطعة والقيادة) .. هذه الفضائل الضرورية لانجاز النشاطات الحربية المختلفة ، وتحمل اعباء وآلام ، واتعاب ذلك النشاط الدموي العنيف كما والقينا بصيصاً من النور على طبيعة وآثار العوامل غير المادية (القدر ، والحظ – والصدفة) وأهميتها في الحرب .

بقي علينا ان نتناول في هذا الجزء (الثاني) دراسة النظريات الحربية والاستراتيجية من زاوية علاقتهما بالفكر والعمل .

النظرية الحربية وعلاقتها بالفكر :

٣ – ما النظرية (كل نظرية) ، سوى رؤية فكرية موجية لكشف طبيعة الاشياء وآثارها والقوانين التي تحكمها وان اول مهمة لكل نظرية من النظريات ، هي ترتيب الافكار والمفاهيم المتشابهة والغامضة في بعض الاحياالاحيان ، بل في معظم الاحيان . وعندما يتم الاتفاق على معنى التعابير

والمفاهيم ، عندئذ ، يمكن التقدم ، بسهولة ووضوح في تحليل المشكلات... وعلى سبيل المثال :

« أن الاستراتيجية (السوق) والتعبية (التكتيك) فعاليتان متداخلتان في القتال من حيث المكان والزمان ، مع اختلافهما عن بعضهما أساساً ، ولا يمكن فهم قوانينهما والعلاقة القائمة بينهما دون تعريف دقيق لهاتين الفعالتين »^(١)

٤ - فإذا كنا مجبرين في بعض الأحيان على قراءة ، وسماع ، عموميات فارغة ، وسطحية أحياناً ، وغير صائبة أحياناً أخرى ، عن حقيقة مجريات الحرب ، يحصل ذلك ، لأن ادارة الحرب لم تكن موضوعاً لاستقصاء علمي الا فيما ندر... ولأن ادارة الحرب الحقيقية لم تظهر ، الا بشكل عارض ، ومجهول... أي ان الادارة الحقيقية للحرب ، والاستخدام الصحيح والدقيق لوسائل معينة والتلاءم للمطالب الخاصة لكل موقف من المواقف ، بقي لمدة طويلة من الزمن خارج كل نظرية ، وعلق على الاستعدادات الفطرية للأفراد^(٢) .

ثم انتقلت الحرب بصورة تدريجية ، وببطء ، من قتال القرون الوسطى بشكله البدائي البسيط ، الى شكل أكثر تعقيداً ، واشد تنظيماً ، حتى أصبحت موضوع تفكير المعنيين بالحرب... ولكن هذه الامور ظهرت في معظم الوقت بصورة ثانوية وغامضة ، دونت على شكل مذكرات وقصص حربية ، أتسمت عادة بالمبالغة والتهويل والتشويش .

ولكن التأملات في حوادث الحرب ، قد خلقت الحاجة للنظرية ولقد أحس المفكرون بالحاجة الملحة للاعتماد على مبادئ وأسس وقواعد ،

(١) في الحرب - كارل فون كلاوزفيتز - الكتاب الثاني ص ١٥٨ .
(٢) نفس المصدر - ص ١٦٣ .

للتوصل الى استنتاجات معينة ، بالاستناد الى النقاش الطبيعي في تقنين التاريخ العسكري وفق قواعد معتمدة ، ولما ازدادت التأملات في أحداث الحرب غزارةً ، أتخذ التاريخ بالتدريج طابعا علميا دقيقا الى حد ما

صعوبات النظرية الحربية :

هـ - وكما بينا ، بذلت جهود كبيرة ، عندما ازدادت التأملات في أحداث الحرب لوضع مبادئ وأسس وقواعد ، واساليب متعلقة بإدارة الحرب ، غير ان الفكر البشري تعرض الى صعوبات هائلة ، قدمتها له إدارة الحرب في هذا المجال ، لان لكل اسلوب ولكل نظرية طبيعة محدودة ، الامر الذي يخلق صراعا أبدياً بين النظرية والتطبيق العملي^(٣).

وهكذا برزت امام النظرية صعوبتان :

أ - الاولى : عندما أحس صانعو النظرية بصعوبات الموضوع ، بحثوا لهم عن ملاذ منها ، فوجدوا ذلك في الاقتصار على ايجاد مبادئ وقواعد للمعطيات المادية للحصول على نتائج مؤكدة وإيجابية ، لذا فإنهم لم يأخذوا بعين الاعتبار ، الا ، المعطيات التي يمكن حسابها * (كالتفوق العددي ، وتمارين القطعات ، والتحصن ، والامن ، وحساب الوقت والمسافة ... الخ) واغفلوا ، بل لزموا الصمت ازاء ايجاد قواعد وأسس ، تحكم العوامل غير المادية .. الفكرية والمعنوية .. لان محاولاتهم لا تقدر ، الا ، الارقام المادية ، مع ان العمل الحربي مشبع كل الاشباع بقوى وآثار فكرية ومعنوية

وعندما تناولت النظرية دراسة القيم الفكرية والمعنوية برزت أمامها صعوبة اكثر تعقيداً واشد استحالة للسيطرة عليها ، وحساب نتائجها ، وهذه الصعوبة كامنة في آثار القدر والحظ - والصدفة والشك في الحرب ،

(٣) المصدر السابق - الكتاب الثاني - الفصل الثالث ص ١٦٨ .

مع ان الحرب مجال واسع للاحتكاك بمثل هذه العوامل غير المادية وغير الملموسة .. فأزدادت الصعوبات امام منظريها .. فالرسام والبناء، يعرفان جيداً ماذا عليهما ان يفعلا ، طالما انهما لا يواجهان الا « المادة » ضمن اطار فئهما ، ولكن مجال الحرب ، لا يتضمن مواجهة المادة فقط ، لان النشاط العدواني ، لا يوجه ضد المادة وحدها في الحرب ، بل يوجه في الوقت نفسه ضد القوى المعنوية والفكرية كما اسلفنا ، ولكننا لا ندرك القيم المعنوية والفكرية ، وكذلك أحكام الحظ والصدفة ادراكا يقينياً ، لذا تتعرض الرؤية الفكرية (النظرية) الى صعوبات واخفاقات لا حد لها ، عندئذ، تبقى التجربة وحدها ، فاتورة أثبات الحقائق المادية ، ولكن ينظر اليها بعين واحدة، لان الثانية ستستمر مغمضة عن رؤية آثار العوامل غير المادية .. اذن، ينبغي على النظرية ان تقدر طبيعة العوامل ، وتتحذر من غير الملموسة وغير المادية منها ، تماماً كما ينبغي عليها تقدير الغايات والوسائل ، وتتير الحدود الفاصلة بين الوسيلة والغاية ..

وهذا اصعب الصعوبات ، يتعرض له الفكر البشري في الحرب .
فاذا كانت القواعد والمبادئ التي تكون دعائم النظرية التي تتطلب تبني وجه نظر معينة ، عندئذ ، تصبح النظرية ممكنة وقابلة للتطبيق .
الثانية - أن الصعوبة الثانية التي شملت أمام النظرية ، نشأت ، من دراسة طبيعة الحرب ، طرح خلالها صانعو النظرية السؤال التالي على انفسهم :

« هل الحرب علم ، أم فن ، أم مهنة ؟ »

تطلب البحث عن الجواب لهذا التساؤل الى تحديد معان التعابير الثلاثة ، ولكن ليس هناك من اجماع على تحديد معان التعابير المذكورة، تماماً مثلما لا يوجد اجماع على استخدام هذه التعابير ..

ونجد أن (كلاوزفيتز)^(٤) يورد تعريفا لكلمتي « علم » و « فن » قائلا « نحن نستخدم كلمة « علم » عندما يكون الهدف الوصول الى المعرفة وكلمة (فن) عندما يشتمل على القدرة ، اذن هناك فرق بين (المعرفة والقدرة) ... ويقدم تفسيراً لتعريفه هذا مضيفاً اليه : ان المعرفة بالامر شيء والقدرة على فعله شيء آخر .. فالامران مختلفان لدرجة لا يجوز ان نغامر بالالتباس فيما بينهما ، ويكون من المنطقي المحافظة على هذا التفريق بينهما ، واطلاق اسم (فن) على كل مايستهدف قدرة خلاقة كالفن المعماري مثلا .. واسم (علم) على كل ما لا يفترض الا المعرفة ، كالرياضيات وعلم الفلك وفي مكان آخر من مؤلفه (في الحرب) كرر قائلاً ..

ان مجال الابداع والانتاج هو مجال الفن ، ولكن عندما يستهدف ، « البحث والمعرفة » يسود العلم .. ويستنتج من كل ذلك ، ان استخدام وتسمية « فن الحرب » افضل من استخدام تسمية (علم الحرب) ثم يعود ويقول « ولكننا لن نتردد عن التأكيد بان الحرب ليست فناً أو علماً ، بالمعنى الصحيح للتعبير نفسه .. وانطلاقاً من هنا ارتكبتنا خطيئة كانت سبباً في تمثل الفنون والعلوم الاخرى للحرب ، الامر الذي أتاح المجال لمجموعة التشبيهات الخاطئة » .

وكما يعترض على فكرة اعتبار الحرب (مهنة) ويقول بهذا الصدد « ليست المهنة الا فناً من درجة ادنى ، وعليه فأن اعتبار الحرب مهنة ، يجعلها خاضعة لقوانين اكثر دقة وجموداً »^(٥)

والجدير بالاشارة قبل الانتهاء من استعراض افكاره في هذا الموضوع الى ، انه يقسم فن الحرب في نفس المصدر الى قسمين :-

(٤) المصدر السابق - الكتاب الثاني - الفصل الثاني - الصفحات من ١٧٦ - ١٧٩ .

(٥) المصدر السابق ص ١٨٠ .

الاول - فن استخدام الاسلحة المختلفة المتوفرة في كل عصر من
العصور ..

الثاني - فن ادارة الحرب

والحقيقة ان فن الحرب ، من ناحية اخرى ، هو القدرة على التعامل مع كل النشاطات التي تقتضيها الحرب ، ومنها عملية بناء القوات المسلحة، التي تتضمن ، التجنيد ، والنفير ، والتسليح ، والتجهيز والتدريب، والتنظيم . فعلى النظرية أن تغطي كافة تلك النشاطات ، وفق القواعد ، ولكي تكون قابلة للتطبيق ، يجب ان تكون شاملة ، ذلك لان القتال يتضمن عدة اعمال متميزة بعضها عن البعض ، ولكن جميعها ، تشكل عملا واحداً ، فهذا يتطلب وجود فن يشتمل على الترتيب والتنظيم وادارة القتال وتنسيق الاعمال لغرض قيادة سير الحرب ..

٣ - ولكن (جان غيتون) ينظر للمسألة من زاوية اخرى ، ويقدم تعريفاً تعبيري « علم وفن » وتفسيراً يمد الاطار نحو قيم عليا - ما وراء الطبيعة - الى الميتافيزيقيا - اذ يقول : ان العلم والتقنية والسياسة ، الطبيعة - الى الميتافيزيقيا - اذ يقول : ان العلم والتقنية والسياسة ، والاستراتيجية في الحرب ، ليست الا وسائل لتقرب المرء من غرضه النهائي، وهو امتلاك الحقيقة ، والتمتع بها ، وهذا ما كان يسميه الاقدمون «الحكمة» . وهناك فرق قائم بين العلم والحكمة معروف منذ القدم . فالعلم : يقتصر على المعرفة الشفافة ، أما الحكمة فهي فن السعادة والسمو رغم الآلام، والهدوء ورباطة الجأش في حالات الفشل ، وبين العلم والحكمة ، يقف « الفن » وهو مركب من العلم والحكمة ، لانه الممارسة المستندة الى المعرفة ..

وان فن الحرب تقنية تستهدف الخير رغم الالم الذي يسببه موت
الالوف ، لان هدف الحرب الحقيقي ، هو انقاذ الشعب الذي يخوضها ،
وتجنبه الهزيمة الجذرية التي تأتي من خسارة الاستقلال والانتقاص من
الحريّة^(٦) .

وقد يستشف من افكار (غيتون) هذه بان هدف الحرب هو امتلاك
الحقيقة والتمتع بها ، فهي فن السعادة ، والسمو رغم الآلام - والفن مركب
من العلم والحكمة ، وبهذا يرفع الحرب فوق دعائم ثلاث - (العلم والحكمة
والفن) - أي انه يستنتج بهذه الصورة من الحكمة (الهدف) ومن العلم
(وسيلة) ومن الفن (الغاية) وهي النصر ، وامتلاك السعادة .

٤ - فاذا مفضلنا تجنب المفاهيم الفلسفية لمعان واستخدمات هذه
التعابير وبحثنا عن تعاريف مبسطة لها وجدنا ذلك في كتاب « بحوث
ودراسات عسكرية »^(٧) وهي كما يلي :-

كلمة علم : تطلق على ما يصاد الجهل ، ولكنها تعرف بأنها مجموعة من المعارف
الانسانية المؤيدة لحقائق علمية منظمة تبنت صحتها بالبحث
والتجريد والتجربة ..

أما تعريف الفن : فهو المهارة التي يبلغ بها المرء ذروة الاتقان ، في تحقيق
غرضه .

ومن المعروف ان كل نشاط بشري يحتم وجود كمية من المعارف التي
تكون معظمها على الاقل غير موروثة ، ويتكون منها العلم ، وبما ان الحرب
نشاط من النشاطات البشرية ، تستند الى مجموعة من العلوم منها (علم

(٦) راجع الفصل الثاني من الكتاب .

(٧) كتاب ، بحوث ودراسات عسكرية - العميد الركن يوسف ابراهيم سلوم
ص ٢٩ - دار النهج - الرياض .

الجغرافية ، علم النفس ، القانون ، التاريخ ، وعلم الجيوبولتيك - علم سياسة الكرة الارضية ... الخ) .

ولما كانت جوانب معينة من هذه الفروع العلمية فقط تتعلق بالحرب، وعليه فإن التسميات تقترب عادة بكلمة « العسكرية » للدلالة الى المواضيع المتلازمة مع النشاط الحربي من هذه العلوم ، فتكون التسميات : (علم الجغرافية العسكرية ، التأريخ العسكري ، والقانون العسكري والهندسة العسكرية ... الخ) .

ومن هنا لا تزعجنا معارضة أحد على اعتبارنا الحرب ، علماً وفناً في الوقت ذاته .. علم لأنها تتعلق بجملة المعارف والعلوم ، وفن ، لأنها تتعلق بالقدرة وأتقان التعامل مع مختلف العلوم . وهذا ايضاً ما خلص اليه (كلاوزفيتز) نفسه في نهاية مطاف تأملاته الفكرية .. وكذلك ينبغي أن اضيف : ان مهنة الحرب ، تتعلق بالتعبية الصغرى ، أي انها تقتصر على الاعمال الحربية في الاشتباك في حقل التعبئة فحسب ، أما الاعمال الحربية بمستوى اعلى فتتعلق بالعلم والفن في الوقت ذاته .

ومع ذلك فقد نشأت ، النظرية الحربية ، رغم كل تلك الصعوبات ، نتيجة التأملات الغزيرة ، وظهور البارود ، وتطور الاسلحة ، مما تطلب تسخير معارف اضافية من مختلف العلوم والتقنية وصولاً الى مستوى الفن، وكما ان العون الذي قدمته التجربة ، أمر ، لا يمكن الاستهانة به في بلورة القواعد والاسس التي أقيمت عليها ، النظريات فيما بعد ...

نشوء النظرية الحربية وتطورها :

٥ - ان اقدم بحث معروف حول (فن الحرب) هو ما وضعه المفكر الصيني العظيم (صن تسو) ما بين عامي (٤٠٠ - ٣٢٠) ق.م ان مقالاته القصيرة (١٣ مقالة) تعتبر من أحسن ما كتب على مر العصور ، مع ما كتبه

(كلاوزفيتز) بعد ذلك بأثنين وعشرين قرناً ، لدرجة ان اغلب أفكاره مفهومة في وسطنا كما كانت مفهومة في زمانه .

ويلي هذا المفكر الصيني من حيث النسلسل التاريخي (الكسندر) ما بين عامي (٣٥٦ - ٣٢٣ ق م) الذي كان يراوده حلم انشاء امبراطورية عالمية ، وقد أثار اعجاب العديد من الذين أعقبوه ، ولكن القليل منهم فقط وضعوا أفكاراً مشابهة ومؤثرة لحين وضع ماكيندر ، نظريته حول دراسة سياسة الكرة الارضية (جيوبولتيك) والتي طورها هاوتزهوفر ، وماهون ، ودوهيه وغيرهم ..

وقد عرف الكسندر بأن الحرب تعمل دائماً وفق منظورين :

الاول - بدني - نفسي .

الثاني - مادي - فكري

لقد كان لهذين العالمين بعض الخلفاء المذهلين وكان احدهم (هانيبال ٢٤٩ - ١٨٣ ق م) الذي اشعلت أفياله وجماله في (اوديسه) نار الحرب الثانية بين قرطاجة وروما .. وكان خصمه الرئيسي (سيبسو افريكانوس) (٢٣٦ - ١٨٤ ق م) وكانا بحق استاذين في الاسلوب غير المباشر بالمفهوم العسكري ... وكذلك كان يوليوس قيصر (١٠٠ - ٤٤ ق م) .

الا أنه حدث فجوة في الفكر الحربي الاستراتيجي ، خلال العصور المظلمة واصابه الجمود .. وبالرغم من ظهور بصيص ضئيل من النور ، في حقل المعارف الاخرى ، الا انه تلاشى تماماً في مجال الاستراتيجية ، وبقي هكذا لمدة الف عام اخر ... وكان الاشعاع الوحيد الذي انبثق في تلك الفترة هو في زمن البيزنطيين ، بظهور قاده مثل بليزارايوس ونارسييس ، ولقمان الحكيم .. وكذلك في حملات البربر ..

وظهر بحق خلال فترة فتوحات المسلمين الاوائل قادة عظام ذوي موهبة استراتيجية لا جدال فيها ، كخالد بن وليد ، وطارق بن زياد ومثنى بن حارث الشيباني وغيرهم •

كما أن للخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم) اسهامات فكرية رائعة تطورت الى قواعد ومبادئ حرب فيما بعد بشكل وصايا ، كانوا يصدرونها الى قادة الجيوش ، تفيد في ادارة الحرب وفق أسس وقواعد عامة وسامية .. بمثابة ماتصدها قيادات الجيوش مايسمى بـ (وصايا حركات او توجيهات حرب) اليوم .. التي من شأنها تترك حرية عمل كاملة للمقاتلة الميدانيين ، ليتصرفوا وفق متطلبات الظروف والمواقف .. والتعامل مع احكام المصادفات غير المتوقعة •

وكذلك في اغلب حروب العصور الوسطى ومنها (الحروب الصليبية) على الاخص ، واحتياجات المغول ، ولكن لم يكن لاسهامات هذه الفترة أشكال استراتيجية متكاملة ، كما لم يدور وفق نظام علمي منهجي ، ولكن، لا يعني ذلك بان تلك الاسهامات لم تترك بصماتها في بلورة وتطوير الفكر الحربي الاستراتيجي •

وفي القرن السادس عشر بدأ المفكرون بالتمييز ما بين الاستراتيجية (السوق) والتعنية ، وتحديد العلاقات المتبادلة ما بين العمل الحربي والنهج السياسي على مستوى عال •

وقد ظهر في عصر النهضة والفترة التي تلتها ، اثنان من عمالقة الاستراتيجية (السوق) نيكولو ميكافيلي (١٤٦٩ - ١٥١٩) وهو كاتب سياسي وعسكري ، أثارت مناقشاته حول مصادر القوة واستخداماتها كثيراً من الجدل ، وقد يعتبره « الكثيرون » الداعية للكذب والخداع والغدر ، مع انه يعتبر صاحب اكبر نظرية في عصره ••

والثاني كان فردريك الكبير (١٧١٢ - ١٨٨٦) الذي يقترب اسمه
بـ (استراتيجية الخطوط الداخلة) هذه الاستراتيجية التي استخدمتها اسرائيل
في عدوانها ضد الدول العربية ، نظراً لوضعها المركزي الجغرافي •

لقد بذل نابليون جهوداً ومساهمات كبيرة لتطوير النظريات الراهنة
في عصره ، وتطبيقها بشيء من الكمال مستفيداً من القوة البشرية الهائلة
المتاحة له والتي كانت تلهب حماساً من تأثير الثورة الفرنسية ، ولكنه مع
ذلك لم يترك لنا أي سجل مكتوب لافكاره وفلسفاته باستثناء مبادئه
الاساسية المائة والخمسة عشر •• والتي تعتبر من البديهيّات العسكرية ،
والتي لا يزال العالم يستقضي دروساً من مساهماته الاستراتيجية ، ولكن عن
طريق آراء الآخرين وتحليلاتهم لمعاركه ••

ومن أهم وأشهر الباحثين المعاصرين لنابليون وحروبه ، (انطوان
هنري جوميني ١٧٧٩ - ١٨٦٩) و (كارل فون كلاوزفيتز ١٧٨٠-١٨٣١)
كما ذكر ذلك (ادوارد ميد آيرل) في كتابه (رواد الاستراتيجية الحديثة) •

ولقد ساهم الجنرال (جوميني) بحركة الابداع والتجديد في ذلك
العصر وقد قام بدراسة الحرب دراسة منهجية منظمة ، اوصلها الى الشكل
الذي اتخذه منذ ذلك الوقت •• ومع (كلاوزفيتز) الذي عاصره قليلاً ،
فقد قدم (جوميني) لدراسة الحرب شيئاً أشبه بذلك الشيء الذي قدمه
(آدم سميث) لدراسة علم الاقتصاد برأي (جون ام كولينز) ••

على هذا فأن عمل (جوميني) في الحقيقة ، يعتبر اكتشافاً علمياً ،
لا التوغل الجزئي في عالم مجهول لأول مرة •• وكان سباقاً في عمل
الخرائط الجيدة •••

ولكن (كلاوزفيتز) قد نظر الى الاستراتيجية من زاوية مختلفة تماماً ،
ففي الوقت الذي كان (جوميني) يحاول استنباط منظومة نظرية لكسب

المعارك ، أهتم (كلاوزفيتز) بالطبيعة الاساسية للحرب ، والنظرية الحربية ، فضلا عن مواضيع الاستراتيجية - ومسألة العلاقات المتبادلة بين السياسة والحرب وما بين الاستراتيجية والتعبية .. بذلك تحاشى كل ما هو مألوف ومعروف وسبق ذكره مئات المرات كما عبر عن ذلك بنفسه وأضاف : ان كل ما اطمح اليه هو تأليف كتاب لا يمكن نسيانه بسنتين او بثلاث سنوات وبأن كل من يهتم بالموضوع سيقراً ذلك الكتاب اكثر من مرة ..

لقد تحققت احلامه فوق ما كان يتصور ، اذ ترك بصماته على عدة اجيال وحتى هذا اليوم اللذين يطالعون مؤلفه (في الحرب) للمرة الاولى يندهشون لعمق تفكيره وصدق احساسه (٨) .

وما زال عمله هذا يعتبر أفضل عمل منشور حول الحرب ، لحد الان .. على ذلك يمكن اعتباره أول من وضع النظرية الحربية ، وفق قواعد فكرية متقنة في بداية القرن التاسع عشر .. فلم يكن هناك نظرية في هذا الاطار قبل نظريته في الحرب التي عرفت بأسمه - سوى بعض المبادئ والدراسات الاولى كما بينها في اعلاه ...

لقد رسخت القواعد النظرية التي صاغها (كلاوزفيتز) اكثر من قرن ، رسوخا عميقا في الازهان .. وسيطرت على افكار القادة البروسيين وخاصة (مولتكه) وأدت انتصارات المانيا الباهرة في عام ١٨٦٦ وعام ١٨٧٠ الى انتشار افكاره في كل جيوش العالم التي بدأت تقلد النظام البروسي في كثير من النواحي (٩) .

-
- (٨) كتاب السوق الاكبر - تأليف جون ام كولينز صفحات ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ترجمة اللواء الركن علاء الدين حسين مكى خماس .
- (٩) كتاب الاستراتيجية وتأريخها في العالم - ب . هـ ليدل هارت ص ٤١٨ تعريب الهيثم الايوبي .

وظلت هذه النظرية منتشرة حتى بعد الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨ إلا أن سير الحرب المذكورة وتناجها ، قدمت من الدلائل ما يشير الشكوك في صلاحيتها ، أو على الأقل في بعض الجوانب منها وظلت جوانب أخرى منها حية وصادقة ، حتى يومنا هذا .

وقد اشاد بأفكار (كلاوزفيتز) ماركس وانجلز ، ومن بعدهما لينين الذي كتب عنه وكرر ماكتبه أكثر من مرة ، قائلاً : أن كلاوزفيتز هو واحد من أعمق المفكرين العسكريين وواحد من أعظم فلاسفة ومؤرخي الحرب . . . وأنه كاتب أضحت أفكاره الأساسية اليوم الزاد الذي لا جدال فيه لكل مفكر (١٠)

فحوى النظرية الكلاوزفيتزية :

٦ - تضمنت النظرية التي جبها (كلاوزفيتز) مجموعة من الأفكار صاغها بأسلوب فلسفي عميق أحياناً ، وغامض أحياناً أخرى ، تحولت إلى قواعد قانونية تحكم جميع النشاطات التي تسببها الحرب تقريباً . . . فلما لا يتسع المجال لتقديم شروحات تفصيلية بصددها ، لذا ، سنقتصر هنا على ذكر أهم تلك القواعد النظرية ، وبأختصار مع الإشارة إلى بعض الجوانب الهامة منها . . .

وهذه القواعد أو الأسس التي تتألف منها النظرية هي :

أ - هدف الحرب الحقيقي :

وكان هدف الحرب حسب نظريته التي ظلت راسخة ، أكثر من قرن ، هو تدمير قوات العدو الرئيسية في ميدان المعركة ، لقد ثبت خطأ هذا التحديد لهدف الحرب الحقيقي كما سنرى .

(١٠) مقالة (بقاء كلاوزفيتز) بقلم كامى روجرون المنشورة في كتاب (الوجيز في الحرب) لكارل فون كلاوزفيتز - ص ٥٠ .

ب - ان الحرب ليست شيئاً اخر غير استمرار سياسة الدولة
بوسائط آخر^(١١)...

وتتضمن هذه النظرة ، اظهار العلاقة القائمة بين الحرب والسياسة
حيث قال في مكان آخر « ان الحرب أداة سياسية ، لا شيئاً مستقلاً بحد
ذاته » . و اضاف « ولا شك ان العلاقات السياسية بين الحكومات والامم
هي التي تؤدي الى الحرب » .

ثم ينساق الى نوع من الفلسفة ويعود الى الموضوع ويقول : « أن
تعلق الحرب بالسياسة يجعلها تأخذ بالضرورة صفتها ، فإذا كانت السياسة
عظيمة وقوية كانت الحرب كذلك وقد تبلغ في بعض الحالات ذروتها حيث
تأخذ شكلها المطلق » . وكذلك قال « عندما تتطلب السياسة من الحرب
ملا تستطيع تقديمه ، يكون عملها مخالفاً لمفاهيمها ومقوماتها » . وأخيراً
بين « أن السياسة لا تؤثر تأثيراً سيئاً على الحرب ، عندما
تقدم لها النصيحة للسير بشكل معين » .

وباعتراف جميع المفكرين تقريباً ، أن تحليله العميق للعلاقات بين
الحرب والسياسة ، لم يتفوق عليها ، ولم يتجاوزها أحد حتى الآن، وما زالت
أكثر أهمية في أيامنا هذه ، مما كانت عليه عندما طرحت لأول مرة برأي
الجنرال ج ل س فوللر .

ج - اكتشاف مراكز الثقل للعدو وتوجيه الضربة لها^(١٢) :- ولقد
حدد مراكز الثقل هذه في [قوات العدو الرئيسية - عاصمة البلاد المضطربة
بسبب الخلافات الداخلية - جيش الحلفاء بالنسبة للبلد الصغير المرتبط
بدولة أخرى - ويتركز ، كما يقول ، مركز الثقل في (التمرد القومي -

(١١) كتاب ادارة الحرب - الجنرال ج ل س فوللر ص ٨٩-٩٦ تعريب :
اكرم ديري .

(١٢) نفس المصدر - ص ١٠٣ .

والثورة الشعبية) بالرأي العام •• فمن الضروري توجيه الضربة ضد هذه النقاط للحصول على نتائج حاسمة ••

د - الدفاع الشكل الاقوى للحرب: (١٣) وقدم تحليلا عميقا للمميزات المتبادلة للدفاع والهجوم ، ولم يخف ميله من تفضيل الدفاع على الهجوم ، ولا سيما في المراحل الاولى من الحرب ••

كما وقدم تحليلا عميقا وصائباً لمفهوم « نقطة الذروة للهجوم او الحد الاقصى للمناورة » •• وقد بحثنا هذا المفهوم في فصل مستقل لاهميته الكبيرة (١٤) •

هـ - اعطى للعامل المعنوي والفكري أهمية كبرى في الحرب ، وقاوم فكرة العمل الهندسي المبني على الحركات •• وهي الفكرة التي كانت شائعة حينئذ ، وقد اوضح ان الفكر البشري أهم بكثير من زوايا العمليات وخطوطها (١٥) •

و - اظهر آثار وطبيعة بعض العوامل غير المادية مثل : الصدفة والشك، والخطر ، والتعب والانهاك (١٦) •

وقد عالجتنا هذه الفقرات في الفصل الحادي عشر بأسهاب •
ومما لا شك فيه انه لم تثبت صحة جميع هذه الاسس النظرية التي وضعها في مؤلفه الشهير (في الحرب) ••

تعديل النظرية :

٧ - لم يتحكم الافراد على تطور الفكر الاستراتيجي منذ وفاة (كلاوزفيتز) عام ١٨٣١ مثلما تحكمت به الاحداث •• فإن الثورة الصناعية

(١٣) كتاب ادارة الحرب - فولر ص ١٠٨ - تعريب اكرم ديري •

(١٤) راجع الفصل الثامن عشر من الكتاب •

(١٥) كتاب في الحرب - كلاوزفيتز - الجزء الاول ص ٢٢٩ • تعريب اكرم ديري والهيثم الايوبي •

(١٦) نفس المصدر صفحات ٨٥ ، ٩٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٨١ •

اطلقت العنان للقوات التي تمكنت من شن حرب شاملة على نطاق عالمي .. وقد قدمت المحركات البخارية الدفع لقابلية الحركة والمناورة السوقية السيالة ، كما وساعدت اكتشافات أجهزة المواصلات على قدرات وسائل السيطرة والاتصال * ثم حدثت بعد ذلك ، الثورة الادارية التي اصبحت ضرورة علمية لكل دولة ، الى جانب الحاجة الملحة لمواكبة التقدم التكنولوجي والعلمي ، لتنظيم وتدريب وتجهيز قدراتها العسكرية .. ولكن حدوث الثورة الاجتماعية في روسيا عام ١٩١٧ ، بدلت ، افكار ومفاهيم الناس وطرق الاستفادة من البشرية في هذا المجال ، وزرع (كارل ماركس) بذور فلسفته ذات أهمية كبيرة في عالم الافكار الحديثة لادارة الصراع ، وفق الافكار الثورية الجديدة ، جرت ادارة عدد من الحروب الثورية الناجمة في العصر الحالي^(١٧) .. في حين بقي المنظرين التقليديين في الغرب على تطبيق افكار (كلاوزفيتز) بكل حمية وحماس *

ومنذ عام ١٩٤٥ حدثت الثورة التكنولوجية و (السبيرنيطيقية) فتراجعت الافكار الخلاقة في الغرب بترجيح المعدات المتطورة عليها ، رغم محاولات (ليدل هارت آ في انكلترة و (ريمون آرون) في فرنسا ولكن الستراتيجيون لم يستمعوا اليهم أبداً *

وقد كتب (ليدل هارت) في موضوع « الهدف » في كتابه « باريس والحرب المقبلة »^(١٨) الذي ظهر عام ١٩٢٥ انتقد فيه فكرة « الهدف » التقليدية التي ترمي الى « تدمير الجيوش الرئيسية المعادية في ميدان المعركة » ووضح فكرة « الهدف المعنوي » وكذلك الجنرال (فولر) في كتابه (ادارة الحرب) انتقد فكرة الهدف كما صورها كلاوزفيتز *

(١٧) كتاب السوق الاكبر - تأليف جون ام كوليز - ص ١٦ ترجمة اللواء الركن علاء مكي خماس .
(١٨) الستراتيجية وتاريخها في العالم - ليدل هارت ص ٤٢٧ تعريب اكرم ديري والهيثم الايوبي *

وقد اضاف (ليدل هارت) الى النظرية ، فكرة الهجوم غير المباشر وارتباطها بشكل دقيق بجميع القضايا الناجمة عن تأثير الفكر على الفكر ..

والجدير بالاشارة ، (ظهور مدارس فكرية عسكرية ، ضمن سياق التطور التاريخي ، حيث ظهرت ثلاث مدارس تقليدية للفكر العسكري الاستراتيجي (السوقي) وهي : المدرسة البحرية ، والمدرسة القارية (البرية) والمدرسة الجوية (الفضائية) وهناك مدرسة فكرية رابعة غير تقليدية ، بطبيعتها ، ظهرت في الماضي القريب وهي (المدرسة الثورية) .

تقيم المدارس التقليدية الثلاثة « الوضع الجغرافي » للكرة الارضية وبمنظرة مختلفة الواحدة عن الاخرى .. لقد قدم ثلاثة من المفكرين ، علماء جيوبولتيك (علماء سياسة الكرة الارضية) افكاراً تستند الى هذا العلم وهم (ماهان ، ماكيندر ، ودي سيفوسيكي) .. وباختلافات أساسية في وجهات النظر التي تتعلق ببناء هيكل عام للقوات المسلحة ، يتلاءم مع مجال عمل تلك القوات .. ولكن من منطلق موحد هو « استهداف السيطرة على العالم ، او انشاء امبراطورية عالمية عظمى » . ماخلا المدرستين الفكريتين (الجوية والثورية) ، فيما دعمت التجربة النظرية ، وصحة وجهات النظر وافكار دعاة المدرسة الثورية ، حيث بلغت الثورات أهدافها ، بأحراز انتصارات ساحقة ، بشن حروب ثورية ، في مناطق متعددة من العالم ولكن ضمن مجالاتها المحدودة .. في حين طرأ بعض التعديلات على افكار المدرسة الجوية والفضائية .. بعد ثبوت فشل نظرية (دوهيه) وعدم امكان تطبيق نظرية (سيفريسكي) نظراً لظهور وتطور المقذوفات الباليستيقية العابرة للقارات ، وأن ما نسمع به اليوم عن استراتيجية (حرب النجوم) ، ما هو الا استمرار لاحداث تعديلات على افكار المدرسة الفكرية الفضائية ، ولم تبلغ الكمال ، ولن تبلغ .

بما ان مناقشة افكار تلك المدارس الفكرية تفصيلا بحاجة الى مجال اوسع ، وعليه سنكتفي هنا بهذه اللوحات السريعة ، لكي تتناولها بالبحث والتدقيق في فصل من الفصول القادمة •

وفي الختام نقول :

وهكذا بولادة « المطلق »^(١٩) عاد تفوق المعدات على الافكار في اميركا واوروبا ، على الرغم من الاهتمام الواسع للبحث عن الحلول على أسس تحليلية فكرية وعلمية دقيقة ، ولكن بشكل هيكل بناء معقد ومجرد •• لم ينبثق منه الا بعض العناصر الهامة للستراتيجية بحسب حاجة العصر، ولكن سرعان ما طرأ عليها التغيير ، ونبتت في معظم الاحوال ، ومن هذه الستراتيجيات على سبيل المثال ، لا الحصر (الرد المرن ، مقابلة المدن ، ومقابلة القوى ، الردع المتدرج ••• الخ) ولكن هذه الافكار الستراتيجية عبارة عن افكار تفيد الحرب تحت شروط وظروف الحرب النووية المحتملة •• وعليه فقد ترك أمر معالجة المسائل الحربية والستراتيجية للحروب التقليدية التي كثرت في القرن العشرين ، بفن استخدام الاسلحة المتطورة بالافكار القديمة البالية ••

وهذا ما يقدم لنا أدلة قاطعة ، ودامغة تشير الى أسباب فشل جيوش جرارة أمام مجاميع ثورية ضعيفة ، كما حدث في (حرب فيتنام ، كومبوديا ، لاوس ، جزائر) ••

ويمكننا ان نخلص من كل ذلك الى القول : بأن افكار ومفاهيم نظريات الحرب والستراتيجية كانت بين مد وجزر عبر العصور التاريخية يلاحظ خلالها ، ان كلما كان الفكر متقدماً على العمل وخلاقاً ، كانت هنالك حروبا ظافرة ، وكلما تراجعت الافكار ، لتتقدم عليها استخدامات القوة والمعدات، كانت نتائج الحروب عقيمة وغير مجدية ، وباهضة التكاليف •

(١٩) « المطلق » يعني القذائف النووية والهيدروجينية •

الفصل الثالث عشر

■ الفكر والنظرية الستراتيجية السوقية

« الفصل الثالث عشر »

الفكر – والنظرية الاستراتيجية السوقية

لقد اتهمنا توأ من الكلام عن النظرية الحربية وعلاقتها بالفكر ، وأذا ماتذكرونا ، ماجاء فيه ، حول النظرية الحربية .. نشوؤها ... وانتشارها .. وتطورها .. وكذلك لو تأملنا الاسس والقواعد التي نوهنا عنها بأيجاز شديد ، وعدنا الى فحوى نظرية كلاوزفيتز .. وخرجنا منها بفكرنا المشوش من جراء الصعوبات النظرية بغية دخول الى ظلمات الاستراتيجية (السوقية) وعتمتها ودراسة النظرية الخاصة بها .. (كما ورد في الكتب والمؤلفات المنهجية والتقليدية) ... وجدنا بمزيد من الدهشة ، نفس الاسس والقواعد وحتى المبادئ عولجت مرة تحت عنوان « نظرية الحرب » واخرى تحت عنوان (نظرية الاستراتيجية – السوقية) .

عندئذ يكون من الحق أن تثير هذا التساؤل :

يا ترى ، لماذا جرى بحث المفاهيم ذاتها تحت عناوين متباينين ؟ ..
فهل يعني ذلك عدم وجود فروقات بين ماهية الحرب ، وماهية الاستراتيجية .. ؟ (١)

(١) يكفي لغرض التحقق من وجود مثل هذا الخلط ، مراجعة كتاب مدخل الى الاستراتيجية العسكرية (الجنرال اندريه بوفر) ومقارنة ما جاء فيه من (القواعد والاسس والمبادئ) تحت عنوان « المبادئ والنظريات الاستراتيجية » ص ٤٤-٤٧ مع ما جاء في الكتاب الثاني « النظرية الحربية - من مؤلف (في الحرب) لكارل فون كلاوزفيتز ويلاحظ نفس المبادئ والاسس والقواعد ، عولجت في المرجع الاول تحت عنوان « نظرية

يقتضي الاجابة على هذا التساؤل ، تفحص عدة امور متداخلة ومتشابهة غير انه ، يمكننا القول ، منذ الوهلة الاولى ، بأن ذلك ناتج ، ولا شك ، من وجود تداخل وتلاحك في درجات العمل ، وكذلك في طبيعة الاشياء ، ومن جراء التغير الذي طرأ على مفهوم الاستراتيجية المعاصرة ، وأمتداداتها وشمولها مجالات متعددة .

غير ان هذه الاسباب ، لا تقدم تبريراً مقنعاً وكافياً ، لمثل هذا الخلط المربك والمشوش للأفكار والمفاهيم ... الا اذا أعتبرت الحرب والاستراتيجية، ذات الشيء ومن طبيعة واحدة .

ولاجل التحقيق من ذلك ينبغي ان تذكر بان معظم المفكرين والمنظرين قد أقرؤا تقريبا فكرة (كلاوزفيتز) فيما يتعلق بالحرب .. على انها أداة السياسة أو استمرار لها بوسائل اخرى طابعها العنف ..

فلو اضفنا الى هذه الفكرة ، التي اصبحت شبه « مسلمة » اليوم .. ما اظهر الجنرال (اندريه بوفر) بحق من روابط عضوية بين (الفلسفة والسياسة ، والاستراتيجية) في العبارات التالية .. حين قال :

« ولكن الاستراتيجية عبارة عن وسيلة لتحقيق اهداف تحددها لها السياسة وتتبع سياسة بلد ما من الفلسفة السائدة فيه ، وهكذا يتعلق مصير الانسان ، بالفلسفة التي يختارها لنفسه ، والاستراتيجية التي يستخدمها لتحقيق انتصار هذه الفلسفة » (٢) .

الاستراتيجية « في حين عولجت في المرجع الثاني تحت عنوان النظرية الحربية ، وكذلك في كتاب (ادارة الحرب) للجنرال (فولر) الذي تضمن تحليلا قيما لنظرية كلاوزفيتز .

(٢) كتاب مدخل الى الاستراتيجية العسكرية - الجنرال اندريه بوفر - ص ٧٩ تعريب اكرم ديري والهيثم الايوبى .

ويمكننا بدون عناء كبير، أن نستنتج من هذا التركيب الرائع، المعادلة التالية :-

– أن السياسة تابعة للفلسفة •

– والحرب استمرار السياسة (نظرية كلاوزفيتز) •

– والستراتيجية – تستخدم لتحقيق انتصار الفلسفة (او العقيدة)
فيما إذا نظرنا إليها من زاوية معينة ، وتلتحم مع السياسة والاقتصاد
والاجتماع ، والتقنية والتصنيع •• الخ • ، في مجالات نشاطاتها
المختلفة ، كما وتوازى الحرب في مجالها الخاص ••

فما هي «الستراتيجية»؟ مادامت لا تدخل في نطاق الامور المادية في
الحرب والسياسة فحسب •• بل انها تسمو على السياسة حينما تدخل في
نطاق الفلسفة أو العقيدة أي في حقل « الميتافيزيقيا » ••

سنجيب على هذا السؤال بالتفصيل فيما بعد ، ونكتفي هنا بالتأكيد
على ان الاستراتيجية والحرب ، ليست ذات الشيء ومن طبيعة واحدة !! ••

لان الحرب ليست كحرباء تبدل لونها – على حد قول (كلاوزفيتز) ،
وانما عبارة عن (حدث) طابعه العنف والاقتتال ، والتعب والاعياء ،
والألام ••• في حين ان الاستراتيجية ذات طبيعة متغيرة •• فهي كما رأينا
تتدخل كأسلوب استخدام الوسائط المادية : ضمن ميدان التعبئة ولكن
لصالحها هي •• وكما انها تشكل « اسلوب تفكير وتعامل » في مجالات
السياسة والاقتصاد ، والتقنية ، والتصنيع •• الخ • ومن ثم تسمو لتدخل
ضمن حقل الفلسفة او العقيدة «الميتافيزيقية»

هذا ولا ينبغي ان تصيبنا الدهشة ، عندما نشير الى المسائل العليا ،
أذا وجدنا في اقوال نابليون ايضا مايشير الى ذلك حسب النص الذي اورده

(لويد) حين قال : كان يضع « الجزء الآلهي » لكل موقف ، مقابل « التعاون المتبادل بين العوامل المادية » واعتبر جزء الاستراتيجية لكل موقف هو « الجزء الآلهي » ..

وكما وقد اندفع البعض اكثر من ذلك ، فأعتبروا هذا الجزء من الاستراتيجية هو « لمعة من لمعات العبقرية » اي « الشرارة التي تنزل على الرأس المختار في الوقت الملائم » او كما يعتبرها (بوفر) في هذه الحالة صبراً طويل الامد ..

وسواءً أكانت الاستراتيجية الهية ام لا ، فانه من الضروري خضوعها للفكر وحكم العقل^(٣).

ومن الجدير بالذكر حقاً ، ان الفيلسوف (جان غيتون) قد اتحنى نفس هذا المنحنى في دراسته للاستراتيجية في كتابه (الفكر والحرب) فهو يقول بهذا الصدد :

« لهذا فقد حاولت في دراستي هذه عن الاستراتيجية ، عدم أسدال الستار على المسائل العليا ، .. » ان المحاكمة الحرة والثقة بالانسان وبالوجود الذي يتعلق به استمرار جنسنا ، هي في الحقيقة عمل فكري ، والعمل الفكري ينصب على المسائل العليا ... أي انه بايجاز عمل « ميتافيزيقي » . ولهذا انه من واجبي تحت كلمة جديدة هي « الميتاستراتيجية » أي ماوراء الاستراتيجية ، أؤكد بان العمل الاستراتيجي قد اصبح منذ الان عملاً فلسفياً^(٤) .

(٣) المصدر السابق ص ٢٨ .

(٤) الفكر والحرب - جان غيتون ص ١٢ منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت .

بهذا يكون بحق ، اول من اعطى للاستراتيجية بعداً جديداً هو «ماوراء الاستراتيجية» تحت اسم جديد هو «الميتاستراتيجية» * وسنعود الى هذا الموضوع ثانية فيما بعد لتقدم تفصيلات اكثر عنه **

والان يمكننا ان نستخلص من كل ذلك : ان الاستراتيجية (السوق) اصبحت اليوم ، ذات طبيعة شمولية ومتغيرة ، ومركبة من ثلوث ، (الروح والفكر والعمل) ** فهي عندما تسمو لتمارس «الجزء الالهي» من آثارها سواءاً أكانت بمثابة «لمعة من لمعات العبقرية ** او أثرا من اثار الفلسفة الميتافيزيقية *** أو منحة من منح القدر والحظ والصدفة !! عندئذ يمكن التعرف عليها بأسمها الجديد «الميتاستراتيجية» كما سماها (غينون) *

ولكن عندما تقتصر الاستراتيجية على ممارسة دورها ضمن مجالات (الاقتصاد والسياسة ، والتصنيع والتقنية *** الخ) فهي بهذه الحالة، انما، تمارس آثارها الفكرية في جميع تلك النشاطات المتعددة ، ويمكن بهذه الحالة اعتبار تسمية (الاستراتيجية الشاملة) ملائمة للإشارة الى المقصود من دورها في تلك المجالات المتعددة *** كما انها عندما يقتصر عملها في ميادين القتال وسوح المعارك ، فهي بذلك تمارس عملها العسكري البحت * وعليه فأن تسمية « الاستراتيجية العسكرية » تكون في هذه الحالة الاخيرة بمثابة اسم على المسمى **

وسنبحث عن اقسام الاستراتيجية ومفاهيمها ، وعلاقتها بالفكر والعمل فيما بعد (راجع الفصل الخامس عشر) *

وبعد هذا التمهيد والتمعن ، لا يساورنا الشك ، بأن سبب الخلط واعطاء مظهرين لمفهوم واحد قد نجم من عدم تفريق بين طبيعتي الحرب والاستراتيجية ولكون الاستراتيجية في الحقيقة ذات طبيعة متغيرة كما اوجزناها في حين ان الحرب ذات طبيعة ثابتة لا تتغير أبداً *

الفصل الرابع عشر

■ الفكر والاستراتيجية السوق

الفصل الرابع عشر

الفكر – والاستراتيجية (السوق)

ليست مسألة اسباغ مظهرين لمفهوم واحد او بالعكس مظهر واحد لمفهومين ، والتي اشرنا اليها – في في الفصلين السابقين – أمر غريب أو شاذ ، في عالم الافكار .. وذلك لان معظم المفاهيم التي نستخدمها عادة ، هي مفاهيم مبهمه ، وأن أقربها اليها في تعاملنا اليومي ، تبقى غريبة عنا في معظم الاحيان .. وقد ينجم ذلك عن عادة فكرية ، ومفاهيم مسبقة .. وهنالك أمثلة كثيرة لهذه الظاهرة الفكرية ولمفرداتها .. فقد حلت كلمة «الفلسفة» محل كلمة «الميتافيزيقية» ومفهومها ، بينما ظلت مفاهيم مفرداتها ، متداخلة ومتشابكة فترة طويلة من الزمن .

ولعل ما حدث لامتدادات الميتافيزيقية بالنسبة الى الفلسفة هو ما يحدث اليوم للاستراتيجية بالنسبة للسياسة ، وقد تحل الاولى محل الثانية يوما ما ، من يدري ؟ ولعل هذا الخلط والتشابك بين مفاهيمها ناجمين عن كونهما يتعايشان في فترة الانتقال التي ستدوم لفترة غير معروفة من الزمن . وما علينا الان الا محاولات أولية لفرز ما يمكن فرزها من تلك المفاهيم المتشابكة والمفاهيم المتداخلة في حقل الاستراتيجية نفسها فضلا عن مداخلاتها في المجالات الاخرى . وهذا ماسيكون موضوع بحثنا في الفصول القادمة .

١ - حري بالذكر قبل كل شيء : أن مفهوم الاستراتيجية المعاصرة ، لم يظهر كعلم قائم بذاته دفعة واحدة .. بل كان - كغيره من العلوم والنظريات حصيلة تجمع المعارف والخبرات الحربية وغيرها من المعارف المتطورة على مر العصور .. فمن خلال الحروب الطويلة ، والمعارك الطاحنة ، عبر التاريخ ، استطاع الانسان ان يفهم ظاهرة الحرب وبعيها ، مما دفع بالتالي عجلة تطور الاستراتيجية قدما الى الامام^(١) .. بحيث اصبح مفهوم الاستراتيجية يشمل مجالات اوسع من مجال الحرب ومع ذلك ، ومن الغريب ، ان كلمة الاستراتيجية ، رغم شيوع استعمالها وشمولها معظم النشاطات البشرية ، الا أن قلة من الناس الذين يستخدمونها ، يعرفون مدلولاتها والمفاهيم المتشابهة التي تنطوي عليها هذه الكلمة ، فالبعض يعتبرونها على انها موضوع عسكري بحت ، وان ما فيها من الامور غير العسكرية يعود الى السياسة ، وليس هذا فحسب ، بل هناك من يذهب الى ابعد من ذلك بكثير ، الى (الميتافيزيقية) كما سنرى ذلك بالتفصيل فيما بعد .

١٧٨
ص ١٧٨
ص ١٧٨
ص ١٧٨
ص ١٧٨

ولاشك ان استخدام التسميات الصحيحة والمتعارف عليها ، وعلى معانيها ، سيعطي نتائج عديدة : منها توضيح ، وتصنيف هذه المجموعة العجيبة من الافكار والوسائط الموضوعة من قبل ، تحت تعابير « السياسة » و « السياسة العليا » كذلك « الاستراتيجية » و « الاستراتيجية العليا » او « الشاملة » والاستراتيجية التقليدية او (البحتة) . مما يقتضي اختيار التسميات الصحيحة والمتفق عليها ، وان نستخدم ، اذا لزم الامر ، اسماء جديدة بدلا من الاسماء ذات المظهرين لمفهوم واحد إن كان ذلك ممكنا .. وذلك دفعا لبس القارئ حاليا ، من جراء الاستخدام العفوي لهذه المفردات اللغوية ، للتعبير عن الافكار المسبقة التي لا تزال سائدة في مجال نظريات الحرب

(١) مؤلف الاستراتيجية العسكرية السوفياتية - تأليف مجموعة من الجنرالات باشراف المارشال السوفيتي ف.د. سوكولوفسكي - ص ١٠ - ترجمة العميد الركن عبدالرزاق الدردري .

والاستراتيجية ، علما بأن (ريمون آرون) اقترح استخدام كلمة « علم الممارسة » « الفعل » بدلا من الاستراتيجية والسياسة معا . . . ولكن لم يحظ اقتراحه بالقبول والتداول . . . كما ان الجنرال (اندريه بوفر) نادى بضرورة اختيار اسم جديد ، لا يكون « السياسة » او « الاستراتيجية » لكي يهدى بعض الافكار المسبقة العنيدة على حد تعبيره^(٢) . . . ولكنه لم يقترح بدائل لهما .

وكذلك يقول (بوفر) : ولدت في القرن التاسع عشر خطيئة من تأثير نظريات انصار (كلاوزفيتز) الخاصة بالحرب ، المتسمة بالمبالغة ، والتي تبنتها الاركان البروسية ، بالاضافة الى المفاهيم الديمقراطية البورجوازية الغربية التي فصلت السلطة المدنية عن السلطة العسكرية^(٣) . . . والواقع ، أنه بهذا الفصل بين السلطات تباينت التسميات للمفاهيم الموحدة أصلا ، التي تمتد الى أكثر من مجال ، وحيث لا وجود للحدود الفاصلة بين المستوى والمستوى التي تليها . .

ويرى (بوفر) : ان الفكر الماركسي - اللينيني ، كله ، لا يفصل بين مجال السياسة ومجال الاستراتيجية الشاملة ، ويعترف بان السوفيت قد حققوا بهذا ، تركيبا متكاملا بين المجالين ، وهو أكثر كمالا من التركيب الذي طرحه هو نفسه في كتابه « استراتيجية العمل » .

ويقول ان السوفيت لا يميزون بين المستوى الاعلى « للسياسة العليا » التي تختار الاهداف المرجوة والمستوى المتعلق بالاستراتيجية العليا او الشاملة^(٤) ولكن الفكر الغربي في محاولة دائبة لمعرفة العلاقات والتأثيرات المتبادلة بين تلك المفاهيم بعضها مع البعض .

- (٢) كتاب استراتيجية العمل - الجنرال اندريه بوفر - ص ٢٠ تعريب : المقدم اليه الم. الايوبي .
(٣) نفس المصدر ص ٢٩ .
(٤) تستعمل كلمتي « العليا والشاملة » الواحدة بدل الاخرى بصورة عشوائية في معظم الترجمات .

لقد أدت فكرة العلاقات بين السياسة والاستراتيجية الى قلق البعض، ودفعهم الى التساؤل : ألسنا نخلط بين امور من طبيعة مختلفة ؟ وهل يمكن ان يؤدي عملنا هذا الى «تحكم» السياسة ، تحت تأثير الاعتبارات على الاستراتيجية . . (٥٠) . ولكنهم سرعان ما وجدوا امكانية تجنب ذلك بسهولة، نظراً لان رجال الدولة انفسهم ، يقومون بتنفيذ أدوار السياسة الاستراتيجية الشاملة حيناً بعد حين .

٢ - ينبغي علي أن اتوقف الان من الاسترسال ، وذلك لكي لا أثقل على القارئ العسكري والمثقف المدني، واعدود الى اصل كلمة «الاستراتيجية» قبل أن اغامر بالدخول في ظلماته ، واسلط هذا الضوء الخافت الذي لدي الان لكشف عن معنى ومدلولات ، ومفاهيم المتشابكة لموضوع الاستراتيجية مع اللمحات للعلاقات القائمة بينها وبين مختلف النشاطات الاخرى .

اصل كلمة « الاستراتيجية - السوق » ومعناها :

٣ - أن اصل كلمة الاستراتيجية ، يونانية وهي «الستراتاجم» وتعني، الخدعة والحيلة . . (٦٠)

ولقد بقي هذا التعبير بحق متفقاً ومتلائماً مع اعمق طبيعة الحرب، رغم كل التحولات الحقيقية والظاهرية ، التي تعرضت لها الحرب ، منذ أيام الاغريق حتى اليوم . . وكان يتعلق بموضوع عسكري بحت ، في بداية الامر . . وبناءً عليه فقد جرى نقلها الى العربية عندنا تحت اسم (السوق) ويستدل من تصريف هذه الكلمة على ان « الاستراتيجية - السوق » موضوع عسكري بحت (سوق القطعات الى ميادين القتال ، وقيادتها) .

(٥) المسخل الى الاستراتيجية العسكرية - اندريه بوغر (ص ١٠) .

(٦) في الحرب - كارل فون كلاوزفيتز ص ٢٥٦ .

فلما ظهرت تسميات مركبة للتعبير عن المستجدات في حقل الاستراتيجية مثل « الاستراتيجية العليا أو الشاملة » اضيفت تباعا الى كلمة « السوق » عندنا ، كلمة « الاكبر او الاكمل » ..

وانني سوف لن استخدم خلال هذه الدراسة التسميات المتداولة عندنا من (السوق او السوق الاكبر او الاكمل) بل سأضطر على الاستمرار بأستخدام كلمة « الاستراتيجية ومركباتها » رغم انني متأكد من اعتراض الكثيرين على امتناعي هذا ، ولكن لدي عذراً في ذلك هو :

ان هذه الالفاظ جميعها حتى كلمة « الاستراتيجية » نفسها ، لم تعد تطابق المفاهيم والافكار ، التي تخص مجال الحرب والسياسة ، وعلومهما نظراً لتحول شكل الحرب البدائي البسيط الى شكل اكثر تعقيدا ، وأشد تنظيماً ، حتى اصبح موضوع تفكير رجال الحرب والسياسة معا ..

فقد قال كليمانصو ، رئيس وزراء فرنسا : « ان الحرب مشكلة كثيرة الجدية حتى تترك للعسكريين وحدهم » وكتب « كليمانت أتلي » عندما أصدر الجنرال (ديغول) مذكراته كزعيم لفرنسا الحرة : « أن ديغول عسكري عظيم ، ولكنه سياسي سيء » .. ولما نقل هذا القول الى الجنرال (ديغول) علق عليه بقوله : ان السياسة مشكلة كثيرة الجدية حتى تترك للسياسين وحدهم » (٧) .

ويعتقد بعض الاستراتيجيين المعاصرين ، ان القولين لا يتناقضان وللتوفيق بينهما ، ينبغي ان يتلقى الضباط تدريبا سياسيا ، ويتلقى السياسيون تدريبا عسكريا .

وهذا ماهو جار الان في معظم بلدان العالم تقريبا .

(٧) كتاب الردع والاستراتيجية - ج اندريه بوفر ص ١١ تعريب اكرم ديري وترجم احيانا .

وقد حاول السوفيت كما نوهنا عنه فيما سبق ، الخروج من هذا الموقف عن طريق التحليل الماركسي ، لقد وضعوا منذ ايام (ستالين) نظرية الحرب الشاملة ذات الطابع الاجتماعي ، والتي لا تستطيع الصمود برأي (اندريه بوفر)^(٨) أمام التقدم التقني ٠٠٠ فيما يندفع الامريكيون تحت لواء كلاوزفيتز بكل حمية وحماس ، في حل سلسلة من المشكلات التقنية بدوافع تكتيكية .

وقد جذبت أهمية هذا الموضوع انتباه اوساط المثقفين الميالين حسب اتجاهات العصر العلمية الى البحث عن الحلول ، على اسس تحليلية دقيقة ، ولم يمض وقت طويل ، حتى اصبح لكل جامعة اميركية مؤسسة للابحاث والدراسات ، مجهزة أحسن تجهيز ، وظهرت اكاداس الكتب والمؤلفات ، مشكلة بناءً مجرداً ومعقداً لدرجة « سكولاستيكية »^(٩) ، وتنبثق من هذا البناء ما بين آونة واخرى ، بعض العناصر الهامة ، لاستراتيجية عامة ، يحتاجها عصرنا ٠٠٠^(١٠)

ولم تدخل هذه الحركة الفكرية الى اوربا ، الا ، بقسط ضئيل، ويكتفي الاوربيون عادة بقراءات غير جدية ، حسب رأي (بوفر) مع اقتباس تام للمصطلحات والمعدات الاميركية نظراً لاعتقادهم حتى الان (١٩٦٨)^(١١) بتفوق المعدات على الافكار ، رغم محاولات ريمون آرون في فرنسا وليدل

(٨) مدخل الى الاستراتيجية العسكرية - اندريه بوفر ص ٢٦ منشورات دار الطليعة - بيروت .

(٩) سكولاستيكي - يعني مدرسي ، وتتبع فلسفة القرون الوسطى المدرسية التي لا تقبل الحوار او التطور ، والمقصود بالكلمة هنا «فلسفة جامدة» .

(١٠) ان المقصود من « بعض العناصر » ظهور مصطلحات او تبني استراتيجيات معينة في الولايات المتحدة والغرب ، لتلائم ظروف الحرب الباردة والحرب النووية المحتملة .

(١١) وهو تاريخ انتهاء المؤلف (صاحب الرأي) من تأليف كتابه (مدخل الى الاستراتيجية العسكرية) .

هارت في انكلترا ، فان الاستراتيجية ، لم تدخل بعد الى صميم الرأي العام ، كما انها بعيدة عن الدخول في الوسط العسكري نفسه ، حيث لا يزال العسكريون ، يفكرون بالتقنية والتكتيك ، بدلا من العمل على انشاء افكار استراتيجية ، ملائمة لكل موقف من المواقف وفي كل عصر من العصور ..

ونحن لن نتكلم عن هذه الامور في دول العالم الثالث التي لا تكتفي بقراءات غير جدية فحسب ، وانما تقتبس حتى المصطلحات بصورة مشوهة في معظم الاحيان ، والتي لا تؤدي الا ، الى الغموض والبلبلية الفكرية ، والتي لا ترجح الاسلحة والعتاد الحربي على الافكار فحسب ، بل ليست لديها في معظم الاحيان حرية اتقاءها وتوريدها بحيث تتلائم مع الافكار الاستراتيجية المتطورة .. ونعود الى تعريف الاستراتيجية قبل القيام بمحاولة يائسة لفض الاشتباك بين المفاهيم المتشابهة والغامضة ، وبيان انواعها ووسائلها وعلاقاتها ...

تعريف الاستراتيجية :

٤ - ما هي الاستراتيجية ؟ .. * ان المعنى الحرفي للكلمة ، كما بينا ، هو « الحيلة والخدعة » أما اذا انطلقنا من المفهوم القديم للاستراتيجية ، نجد انها تختص بفن الحرب فحسب الى هذا الحد .. وهناك عدد كثير من التعاريف اوردها القادة الكبار والمنظرون ، بعضها تشير الى هذا النوع من التخصص ، واخرى يتعدها لتشمل مجالات متعددة اخرى (السياسة والاقتصاد ، والقيم النفسية والمعنوية ... الخ) *

ومن التعاريف التي تحدد على الاغلب ، السمة العسكرية للعمل الاستراتيجي، نورد عدداً منها على سبيل المثال وليس الحصر، كما في ادناه :-
« الاستراتيجية : هي استخدام الاشتباك (المعارك) للوصول الى هدف الحرب » *

(كلاوزفيتز)

يعيب ليدل هارت على هذا التعريف ، لانه يخلط بين مسؤوليات السلطات العليا في الدولة وبين عمل القادة العسكريين

قد يكون هذا النقد صحيحاً ، لو كان هدف الحرب الوصول الى السلم ، كما اثبت ذلك ليدل هارت نفسه ، في حين ان هدف الحرب في نظر (كلاوزفيتز) لم يكن البحث عن السلم ، بل حده في (القوات الرئيسية للعدو ومركز ثقله ، وعليه فأن هدف الحرب وفق هذا المنظور يحددها رجل الحرب نفسه .

- وعرفها (ريمون آرون) « بأنها قيادة مجمل العمليات العسكرية » (١٣)
 - وعرفها (فون مولتكه) « بأنها اجراء الملائمة العملية للوسائط الموضوعية تحت تصرف القائد الى حد المطلوب » (١٣) .
 - كما ويقدم ليدل هارت تعريفاً للاستراتيجية قائلاً :
- « الاستراتيجية هي فن توزيع واستخدام مختلف الوسائط العسكرية لتحقيق هدف السياسة » (١٤) .

ويعلق الجنرال اندريه بوفر على هذا التعريف قائلاً : لقد كتب ليدل هارت في عام ١٩٣٩ هذا التعريف الذي لا يكاد يتعد عن أقوال (كلاوزفيتز) (١٥) .

-
- (١٢) كتاب آراء في الحرب - تأليف اكرم ديري ص ٢٦ منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر .
 - (١٣) نفس المصدر ص ٣٢
 - (١٤) الاستراتيجية وتاريخها في العالم ، ليدل هارت ص ٣٩٩ .
 - (١٥) مدخل الى الاستراتيجية العسكرية - اندريه بوفر ص ٢٧ تعريب اكرم ديري والهيثم الايوبي .

أن تعليق الجنرال (بوفر) هذا لا شائبة فيه ، لأن تعريف ليدل هارت،
والتعاريف الأخرى وبضمنها تعريف (كلاوزفيتز) الآنف جميعها تعاريف
محددة للطابع العسكرية للعمل الاستراتيجي فحسب •

هذا وقد لا يحتاج المرء كثيراً من العناء ، لكي يكتشف ، كون اذهان
واضعي التعاريف المذكورة ، حينئذ ، كانت متجهة مباشرة نحو العمل
الحربي ، ولكن من الواضح انها في طياتها تتضمن شيئاً من الخلط في
مستوى العمل (الاستراتيجي ، والتعبوي ، والشؤون الادارية) •• بالإضافة
الى انها تعتبر تعاريف ضيقة ، لا تتعلق الا ، بالقوى العسكرية وان العيب
الاكبر فيها هو ، انها تتعلق بهذه الصورة بالفن العسكري الذي يقسم عادة
بموجب العقيدة الغربية الى :-

الاستراتيجية العسكرية (السوق)
التكتيك (التعبئة)

ويميل بعض المنظرين العسكريين الغربيين الى اضافة الشؤون الادارية
(اللوجستك) الى هذا التقسيم •
وان التعاريف الآتية بهذه الصورة تدمج بين الاستراتيجية والتعبية
والشؤون الادارية ••

ومن الجدير بالذكر ، ان هذه المستويات ترتبط عند السوفيت بالمكان
والزمان ، وحجم القطعات العاملة ضمن حدود الزمكان •• أي أن :

« كل عملية عسكرية تقوم به وحدات من مستوى ، الحضيرة - حتى
الفرقة تعتبر عملية «تعبوية» •• ومن مستوى الفرقة ، وحتى جيش ميداني
(المؤلف من عدة فيالق) تعتبر «عمليات» ومن مستوى جيش ميداني ،
وحتى مجموعة الجيوش تعتبر عملية «استراتيجية»^(١٦) ولا يعترف الروس

(١٦) العقيدة الشرقية - (محاضرات كلية الاركان) - الرائد الركن عزيز قادر

بما يسمى « بالستراتيجية العليا او الشاملة » ، فهي في نظرهم « سياسة عليا » .

وبالمقارنة ، يبدو لنا ، من الناحية الظاهرية ، ان السير وفق مسار الفكر الشرقي السوفيتي قد يخلص افكارنا من التشابك ، والغموض والتناقض ، غير ان الواقع غير ذلك تماما .. لان هذا التقسيم السوفيتي المصطنع المادي ، يقيناً ، يضم في طياته شئاً من التداخل الكثير ، لا يمكن للفكر البشري بالجوء الى خلق حدود فاصلة مصطنعة ، أن يجد ، ملاذاً له من التشابك والغموض والتناقض القائم في العالم الواقع ..

فإن الاعمال التي يتم انجازها ، في منطقة الفيلق ، ضمن مخططه الخاص ، لصالح وحدات امامية مثلا .. ضمن أية منطقة عمل يمكن اعتبارها ؟ .. وبالتالي مثل هذا العمل يعتبر عملاً تعبويًا .. أم عملياً .. أم استراتيجياً ؟

لا جواب على هذا التساؤل عند السوفيت ، بل هناك الصمت ، ولكن يرافقه سياق العمل المركب ..

ومن ثم ينبغي عدم تجاهل فائدة التقسيم والتمايز بين الاشياء ، بل وبين المفاهيم ، بغية الدراسة وايجاد الحلول المناسبة لها .. كما وينبغي عدم اغفال العادة الفكرية لدى رجل الحرب ، انتي تقوده الى تقسيم الوسائل المتوفرة الى ماهو ضروري ، وماهو ثانوي ، ويجب أن يميز وفق هذه العادة بين المخططات الجوهرية ، والاضافية ، الا ان الشكلية ، والنظام العسكري الصارم ، وكسل الفكر اللامسؤول والرغبة الادارية العسكرية اكثر مما ينبغي في التقسيم والتضنيد ، تدفع الفكر العادي نحو خرق قاعدة التمسك بالجوهري الوحيد أحيانا ..

وقد ينجم ذلك عن فكرة تقسيم « المهمة » الى الاجزاء بغية تسهيل عملية التنفيذ بشكل أفضل ، ذلك لان الجيش يقسم ويجزى دائما المكان والزمان • ويعلم توزيع الواجبات ، وبناء عليه فأن هدوء رجل الحرب (بالمناسبة) يأتي من معرفته بحدود واجباته ومسؤوليته : يعرف العدو الذي يقابله ، والقوات المجاورة والقطاع الذي ينبغي الدفاع عنه ، والخط الذي لا تراجع بعده •• هكذا الجيش دائما يقسم الاشياء لدرجة انه يطلق أسماء على أجزاء الجيش يدل على نزعة التقسيم : الوحدة ، والوحدة الفرعية ، الفرقة ، الفيلق (١٧)••

على هذا الاساس أن الفكر العسكري نجده لا يزال ميالا الى تقسيم الاشياء واقامة حدود الفاصلة ، والتمايز ليس في الاشياء فحسب، بل يتعداها الى المفاهيم •• ويلاحظ ذلك في تقسيم المعركة الى صفحات القتال (الهجوم والدفاع ، والتقدم ، والانسحاب) من الناحية النظرية والاكاديمية ، مع ان المعركة عملية واحدة متكاملة ، من الناحية العملية لا تتجزأ ••

ومن المعلوم ان التقسيم حيوي ومفيد للمفكر ، ورجل الحرب في آن واحد ، إذا لم يكن تقسيما اعتباطيا •• ومن المؤكد ان من الممكن تقسيم أي موضوع الى جزئين او اكثر •• بغية دراسته ووضع حلول له بشكل أفضل ••

لقد علم افلاطون ان التقسيم الصحيح هو التقسيم الى جزئين ، ومن الجدير بالذكر حقا ، ان معظم المفاهيم التي نستخدمها عادة ، هي مفاهيم مبهمه ، مختلطة ، تغلف تحت المظهر والحد مفهومين متباينين •

أن التمارين الذهنية للتمييز بين المفهومين لمظهر واحد أو بالعكس بين المظهرين لمفهوم واحد ذات فائدة كبيرة ، تساعد الى حد بعيد الرؤية الداخلية

(١٧) كتاب الفكر والحرب - جان غيتون ص ٥١

للفكر •• هذه التمارين التي مارسها الفلاسفة والمفكرون ، وأعطت للفكر دفعا قويا الى الامام ••

وقد ميز ارسطو : بين القوة والفعل •• وبين الاستقراء والاستنتاج ••
وبين الحركة والطاقة •• الخ •

وميز باسكال : بين الغريزة والعقل •• وبين الهندسة والدقة • كما ميز بيرغسون بين الذاكرة الصرفة - والذاكرة العادة •• وبين الدين الجامد والدين الديناميكي •• الخ • وأشار جان غيتون الى الفرق بين الشيوعية والجماعة •• وبين البلفة والتهديد •• وبين الدعاية والتأثير •• وبين الحرية والاباحة •• وبين العبودية والطاعة (١٨) ••

على هذا فان الفكر الغربي ، يرى التمايزات مفيدة ، وقادرة على دفع التأمل في الحرب الى الامام ••

بيد أننا لو توغلنا بمقدار اكبر في بطون الكتب والمؤلفات قد يضيع أفكارنا في زحمة التعاريف المتحذقة والمتشعبة ، ومن جراء التشابك والخلط بين المفاهيم الخاصة بالحرب والاستراتيجية والتعبية والسياسة وغيرهما • • فأذا تحررنا عن العلة •• دلنا التحميص ، بانها ناجمة عن تطور فن الحرب وتعقيدها ، فلم تعد تقتصر العناية بالحرب على رجال الحرب انفسهم ولا على رجال السياسة بمعزل من غيرهم ، بل كما قال (جان غيتون) وذكرناه سابقا ونكرره هنا : ان رجل السياسة ورجل الاقتصاد ، والفيلسوف والرجل العادي ، أحسوا جميعا ، بأنهم معنيون بالحرب المحتملة ، فمن واجبه الاهتمام بالاستراتيجية • وعليه فقد اتجهت الانظار ، (كما فوهنا عنه سابقا) نحو هذه العلاقة القائمة في عصر النووي ، وتكنولوجيا الحربية المتطورة ، والتقدم العلمي ، وتعقيدات الاقتصاد ••• بين الفكر والحرب الاستراتيجية

(١٨) المصدر السابق ص ٥٢ •

•• فمن هذا التشابك والتداخل في المفاهيم والافكار وتباعاً ظهور تعاريف مركبة لكلمة الاستراتيجية ، مما دفع المفكرين والمنظرين والقادة الى سبر أغوار الاستراتيجية ، وتشعباتها ، وانواعها ليس من حيث الدرجة فحسب بل من حيث الطبيعة ايضاً ••• وذلك بغية تشخيص نشاطاتها ، واخضاعها للدراسة والتدقيق بصورة منهجية أسوةً بالعلوم الاخرى •

ومن الجدير بالملاحظة ، منذ نصف الثاني من القرن العشرين أزداد اهتمام الدول بالدراسات الاستراتيجية ، وتكاد الان لا تخلو دولة من الدول المتقدمة ، وعدد من دول العالم الثالث ، من اكااديميات او معاهد للدراسات الاستراتيجية ، تضم تحت سقفها وأروقتهها ، نخبة من خيرة الرواد الاستراتيجيين والمفكرين والفلاسفة والمنظرين والقادة العسكريين والمدنيين من مختلف الاختصاصات ، تقوم بدراسات عميقة وتفصيلية لكافة امكانات الدولة وقدراتها ، وعلى جميع الاصعدة ، وابرار نواحي القوة والضعف فيها •• وهي تقوم اليوم بتقديم النصائح الضرورية اللازمة الى حكوماتها للاستعانة بها ان شاءت ، في ملائمة سياساتها مع الوسائط والموارد الاستراتيجية المتاحة ، وهذه هي قمة العمل الاستراتيجي^(١٩) •

أما فيما يتعلق في موضوع دراستنا هذه ، فقد يعترض البعض على هذه الفكرة ، لعدم جدواها ، على اعتبار ان السياسة تنبثق عادة من الفلسفة التي تتبناها الدولة أو من العقيدة التي تبني سياستها على مبادئها ، وان الدراسات الاكاديمية تتسم عادة بالجمود والتجريد في حين المسائل العليا

(١٩) ونحن نفتقر في العراق الى مثل هذا المعهد (للدراسات الاستراتيجية - السوقية) ونعتقد بان الوطن بحاجة اليه ، ونأمل ان يلتفت المعنيون الى هذا النقص والعمل على اكماله الى جانب المنجزات العظيمة التي تمت لحد الآن في عهد ثورة ١٧-٣٠ تموز المباركة وقبول هذه الملاحظة كاقترح في هذا المكان ••

بحاجة الى المواهب الخلاقة والعبقرية التي تعطي الوجود لما لا وجود له على حد تعبير نابليون .

ولكن يمكننا ان نجد الرد المناسب على هذا الاعتراض في مقولة بسمارك التالية :

« من الحماقة ان نرغب في اشياء لا نستطيع صنعها »^(٢٠) ويقولوننا هذا القول الى الانتباه لمبدأ استراتيجي ثبت صحته منذ قرون وهو :«ضرورة مطابقة الوسائط المتوفرة مع الاهداف المرجوة » وهذه لمعة من لمعات العبقرية في حد ذاتها .

وقد لا يكون من الانصاف ، انكار الجهود الفكرية الرائعة التي قدمها رواد الاستراتيجية الاوائل أمثال (جبير ، جوميني ، كارل فون كلاوزفيتز ، ليدل هارت ، فولر ، بير نافيل ، كامبي روجرون ، جان بيريه ، ريمون آرون ، ماهان ، ماكيندر ، هاوتزهوفر ، دوي ، دوهيه ، ميكشه . . والرجل المدني (جان غيتون) الذي أول من تكلم عن الميتاستراتيجية . . . وأن اشادة لينين بأفكار كلاوزفيتز بحق تنتطبق على اعمال هؤلاء الرواد جميعا «اضحت أفكارهم الاساسية اليوم الزاد الذي لا جدال فيه لكل مفكر »^(٢١) .

وعليه يتعين بالضرورة على كل من ينوي القيام بدراسة الحرب والاستراتيجية ، فلا بد من الارتكان بأعمال هؤلاء والاستعانة بأفكارهم وبخمائر نظرياتهم ، والاسس والقواعد التي صاغوها ، كل على الانفراد .

ولا غرو ، اذا كانت في كتابات الاولين من هؤلاء الرواد (جبير وجوميني ، وكلاوزفيتز) كثير من الاجزاء قد شاخت وهرمت ، واننا لن نجد فيها الجواب على كل الاسئلة ، ولا حلولاً لكل المشاكل التي تواجه الرجل

(٢٠) لا أتذكر أين قرأت هذه المقولة لبسمارك . .

(٢١) راجع الفصل الثامن عشر من الكتاب .

العسكري اليوم ، في عصر الصواريخ والقنابل النووية والحاسبات
الالكترونية ، والاقمار الصناعية ،... ولكن شروحاتهم واسهاماتهم الفكرية
لا يمكن ان تلقى جانبا برمتها ...

هذا مادفعني الى القيام باستقراء بعض تلك الاسهامات المتوفرة لدي
مجدداً ، مع محاولة القيام بأجراء شيء من الملائمة بين المفاهيم الموحدة
أصلاً لمظهرين أو أكثر - والاشارة الى الافكار التي أضحت راسخة بعد أن
ثبتت صحتها وأخرى ظهرت أخطاءها مع اني واثق من عدم قدرتي لتجنب
كل الثغرات ، والحلقات المفقودة في هذا السبيل أو رأب صدعها جميعاً ..
ألا انني أحس بضرورة التفكير المستمر بهذه المواضيع ومتابعة تطوراتها
ومعالجتها ، حتى ولو كانت المعالجة غير متكاملة ..

وهذا ما سأحاوله في الفصول القادمة •

الفصل الخامس عشر

■ اقسام الاستراتيجية السوق وشمولها ::

الفصل الخامس عشر

اقسام الاستراتيجية (للسوق) وشمولها :

ان الاستراتيجية واحدة في جوهرها ، ولكنها تنقسم خلال التطبيق الى عدد من الاستراتيجيات المتخصصة .. كل واحدة منها تصلح لحقل من حقول النزاع فقط ، عليها ان تأخذ المعطيات الفكرية ، والقيم المعنوية والنفسية والمادية ، بعين الاعتبار ..

وعليها كذلك أن تعي ، صفات معطيات المادية على وجه الخصوص ، في كل حقل من حقول النزاع التي تؤدي الى نتائج مختلفة حسب طبيعة كل حقل .. فالاستراتيجية البحرية مثلا مختلفة عن الاستراتيجية البرية والجوية ..

وهناك استراتيجية عامة ، تقوم بدور التوجيه وتوزيع الادوار والقوى بين مختلف المرافق والانشطة هكذا نجد أنفسنا امام هرم حقيقي من الاستراتيجيات المتباينة ، ولكنها مترابطة مع بعضها البعض ، يكون من الضروري تحديدها جيداً لتأمين توافقها على أحسن وجه ، داخل مجموعة من الاعمال تسعى الوصول الى الهدف نفسه .

ويلاحظ وجود تباين في تقسيم الاستراتيجيات من حيث درجتها وطبيعتها مع فروقات لفظية واضحة ..

وقد آثرنا على تسمية التقسيمات الاستراتيجية من حيث درجتها (أي مستوياتها) « الاقسام » وتسمية تفرعاتها من حيث الطبيعة « الانواع »

أقسام الاستراتيجية (السوقية) من حيث الدرجة :

١ - الميتاستراتيجية :

تقع «الميتاستراتيجية» في قمة هرم هذه الاستراتيجيات ، وتخضع مباشرة للفكرة الفلسفية ، وتسعى لتحقيق انتصار هذه الفلسفة وفق رأي (جان غيتون) •

أن فكرة الميتاستراتيجية التي كتب عنها (غيتون) في إحدى مقالاته التي تضمنها كتابه بعنوان - الفكر والحرب - تنبع في الأساس من أن فلسفة ماوراء الطبيعة (الميتافيزيقيا) وهي الجزء العلوي من الفكر ، فأن مايقابلها في مجال العمل هو «الاستراتيجية الشاملة» وعليه فانه من هذا المنطلق ، بحث الاستراتيجية ، تحت كلمة «الميتاستراتيجية» باعتبارها عملا فلسفيا •••

ومن الجدير بالذكر ، ان الكاتب (جون غيتون) يحاول في هذا الجزء من كتابه معالجة موضوع الاستراتيجية (السوق) تحت ظروف، وتوقعات نشوب الحرب الكونية وفناء العالم ، ولا يستبعد وقوعها ، بالاستناد على التحليل النفسي ، لغريزة البقاء عند الانسان الاجتماعي ، وكما ويحاول جلب الاضمار على ان العالم اليوم ، يعيش تحت سيف (ديموقليس)^(١) وعليه

(١) سيف ديموقليس : اسطورة تقول : ان «ديموقليس» كان مقربا من « دينيس » طاغية سيراكوذا في مطلع القرن الرابع قبل الميلاد • وكان يكرر امام الطاغية باستمرار الحديث عن سعادة الحكم • ولقد اراد « دينيس » ان يرد عليه بشكل عملي ليؤكد له عدم صحة مقولته ، فسلمه منصبه ليوم واحد ، ولقد احس «ديموقليس» بسعادة كبيرة • ولكنه شعر خلال المادبة التي اقيمت له بهذه المناسبة ، ان هناك سيفا ثقيلا معلقا فوق رأسه بشعر ذيل حصان ، وكان « دينيس » قد علق هذا السيف ليكشف لديموقليس بشكل محسوس مدى القلق الذي يحس به الحاكم ويحرمه من التمتع بالسعادة •••

انطلاقا من هذه الاسطورة ظهر تعبير « سيف ديموقليس » وانتشر استخدامه للدلالة على الخطر الدائم المسلط على شخص او امة • وعلى العالم اليوم تحت تهديد الاسلحة النووية •••

فأن الجميع معنيون بالحرب المحتملة ، فمن واجبههم الاهتمام بالستراتيجية، وإيصالها الى مرتبة تعلو عملها الاعتيادي ، الى الميتاستراتيجية ، أي بعبارة أخرى ، الى ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقية) •

وقد وجدت من الضروري والمفيد ان يتضمن كتابنا هذا، الشروحات التي قدمها في نهاية كتابه المشار اليه ، نصاً ، لاهميتها ومسايرتها لخط تفكيرنا المركزي في هذه الدراسة ، مع اضافة بعض التوضيحات وملاحظات بحسب مقتضيات الضرورة •

وقد كتب حول « الميتاستراتيجية » قائلا (٢) :

« في العام ١٩٣٣ كان الفيلسوف هنري بيرغسون ، يطرح على نفسه أسئلة مخفية أمام تسارع العلم والتقنيات • ولربما كان السؤال التالي هو السؤال الذي طرحه على نفسه واضع قصة سقوط آدم ، او قصة برج بابل » (في السياق الذي يمضي به العلم ، يقترب اليوم الذي سيكون فيه أحد الخصوم ، بسبب سر يحتفظ به كاحتياط ، يمتلك الوسيلة ، لازالة الخصم الآخر وقد لا يبقى أثر المهزوم على وجه الارض » •• وفي مقطع آخر يقول (بيرغسون) في صدد الآلام الابدية لشخص بريء : آه ! كلا ! الأفضل قبول أن لا يكون أي شيء موجوداً ، الأفضل ترك الكوكب الارضي ينفجر » (٣) •

كل هذا قبل تموز ١٩٤٥ ، وقبل آذار ١٩٥٤ ، وقبل هيروشيما ، وقبل ظهور القنبلة الهيدروجينية •• وما جرى تصويره بصفته ممكناً في المستقبل البعيد ، اصبح واقعياً يتعذر كبحه ••

ولاشك في ان الطاقة الذرية تتضمن افاقاً سليمة ، يمكنها تطوير الحضارة وتنظيم الارض •• وقد بدء بالعمل في هذا الاتجاه الخير منذ

(٢) الفكر والحرب - جان غيتون ص ١٣٧ •

(٣) منبع الاخلاق والدين ص ٧٥ - ص ٣١٨ - بيرغسون •

العام ١٩٥٥ ولكن ما لم يشاهد حتى اليوم هو ظهور ابتكار مضاد ، تقني أو حقوقي ، يوقف تقدم السلاح المطلق^(٤) ، وكبح انتشاره .. وهذا ما يذكرنا بالفكرة القديمة قدم العالم ، والقائلة : بأن العلم أقدر على التدمير منه على البناء .. وعلى التفريق منه على التوحيد .. وأن ثمرة المعرفة سره ، ليس بسبب المعرفة بل بسبب الانسان نفسه ..

لقد كان الحكماء الذين صاغوا هذا القانون الكئيب ، مفكرين دينيين ومصلحين ، ومفسرين للتاريخ المأخوذ في كليته ، واعماقه ولحجه .. وكانوا يرون في آن واحد مستوى الجسم البشري (أي مستوى التدمير) ومستوى الروح (أي مستوى الابتكارات) والمستوى المساوي للاختيار بين الخير والشر ، بين الكائن والعدم •

ان هذا المستوى الثالث مستبعد في الاستراتيجية الراهنة بسبب نوع من العجز والخوف ، والسياسة ، أو بالرغبة المحمودة في طمأنة الطرف الاخر ، وطمأنة الذات ..

ولدى العودة الى الاستراتيجية التي تشكل مجال بحثنا ، يحق لنا ، أن نتساءل ما إذا كان بوسعها ان تتشكل (كعلم) مع اغفالها القضايا والحقائق الميتافيزيقية والاخلاقية ..؟

حتى الآن لم يكن على الاستراتيجية ان تهتم بالمسلمات المسبقة ، لقد كان بأستطاعتها التكون ، دون اللجوء الى ميتاستراتيجية ، ذلك لان الجميع كانوا موافقين على مسلمة معينة مثل :

- ان المحارب لا يمكن ان يعمل ضد ذاته •
- وان الجنود لا ينتحرون بالجملة •
- وان عدم الانضباط يدمر الجيش •
- وان موت البعض يضمن بقاء الآخرين على قيد الحياة •

(٤) المطلق : يعني السلاح النووي •

وان الوجود افضل من العدم

ومع ان المحاربين كانوا يملكون دائما الوسيلة لتدمير او لتشويه أنفسهم فإنه لم يسجل بالاجمال سوى عدد قليل جدا من حوادث الانتحار أو التشويه في الجيش ، نظراً لقوة غريزة الحياة ، ولقوة الوهم بأن الآخر يموت وليس أنا * لقد كانت الحرب على الدوام ، تقريبا ، حربا مقدسة ، نظراً لوضعها في خدمة الدين ، أو اللاهوت ، أو سر روحاني ، أو ايديولوجية ، ولكن نظراً لان ذات المبادئ الفلسفية ، والاخلاقية حول الوجود ، والحياة ، والطبيعة البشرية ، بل وحتى حول الشرف ، كانت مقبولة من قبل الجانبين المتصارعين ، فإن الاستراتيجية المثقلة بميتافيزيقية ، مضمرة ، كان يمكنها الاستغناء عن التساؤل حول الميتافيزيقية ، وعن القيام بأختيار ميتافيزيقي... ولا يزال الاستراتيجية ، تتقدم من هذا المنطلق ، ولا تزال تفترض بعض المسلمات التي لا تخضع للتقادم ، ولا تقبل الاعتراض ، وهي :

ان الحياة جيدة ... وأن الموت الجماعي يمكن تلافيه ... وأن الحرب تنتهي بالانتصار او العودة الى الحالة السابقة ...

وامام ظهور «المطلق» ، لم تغير الاستراتيجية كثيراً من نمطها في التفكير . أنها تتحدث ولا شك عن السلاح «الاستثنائي جداً» و « الذي لا سابق له في التاريخ » وهي تتصور عواقب اندلاع الحرب ، بل أن باستطاعتها أن تتوقع ببرود الامكانات الرهيبة جداً بالنسبة الى الجنس البشري أثناء الحرب وبعدها^(٥) ولكن الجميع يقبلون الافكار القائلة :

(٥) لا ادري اين قرأت هذه العبارة الثقيلة ، ولكنها الصحيحة : « تجري المحاولة لتقدير ماسيكون عليه ، في حالة الضربات الذرية المتبادلة على المناطق المأهولة ، النسبة المئوية للخسائر وعواقبها على بقاء الحضارة ... ان الاتساع الكبير للدمار يمكن ان يستتبع ليس فقط نهاية المراجع الايديولوجية - الدينية والاجتماعية - الاقتصادية التي تحملها حضارة ما ، بل المكتسبات العلمية والتقنية القادرة وحدها على ان تدفع سيطرة الانسان على المادة ٠٠ - جان غيتون - ٠

« ان الانسان الاجتماعي لا يمكن أن يرغب في تدمير ذاته .. كما لا يمكن أن يرغب في تدمير عدوه ، إذا كان تدمير العدو يستتبع تدمير الذات » • وهذا ما يمكن التعبير عنه كما يلي :-

« أن مفهوم الانتحار المتبادل بين الامم أمر مستبعد » •

إذا اردنا التفكير في هذه المسئلة الضمنية ، لاحظنا أنها تتضمن فكرة وجود فرق في الطبيعة (لا في الدرجة) بين الانسان الفردي والانسان الاجتماعي ..

ويعرف الجميع أن هناك بالنسبة الى الانسان الفرد ظروفاً قاسية ، وآلاماً يستحيل احتمالها ، وحالات يأس بالغة الحدة ، وأن مثل هذه العوامل تدفعه ، وتجبره على تدمير ذاته - إذا لم تمنعه من ذلك فكرة واجب مطلق •

والمعروف أيضاً ، وان كان الناس لا يجروؤن على قول ذلك ، ان اليأس لا يحكم فقط على وجوده الذاتي ، بل يمكن ان يحكم ايضا على الوجود كله .. وبعبارة اخرى نقول :

حين يقوم كائن واع منطقي مع ذاته ، بأدانة الوجود ، فإنه يدينه بصورة شاملة .. وإذا امكنه ذلك ، فإنه سيجبر الى العدم اولئك الذين لا يمتلكون شجاعته وصفاء بصيرته ... فإذا كان هذا اليأس ذو البصيرة الصافية يمتلك القدرة ، فإنه قد يقدم على «تفجير الكوكب» ، كما يقول بيرغسون .. ولنجرؤ على القول : أن هذا العمل سيكون قابلاً للتبرير .. وذلك لان الحياة إذا كانت حقاً مهزلة من الوهم والعذاب ، أو حتى إذا كانت مرحلة مؤقتة لطيفة بين عدمين .. فإن بالامكان امتداح من يلغيها بدون ألم بالنسبة اليه ، والى عدد كبير من الناس ، ولن يكون عمله في الحقيقة سوى تنفيذ الفعل الذي علمه ضمناً العديد من أساتذة التفكير الذي لم يكن لديهم الشجاعة المخفية اللازمة للمضي حتى نهاية منطقتهم !..

وسيقال لي ، هنا ايضا ، أن الانسان الاجتماعي كائن عاقل ، واذا كان الانسان الفرد مجنوناً : فأن الجماعات البشرية لا تياس ..

ان هذا يفترض مسبقا ان مأساة الانسان تحمل عقدها وتفرج عند الانتقال من الحياة الفردية الى الحياة الاجتماعية ، كما أنه يفترض ان الانسان الجماعي يمتلك مزايا الحكمة التي تنقص الانسان الفرد والمنعزل . ان هذه الافكار تؤجج بصورة خفية فكرة التقدم . فالتقدم العلمي ، تقدم جماعي تراكمي ، وهو يعوض بأستمراره ماينقص عدم استمرارية الحيات البشرية . ونظراً لان تقدم العلوم ، يبدو لنا كنموذج لجميع حالات التقدم، فأنتنا نتصور أن الانسان الجماعي يغير طبيعته .. ونعود الى الموضوع الذي يشغلنا ، فأقول :

« أن الاستراتيجية الذرية ، تهمل بسبب منهجي الفرضية المتعلقة ، بإمكانية حصول فعل جنوني مميت » .

ويكفي أن تتذكر المقولة الاساسية لهذه التأملات ، لنلاحظ أن العمل اليائس يمكن ان يظهر بشكل لا يمت الى اللاعقلانية اطلاقاً - منذ أن يدخل اللامتناهي ميدان اللعبة .

لقد تحدثنا عن الاغراء الذي يتعرض له قائد شعب ما أمام امكانية الظفر بالامبراطورية الكونية الشاملة ، والى الابد ، وهو اغراء لا يستلزم أي انتحار ، أفرديا كان أم جماعيا .. ولكن اغراء اليأس سيكون اكثر احتمالا حين سيصبح شعب مالك للذرة ، مهدداً بالعبودية المادية او الروحية، وينتشر بين صفوفه شعار «الموت اولى» أفلم يكن الانتحار في هذه الحالة أرفع شجاعة وأسمى تعقل ؟ .. أفلم تفر البشرية دائماً بأن الموت أفضل من فقدان اسباب الحياة ؟ .. ولنتصور العكس ، فهو اكثر احتمالا في الحالة الراهنة للرأي العام ..

حين نراقب الحالة الراهنة للأمم ، ونراقب في الأمم حالة الضمائر ، نلاحظ في الواقع ان الرابطة الاجتماعية تتدنى ، أن أمماً كانت تبدو منيعة لا يمكن تدميرها ، تفقد حريتها •• ومنذ عام ١٩٤٠ أعتدنا على فكرة ، أن أمة قوية ، مستقرة ، واثقة بنفسها يمكن ان تنهار وقد رأينا أمماً تشطب من خريطة العالم •• ونحن نعرف أن كل أمة قابلة للعطب اكثر بكثير مما يظن ، وأن عظمتها وهيبته ترتكزان على قشة هشة •• كما أن المؤسسات الاكثر استقراراً ، والمعتقدات الاكثر شيوعاً ، والاديان ذاتها ، معرضة للتهديد •• ويمكننا التفكير وفق المنطق التالي :

« أن الانسان الذي يجابه العدم ، ويؤمن بأن الحياة بلا معنى ، او يؤمن بأن العالم المجرد من الانسانية والحضارية والحيوية ان تبادل الضربات الذرية ، سيقدم فرصة ضئيلة لوجود كريم ، أن هذا الانسان يمكن ان يفقد الحد الأدنى من الثقة الغريزية الذي تغدو الحياة بدونه غير ممكنة ، وفي مثل هذه الحالة يصبح الموت أفضل من الحياة ، ويتجه المرء نحو تفضيل اللجوء الى العدم ، بل وجر الآخرين اليه ••

ومن الممكن أيضا ان تفقد فكرة « التمسك بالحياة » الحافز والزخم اللذين احتفظت بهما حتى الان ، هذه الفكرة التي كانت تؤدي الى تشبث الاحياء بالحياة في اضع الظروف (حتى على طوف) « ميدوز »^(٦) او في (معسكرات الاعتقال) وسيقال لي ، أن المصابين بمرض عضال يتعلقون بأصغر أمل • ولكن هؤلاء افراد ، ويمكننا ان نتساءل ماذا سيحدث لو ان البشرية

(٦) ميدوز - اسم مركب غرق عام ١٨١٦ على مقربة من شاطئ افريقيا الغربي ، فلقد نجا من الغرق ١٤٢ شخصا ، استطاعوا الركوب على ظهر طوف ، وبقوا في البحر ١٢ يوما يصارعون الموت ، ويتشبثون بالحياة ، واخيرا شاهدوا مركب شراعي صغير الطوف وتم انقاذ الاحياء الباقين على متنه وعددهم ١٥ شخصا في حالة الاحتضار • ولقد خلد « جريكو » هذه الحادثة بلوحة رسمها في العام ١٨١٩ وهي الان في متحف اللوفر بباريس ••••• (اكرم ديرري والهيشم الايوبي) •

في مجملها غدت على يقين بانها يمكن ان تهلك بين لحظة واخرى ، لان قمرا صناعيا معاديا (مثلا) يدور حول الارض ، مثل سف (ديموقليس) ؟.. هل يمكن احتمال ذلك زمنا طويلا .. ؟ أفلا يحتمل ان نشهد عند شعوب معينة ، بعضها اكثر بدائية من غيرها ، والبعض اكثر سأمًا ، تخمر الفكرة القائلة بأن من الافضل الخلاص من الحياة نهائيا والى الابد ..

كل هذا أوردهنا لنقول أن قضايا الاستراتيجية ستفضي الى الميتافيزيقيا .. وذلك لان الفعل النووي سيتوقف على مفهوم ميتافيزيقي ، وليس فقط على مفهوم سياسي . وهذا مايدفعني الى الحديث عن «ميتاستراتيجية» . ان القضايا العليا المتعلقة بمعنى الحياة والاختيار بين الكل واللاشيء ، لن تكون بعد الآن عرضية ، أو محدودة بشكل يسمح بأهمالها ، او محصورة في ميدان الضمائر والمعتقدات الفردية ، بل ستهم الاستراتيجية ذاتها ..

وقد اصبح من المهم الآن معرفة ما اذا كان بوسع البشرية ان تفكر في الانتحار ، خاصة لديها الوسائل لذلك .. لقد قال « ألبر كامو » ان قضية الانتحار هي في النهاية ، القضية الفلسفية والخلفية الوحيدة التي تواجه بصورة خفية كل ضمير .. وأن هذه القضية التي غدت منذ الان قضية جماعية ، تظل في قلب الميتاستراتيجية ، التي لا يجري الحديث عنها ، ولكن التي لا يمكن ان يكف عن التفكير فيها الاستراتيجيون الذين يتعاملون مع الاستراتيجية بعمق ...

أن هذه القضايا الميتافيزيقية ، وقضايا الميتاسياسية ، والميتاستراتيجية، لم يعد بالامكان اخفاؤها دوليا وراء صمت الحياء البورجوازي الغربي والصحافة اللامبالية ، والاذاعة المحمية بالرقابة ..

لقد دهش البعض ، لان الشباب أظهروا كل هذا العنف المدمر ، الذي بدا وكأن هدفه العدم وليس المستقبل^(٧) .

(٧) ويقصد انتفاضة طلاب جامعة السوربون عام ١٩٦٨ ، علما بأن العنف الطلابي بدأ يتكرر في عام ١٩٨٦-١٩٨٧ .

ولكن إذا كنتم تعلمون هؤلاء الشباب المنطقيين مع انفسهم ، ان الحياة عبثية ، لا معنى لها ، ولا غاية ، وان بطلان المعتقدات كلها ممكن مثل صحتها كلها .. وان بالامكان تفسيرها بواسطة علم الاجتماع او التحليل النفسي ، فلماذا تصابون بالدهشة ، إذا ما استخلص الفتيان من ذلك النتائج الجديدة ؟ ..

لهم تعد الميتافيزيقيا والاخلاق بعد الان معزولة داخل الضمائر الفردية ، بل انها تغادر سر الضمائر ، وتندرج في التجربة في السياسة ، والقضايا الدولية وحسابات الاستراتيجية ..

لقد هبط «المطلق» الى الارض ، عبر طريق الارهاب ، فان المعقول واجب الأداء ، تحت طائل الموت « خطر الموت » .. هاتان الكلمتان مكتوبتان (بصورة غير مرئية) في كل مكان ..

ان هناك خطر الموت ، ولكن هناك ايضا (الامل بالحياة) وهناك من يهمس (وهذا ولاشك ما يفسر اللامبالاة الشاملة) بأن البشرية ستعرف المحن ولكنها لن تندثر .. أهى حكمة الساعة الاخيرة ؟ أهو حدث طارئ أم اغاثة غير محتملة ؟ .. لست ادري ..

ولكن كل ما ادري ، هو أن لحظة الاختيار بين الأسوأ والافضل ستأتي عما قريب .. وان الاستراتيجية هي الميدان الذي سيتم فيه هذا الاختيار لذلك فان الاستراتيجية تهتم كل شخص .

٢ - الاستراتيجية (السوق) الشاملة :

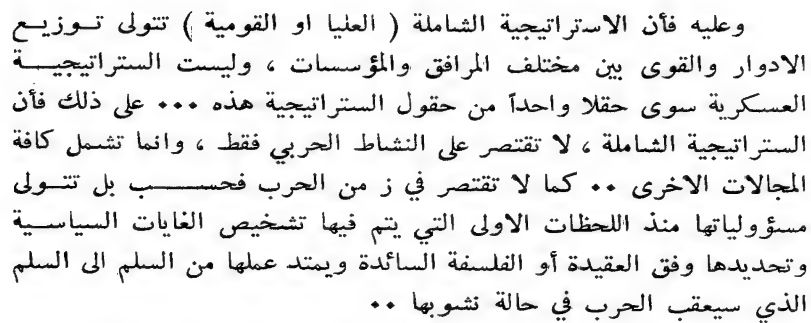
فلو رغبتا إبقاء «الميتاستراتيجية» خارج التقسيم والحاقها بالفلسفة والميتافيزيقية فحسب ، عندئذ يكون تقسيم الاستراتيجية حسب المدرسة الفرنسية عامة و الجنرال اندريه بوفر خاصة « من حيث الدرجة كما يلي :-

تتربع الاستراتيجية الشاملة على قمة الهرم ، وتعتبر خاضعة مباشرة لإدارة الحكومة (اي تكون تابعة للسياسة) وعلى هذه الاستراتيجية ، فهم وتحديد سير الحرب الشاملة ، ويتلخص دورها في تحديد وتوجيه المهمة الخاصة لمختلف الاستراتيجيات - العامة العسكرية البحتة (التقليدية) - الاقتصادية - التقنية والتصنيع - المعنوية والنفسية ، الاعلام والدعاية...الخ. ويستخدم الانكليز غالبا و (ليدل هارت خاصة) « الاستراتيجية العليا » بدلا من استخدام تسمية « الاستراتيجية الشاملة » كما يستخدم الاميريكيون « الاستراتيجية القومية او الوطنية » بدلا منها ، .. وهناك تعابير اخرى مبهمه ، ولا يعني شيء ، ولا تؤدي الا الى زيادة بلبله الافكار مثل الدفاع الوطني ، والاستراتيجية الكبرى والعظمى...الخ. وفي الصفحة التالية مخطط توضيحي بسيط للهرم الاستراتيجي :

(تقسيم الاستراتيجية من حيث الدرجة)

وبما ان الاستراتيجية التي أميل الى تسميتها بـ (الشاملة) بدلا من التسميات الاخرى تكون خاضعة مباشرة الى ادارة الحكومة ، (كما قلنا) فهي بهذه الصورة اذن عبارة عن نظرة فكرية شاملة لكل اوضاع البلد ، وتقييم لكل ردود فعل هذه الدولة أزاء كل المواقف والاطار المحتملة ... فهي تقدر وتسعى الى مضاعفة الامكانيات الاقتصادية والمالية والقدرات العلمية والتقنية والفنية وكافة عوامل القوى الاخرى من المعنوية والنفسية وحتى الادبية ، لان أهمية تقوية ارادة الرجال وتنمية شخصيتهم ، تعادل أهمية الحصول على القدرة المادية ..

مخطط توضيحي بسيط للهرم التدريجي
(اقسام الترقية من حيث الدرجة)



198

ينبغي للإجابة على هذا التساؤل ، العودة اولا الى تعاريف الاستراتيجية، أي الى نقطة البداية ، ذلك لان البحث عن الاجابة على هذا التساؤل، بأعتقادي ، بشكل السبب المركزي ، لظهور هذا العدد من التعاريف المتباينة والمتحذقة .. وقد قدمنا عدداً منها فيما سبق (ص ١٦٤) وكانت منصة على مفهوم الاستراتيجية العسكرية البحتة (التقليدية) ، في حين هنالك تعاريف كثيرة اخرى ، توجي بأن الاستراتيجية تتضمن ابعاداً ومعطيات اكبر مدى وأوسع شمولاً .. مما يبدو لنا وكأنه من المتعذر جداً ان لم يكن من المستحيل ، وضع تعريف دقيق وشامل في الوقت ذاته ويكون جامعاً ومانعاً .. والاستحالة هذه ولاشك ، متأية من التداخل والتركيب في مجالي الفكر والحدث^(٨) .. علاوة على تشابك العلاقات بين التخصصات والمسؤوليات .. وعليه ، من الملاحظ ان بعض المفكرين والقادة والمنظرين قد صاغوا اكثر من تعريف واحد للاستراتيجية ، مما يؤكد لنا تعذر صياغة تعريف واحد جامع ومانع ، يتضمن كافة مستويات الاستراتيجية •

فإذا كان لابد من العودة الى التعاريف ، نجد ان الجنرال (اندرية بوفر) في كتابه (مدخل الى الاستراتيجية العسكرية) يورد اكثر من تعريف وكما يلي :-

« الاستراتيجية هي فن استخدام القوة للوصول الى أهداف السياسة^(٩) » وان هذا التعريف كما يعترف هو نفسه ، يحمل في طياته عيباً هو ، انه يتعلق بالفن العسكري ، الذي يشمل الاستراتيجية والتعبية و (الشؤون الادارية - عند البعض ومنهم بوفر نفسه) •

(٨) راجع الفصل الاول - من الكتاب .

(٩) مدخل الى الاستراتيجية العسكرية - اندريه بوفر ، ص ٢٧

وفي مكان آخر من كتابه المذكور يعلق الاستراتيجية على العبقرية بالاستناد على أقوال نابليون ، حسب نص (لويد) وقد فصلناه فيما تقدم (راجع ص) من الكتاب •

كما ويعرب عن اعتقاده في مكان آخر ، بأن روح الاستراتيجية كامنة كما قال (وش) في اللعبة المجردة ، الناجمة عن تعارض الارادتين ، أنها فن الذي يسمح ، بعيداً عن كل تقنية ، بالسيطرة على معضلات كل صراع، حتى يسمح باستخدام التقنية (تكنولوجيا) بأقصى فاعلية ممكنة •• انها اذن فن حوار القوى أو بالاحرى فن حوار الارادات التي تستخدم القوة لحل خلافاتها^(١٠)•••

ويعتبر هذا التعريف مجردا جدا وعاما لا يتمتع بقسط كاف من الدقة، ولكنه يعتبر «روح الاستراتيجية» في اللعبة المجردة ••• ينبغي وضعها على هذا المستوى ، لغرض فهم « آلية التفكير والقوانين الكامنة في داخله »•• غير انه يغفل أن نعرف (فوش) هذا يتضمن استخدام القوة ، ومن المعروف ان استخدام القوة ليس ضروريا دائما •

ومع ذلك فهو يقترب من اعتبار مفهوم الاستراتيجية في الاساس «فكرة» ومن بعد ذلك نجده يصوغ تعريفه النهائي الذي يقول عنه بأنه لم يتلقى اي اعتراض عليه من أحد :

« ليست الاستراتيجية في الحقيقة عقيدة واحدة جامدة ، ولكنها «اسلوب في التفكير» يسمح بتصنيف الاحداث حسب أهميتها ، وأختيار اكثر الوسائل الملائمة فاعلية ، فكل موقف ، استراتيجية معينة ، تنسجم معه ، قد يكون أختيار هذه الاستراتيجية او تلك صائبة في ظروف معينة ، وغارقاً في الخطأ في ظروف اخرى •• وفي هذه الفكرة تكمن الحقيقة الاستراتيجية الاساسية »^(١١) •

(١٠) نفس المصدر ، ص ٢٩ •

(١١) المصدر السابق ص ١٩ •

من الواضح جداً أن هذا التعريف يغلب الطابع الفكري للاستراتيجية في حقيقتها الأساسية (أسلوب في التفكير) ولا يخضع لقواعد معينة جامدة (ليست عقيدة واحدة جامدة) ولكن يهمل تصنيف الأفكار ، واختيار الوسائط والتقنية ..

هكذا فإن التعريف المذكور ، يشكل بمجمله ، اجابة جزئية للتساؤل الذي أثارناه ، وينصب على «الحالة الفكرية» فحسب ..

وأذا عدنا الى أقوال (ليدل هارت) نجد ان هذا الخير العسكري المشهور ، يورد تعريفين في كتابه (الاستراتيجية وتأريخها في العالم) ، وقد اوردنا تعريفه الاول فيما تقدم (ص ١٦٥) لا يكاد يبتعد تعريفه ذلك عن أقوال (كلاوزفيتز) كما بينا ذلك في حينه ، وكان تعريفا للاستراتيجية العسكرية البحتة .. وكما أن (ريمون آرون) أخذ تعريف (كلاوزفيتز) بشكل حرفي تقريبا ، ولكن أضاف ، انها والدبلوماسية تابعين للسياسة ، فمن الواضح أنه قصد الاستراتيجية العسكرية البحتة في تعريفه هذا ..

غير أن ليدل هارت اقوال اخرى يوضح فيها المقصود من الاستراتيجية الشاملة والتي يسميها (الاستراتيجية العليا) فقد عرفها بأنها :

« السياسة التي توجه سير الحرب »^(١٢) ولكن يعتبر هذا التعريف مقتضبا جدا وغامضا ، وعليه يعود ويشرح المقصود منها بشيء من التفصيل ويقول :

« على الاستراتيجية العليا أن تقدر وتضاعف الامكانيات الاقتصادية والقدرة البشرية ، بقصد دعم الوحدات المقاتلة ، علاوة على دعم القوى المعنوية ، لان أهمية تقوية ارادة الرجال وشخصيتهم تعادل أهمية الحصول

(١٢) كتاب الاستراتيجية وتأريخها في العالم - ليدل هارت ص ٤٠٠ تعريب
اكرم ديري والهيثم الايوبي .

على القدرة المادية •• والاستراتيجية العليا تتسولى أيضا تنظيم وتوزيع الادوار ، والقوى بين مختلف المرافق والصناعة •• علينا أن ندرك علاوة على ذلك ان القدرة الحربية عامل واحد ، من العوامل الاستراتيجية العليا التي يدخل في حسابها قوة الضغط المالي أو السياسي أو الدبلوماسي أو التجاري أو المعنوي ، كلها عوامل هامة لاضعاف ارادة الخصم ••

أن مدى الاستراتيجية (ويقصد العسكرية منها) محدد بالحرب ، ولكن الاستراتيجية العليا تنظر الى ما وراء الحرب ، ونحو السلم الذي سيعقبها •• وليس عليها أن تكتفي بتحقيق انتوافق بين مختلف وسائط الحرب فحسب ، وإنما عليها أن تنظم استخدامها بغية تلافي ما يؤدي السلم المقبل الذي يجب أن يكون ثابتا ويحق حياة أفضل » (١٣) ••

ويمكننا بأختصار ان نستشف من هذه الشروحات ان الاستراتيجية العليا ، في نظر (ليدل هارت) عبارة عن نظرة فكرية شاملة للتقييم والتنظيم، وتوزيع الادوار مع اعتبار القدرة الحربية عاملا واحداً من بين العوامل الاستراتيجية العليا •• وكما تمد اظارها الى ما بعد الحرب - الى السلم الذي سيعقبها ••

ولقد حاولت مجموعة من القادة العسكريين السوفيت ، من جانبهم صياغة تعريف شامل للاستراتيجية في كتابهم شبه رسمي ، الذي قاموا بتأليفه بصورة جماعية تحت عنوان «الاستراتيجية العسكرية» وبأشراف المارشال •• ف •• دسوكولوفسكي » رغم انهم لا يقرون وجود سوى استراتيجية واحدة، وهي « الاستراتيجية العسكرية » كما نوهنا سابقا •• الا أن تعريفهم جاء مطولا جدا ، بحيث يصح اعتباره في الغالب شرحا موجزا لمفهوم الاستراتيجية من وجهة نظرهم ، وكما في ادناه ••

(١٣) المصدر السابق ص ٤٠٠ أيضا ••

التعريف السوفيتي للاستراتيجية :

« الاستراتيجية هي جملة معارف علمية عن قوانين الحرب كصراع مسلح من أجل مصالح طبقية محدودة ، وهي تبحث - على أساس دراسة خبرة الحروب والموقف السياسي والعسكري والامكانيات الاقتصادية والمعنوية للبلاد ، ونوع وسائط الصراع الحديثة ، ووجهة نظر العدو المحتمل - في شروط وطبيعة الحرب المقبلة وطرق اعدادها ، وخوضها ، وفي بناء القوات المسلحة وأسس استخدامها الاستراتيجي ، وكذلك في اساس التأمين المادي والفني لها ، ومن ثم قيادة الحرب والقوات المسلحة .. »

ميدان ذلك هو ميدان النشاط العلمي للقيادة العسكرية - والسياسية العليا - والقيادة العامة - والاركانات العليا - والذي يتصل بفن تحضير البلاد والقوات المسلحة للحرب ، وفن قيادة الصراع المسلح في شروط تاريخية معينة » (١٤) ..

ان التعريف السوفيتي للاستراتيجية ، اذا جاز ، اعتباره تعريفا ، وليس شرحا موجزا ، ينم في الحقيقة عن نظرية الحرب الشاملة ، ذات الطابع الاجتماعي ، ويحقق تركيبا متكاملا وجامعا بين الدراسة العلمية لقوانين الحرب ، وصراع الطبقات ، وعلى اساس دراسة خبرة الحروب والمواقف السياسية ، والامكانيات الاقتصادية ، والمعنوية ، وسائط الصراع الحديثة ، وبناء قواتها المسلحة وتنظيمها وقيادتها ، فالاستراتيجية عندهم بمجملها عبارة عن فن تحضير البلاد والقوات المسلحة للحرب ، تحت شروط تاريخية معينة ، على ذلك فان الخلط والتشابه واضحا تماما بين مختلف حقول الاستراتيجية والسياسة العليا ، وبعبارة صريحة لا يحتاج الى التفسير .

(١٤) مؤلف الاستراتيجية العسكرية السوفيتية - تأليف مجموعة من مارشالات السوفيت ، وبأشراف (المرشال ف.د. سوكولوفسكي) ص ١٩ - ٢٠
ترجمة العميد الركن عبدالرزاق الدريدي وزميله .

وهناك تعاريف كثيرة أخرى للاستراتيجية ، لا يمكن حصرها ، ليس لان المجال لا يتسع لها فحسب ، وانما من المؤكد ، ان الاكثار منها، لا يقدم لنا أية فائدة مرجوة ، وأن ماقدمناه من التعاريف وتحليلاتها ، قد يمكننا من بلوغ المستوى المطلوب ، للاجابة على التساؤل الثقيل الذي فرض نفسه علينا في مستهل كلامنا ..

يمكننا بعد ذلك ان نجيب بإيجاز بالعبارات التالية :

« أن الاستراتيجية (العامة)^(١٥) عبارة عن فن التفكير ، يسمح بتصنيف الافكار والاحداث لاختيار أفضلها وأجدهما .. تستهدف بلوغ أقصى تفوق على العدو المحتمل . بهذه الصورة يعني أنها علم وفن استخدام التقنية العصرية الفاعل .. وادارة الحرب ، والمشاريع الحربية وغير الحربية، وقيادة مجمل العمليات الحربية ، بالتلائم مع الافكار المستقصية ، بغية تحقيق تفوق على الخصوم المحتملين لردع اعتداءهم او الدفاع عن مصالحنا ضدهم » .

وبعبارة أخرى نقول :

« ان الاستراتيجية العامة بأختصار عبارة عن نظرة فكرية ثاقبة ، وخلقة ، ومهارة فائقة ، وقدرة عالية من العمل والتنفيذ ، أساسها نهضة علمية وتقنية وثقافية واخلاقية تمت بجذورها الى العقيدة أو الفلسفة التي تصل الى ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقيا) .

٣ - الاستراتيجية (السوق) العسكرية (البحتة) :

رأينا فيما تقدم ، أن الاستراتيجية العسكرية (البحتة) تشكل حقلا واحداً من حقول الاستراتيجية الشاملة - فهي فرع من فروعها ، وقد يتحدد مدى الاستراتيجية بالحرب ، أي بفن استخدام الاسلحة المتوفرة في كل عصر من العصور ، وبفن ادارة المعارك وقيادتها ..

(١٥) واقصد بها الاستراتيجية الشاملة او العليا او القومية .

وقد علمنا أيضا أن هناك من ينكر وجود أكثر من استراتيجية واحدة ولم يعد بالامكان تجزئتها اليوم ، وقد قال (اندريه بوفر) أن الاستراتيجية واحدة في جوهرها ، لا تتجزأ •• ومع انه درسها في معظم مؤلفاته بصورة منفصلة • والبعض يذهب الى أبعد من ذلك ، أذ يحملون قادة الحلفاء (الفرنسيين منهم على الاخص) مسؤولية الفشل في السنوات الاولى من الحرب العالمية الثانية ، بسبب بقاءهم متمسكين بفكرة التقسيم بين الاستراتيجية الشاملة والعسكرية والتعبية •

ولكننا كما رأينا : أن التقسيم والتضيد مفيضان للتفريق بين مظهرين لمفهوم واحد وكذلك بين مفهومين لمظهر واحد •• فضلا عن أن تجزئة المواضيع تشكل ضرورة للدراسة الاكاديمية على الاقل ولتسهيل البحث •• ومن ثم هناك اعمالا ذات طابع تخصصي عسكري بحث ، لا يمكن بلوغ الغاية من شن الحرب، الا بأختيار ذكي وواع لعمل او أكثر من مجمل الاعمال الحربية المطروحة وبالملاءمة الدقيقة مع الوسائل المتوفرة وخواصها في كل مراحل الحرب •

وأذا عدنا الى الحرب نفسها ، وعرفناها ، كظاهرة او كحدث ، لا يعرفها غير أبناء آدم ، وتذكرنا جدلية (هيغل وماركس) الفلسفية الدائرة بصدد اسبقية الحدث أو الفكر ، وأيهما يقود الآخر^(١٦) ووافقني القارىء ، بأن نخرج منها بفكرة موحدة ناجمة عن دمج الفكرتين ، وتقول : ان الحدث (الحرب) ينعكس على فكر الانسان ويعكسه الفكر ، كاشفا رموزه واسراره بهذه الصورة تكون آثارهما تبادلية وليست ذات اتجاه واحد • ومن ثم اذا نظرنا الى هذه الآثار المتبادلة من جهة ، والى الصلة الوثيقة بين فكر الانسان ونزعتة وآماله وتطلعاته من جهة اخرى ، نجد ان هذه الدوافع

(١٦) راجع الفصل الاول .

والاثار المتبادلة هي التي تشكل بحق القوة الدافعة المحركة للنشاطات البشرية الى نهايتها القصوى ومنها النشاط الحربي كنهاية قصوى للتطلعات والآمال . والواقع أن هذه القوة الدافعة المحركة ، والمنبعثة من تفاعل الفكر بالنزعة ، هي التي تولد الارادات ، وتبني وجهات نظر عقائدية أو فلسفية، التي أنبثقت منها في الماضي والحاضر حلم انشاء امبراطوريات عالمية، وطموحات كبيرة المفضية الى الاطماع التوسعية والاستعمارية ..

وأن أول هذه الطموحات ، الحلم الذي راود (الكسندر ٣٥٦ - ٣٢٣ ق م) لانشاء امبراطورية عالمية . وكما ان الاديان سعت الى نشر تعاليمها الى جميع الامم والاجناس ، مما ادى ذلك الى نشوب حروب دينية عديدة في التاريخ ، وكذلك كان شأن الثورات العالمية (الثورة الفرنسية - والحروب النابليونية) ، تماما مثلما تسعى اليوم كتلة من الدول (الشرقية) الى تعميم نظمها ونشر مبادئها الى انحاء العالم ، في مقابل مساعي الكتلة الغربية لتحقيق الغرض نفسه ، بطرق وأساليب مظلمة تخدم نزعة التوسع وبسط السيطرة والنفوذ على العالم ..

من كل هذا نريد أن نقول : أن الاستراتيجية (السوق) العسكرية والمدارس الفكرية العسكرية ، ظهرت نتيجة لتلك المنطلقات الفكرية النزوعية ، والمتحولة الى الارادة والرغبة الجامحة للتوسع وبسط السيطرة والنفوذ ، على أجزاء كبيرة من العالم ، ان لم نقل على العالم كله ، مدعومة بحلم انشاء امبراطورية عالمية ..

ومن المفارقة ، ومهزلة العقل البشري ، تكرار هذه العادة الفكرية النزوعية رغم اخفاقها وفشلها في كل مرة ..

وبغية عودة الى صلب الموضوع ، ينبغي أن نشير الى تلك المدارس الفكرية العسكرية المعاصرة التي نشأت وفق تصورات وتقييم الوضع الجغرافي العالمي ضمن اطار من تبريرات مظلمة وبمبررات مظلمة ومخطوءة

مع ن جميعها ظهرت من منطلق فكري واحد فقط ، هو كما قلنا «استهداف السيطرة على العالم - أو انشاء امبراطورية عالمية » بدوافع المصلحة الذاتية التي اجترتها العادة الفكرية والتي غالبا ما ادمجت الحقيقة بالخطأ المبرر بتسلسل منطقي ..

لذا سيكون القاء نظرة سريعة ومقتضبة على تلك المدارس الفكرية العسكرية ، لاثبات هذه الحقيقة فحسب ، ضرورة لا يمكن اسقاطها • ولكن دون الاسهاب والتفصيلات لان ذلك ميسور لكل من يريد الاستزادة بالمعلومات في العديد من المؤلفات وقد اشرنا اليها تباعا خلال المناقشة •

المدارس الفكرية العسكرية :

ضمن سياق التطور التاريخي ، ظهرت ثلاث مدارس تقليدية للفكر العسكري السوقي (الاستراتيجي) •• وهي : المدرسة البحرية ، والمدرسة القارية (البرية) والمدرسة الجوية • وهناك مدرسة فكرية رابعة غير تقليدية بطبيعتها ، ظهرت في الماضي القريب وهي (المدرسة الثورية) ••

تقيم المدارس التقليدية الثلاثة ، الوضع الجغرافي للكرة الارضية ، وبمنظرة مختلفة الواحدة عن الاخرى •• لقد قدم ثلاثة من المفكرين ، علماء جيوبولتيك (علم سياسة الكرة الارضية) افكاراً تستند الى هذا العلم وهم: ماهان ، ماكيندر ، ودي سيفرسيكي •• وبأختلافات أساسية في وجهات النظر ، ولكن من منطلق موحد هو : « استهداف السيطرة على العالم ، أو انشاء امبراطوريات عالمية عظمى » • كما قلنا وكررنا وكما سنرى ••

أ - المدرسة البحرية :

ان البشر الداعين للقوة البحرية (كما تقول مرجريت تتل سيرون)^(١٧)

(١٧) للاستزادة بالمعلومات راجع الفصل السابع عشر ص ١١٣ - كتاب رواد الاستراتيجية الحديثة - تأليف ادوارد ميراديل ترجمة اللواء محمد عبدالفتاح ابراهيم •

هو (الفريد تايثير ماهان)^(١٨) . ركز (ماهان) اهتمامه على المحيط المائي من الكرة الارضية الذي يغطي ثلاثة أرباع الكرة الارضية . ولقد وضع نظريته للاستراتيجية العسكرية تبين انه قبل انقضاء القرن العشرين : «سوف تتمكن الدولة التي تمتلك السيادة المطلقة على البحار العالية أن تسيطر على ثروة العالم وبذا تسود الارض » وكمطلب سبق تحقيق ذلك ينبغي وجود قوة بحرية قوية تعمل من قواعد في ارض الوطن وخارجه وتكملها بحرية تجارية كبيرة وللحصول على أقصى فاعلية ، تبين نظرية (ماهان) انه يجب الاعتماد على عدة متطلبات أساسية كما مبن ذلك في كتابه (تأثير القوة البحرية لمع التاريخ) ويأتي في اول القائمة، الموقع السوقي (الاستراتيجي) المركزي الذي يمزج الحدود البرية الآمنة بمنافذ الى واحد او اكثر من المساحات المائية . وينبغي أن تمزج هذه المواصفات الجغرافية مع شاطئ بحري تتواجد فيه موانئ عميقة المياه ، وسواطيء يمكن الدفاع عنه، وثانيا لا يمكن لأي بلد أن يدير سوقا (استراتيجيا) بحريا على مقياس واسع، الا إذا كان لشعبه قدرة على العمل في المياه المالحة وقابلية على التجارة ، وأخيراً ، ينبغي على السياسات الحكومية أن تستثمر بشكل ايجابي كل الفوائد البيئية لانشاء قوة عائمة^(١٩) . .

وقد اقتنع ماهان نتيجة لدراساته بأن القوة البحرية ، يمكن أن تزود الولايات المتحدة - بما سبق وأن زودت بريطانيا - بأداة سياسية تزيد من قوتها ومكائنها . . وأستطاع ماهان ، بالنفوذ السياسي القوي لصديقه تيودور روزفلت (الرئيس السادس والعشرون للولايات المتحدة) وهنري

(١٨) ضابط من القوة البحرية الاميريكية - اهم مؤلفاته - تأثير القوة البحرية على التاريخ - صدر ١٩٥٠ .
(١٩) رواد الاستراتيجية الحديثة - تأليف ادوارد ميدايرل ص ١٢٤ ترجمة الاميرالاي أ . ج محمد عبد الفتاح ابراهيم .

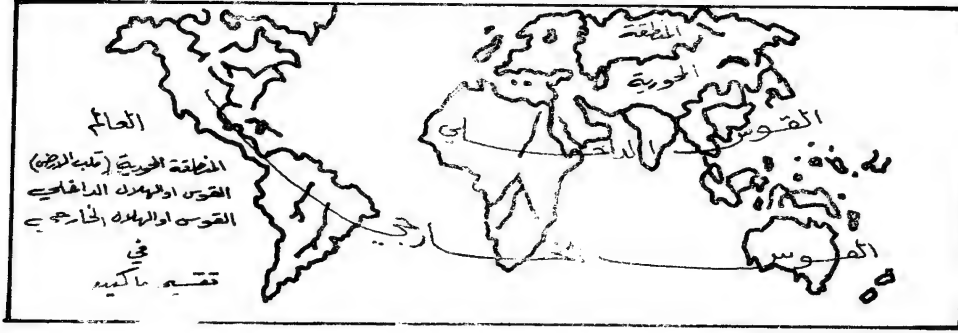
٢٠٥

لقد بين (هالفورد ماكندر)^(٢٢) الذي عقب (ماهان) ببضعة سنوات فقط ان التركيز هو على الالهية السوقية (الستراتيجية) للكتل البشرية في مواجهة البحار •• لقد نشر بحثه في سنة ١٦٠٤ والمسمى «المفصل الجغرافي للتأريخ» ميز قارة بوراسيا (اسيا الاوربية) على انها قبة او قمة الكون (انظر الخارطة في ص ١٩٦) ان منطقة المفصل الاساسية ، والتي تتطابق حدودها مع حدود روسيا الاسيوية ، تؤمن حرية حركة كبيرة للقوات البرية، ولكن لا تؤمن قاعدة للقوة بمعاني عدد السكان والموارد المحلية •• لذا فقد اضاف ماكندر جزءاً كبيراً من اوربا الى منطقة التمثيل ، والذي أعاد تسميتها باسم (ارض القلب)^(٢٣) •• لذا فأُن حدودها النهائي ، ضمت أراضي تؤمن امتزاجاً موقفاً بين القابلية على الحركة والقوة •• أما باقي اوربا وآسيا فقد شكلت منه هلالاً داخلياً او حولياً ، يعرف أحياناً (بارض الحافة)، وقد شكلت من امريكا ، وافريقيا ، جنوب الصحراء الكبرى واستراليا ، والجزر الكبيرة مثل انكلترا ، واليابان ، واندونيسيا ، هلالاً خارجياً •

وبتطور هذه الفكرة فقد عرفت اسيا الاوربية وافريقيا مجتمعين بأتهما جزيرة العالم ••

ولقد استمد ماكندر توقعاته التالية من مجموع نظرياته اعلاه :
ان من يحكم شرق اوربا يسيطر على (قلب الارض)
ومن يحكم قلب الارض يسيطر على جزيرة العالم •
ومن يحكم جزيرة العالم يسيطر على العالم •^(٢٤)

(٢٢) هالفورد ماكندر - جغرافي بريطاني •
(٢٣) لقد جاء هذا المصطلح (ارض القلب) في المرجع السابق في حين ورد في المراجع الاخرى (قلب الارض) او (قلب العالم) نعتقد ان الاختلاف ناجم عن الترجمة •
(٢٤) المصدر السابق ص ٢٢٩ •



جزيرة العالم مع المنطقة المحورية حسب آراء ماكيندر على ما جاءت في
دراسة « المحور الجغرافي للتاريخ » المجلة الجغرافية المجلد ٢٣ سنة
١٩٠٤ ص ٤٣٥ •
المخطط مقتبس من كتاب « رواد الاستراتيجية الحديثة »
تأليف - ادورد ميديبول
ترجمة - الامير العربي أ ج محمد عبد الفتاح ابراهيم •

مع اختلاف وجهات النظر لدعاة المدرستين (البحرية والقارية)
وأختلاف مذهبهما في عرض المشاكل الاستراتيجية (السوقية) • الا ان
المنطلق الفكري لهؤلاء الدعاة متطابق كل التطابق فيما يتعلق بتحديد
«الهدف» الذي هو باختصار «السيطرة على العالم» وبوضوح الى حد الذي
لا يحتاج الى الاستدلال •

لقد استعار «الجيوبوليتيكيون» الالمان وفي مقدمتهم الداعية
«هوز هوفر» فكرة قلب العالم جملة عن ماكندر ثم طبقوها على الاتساع
الالمانى النازي •• ولتحقق وجود صلات قوية بين الجيوبوليتيكيين والحزب
النازي وبين كارل هوز هوفر وهتلر والرجل الثالث (ارودولف هيس) الذي

عمل ككاتب السر ، اثناء تحرير هتلر كتابه (كفاحي) •• الذي تشير بعض فقرات هذا الكتاب الى أن كثيراً من آراء الجيوبوليتيكيين ، ومن اقسام برامجهم كان لها تأثيرها الفعال في توجيه آراء هتلر نفسه (٢٥)•

لقد حاول الجيوبوليتيكيون تطبيق فكرة « قلب العالم » او (قلب الارض) وفق الاسلوب التالي :

« أن قلب العالم يتأخم تقريبا روسيا السوفياتية والمانيا بدورها هي الاخرى قوة برية ، وتشارك مع روسيا في الكتلة الداخلية لقارة « أور - اسيا » ولكنها على نقيض روسيا لها مخارج على البحر ، ومن ثم تتوافر لها الطاقة لتكون قوة بحرية ، فاذا استطاعت ان تكون لها السيادة في كتلة مشتركة تتكون منها ومن روسيا ، فانها تستطيع اولاً ، السيطرة على (قلب العالم) فالسيطرة على القوس (الهلال) الداخلية التي تضم الدولتين البحريتين اليابان وبريطانيا ، واخيراً تستطيع السيطرة على القوس (الهلال) الخارجية (بقية القارات) •

والوسيلة الوحيدة التي يمكن ان تحقق هذا الاتساع الالمانى ، طبقاً لهذا الترتيب الذي قدمته ، هي : الحرب •

وقد عبر الجيوبوليتيكيون عن أملهم ان تتعاون المانيا وروسيا تعاونا سلمياً لتحقيق هذه المشاركة ، هذا هو السر في توقيع المعاهدة بين المانيا وروسيا سنة ١٩٣٩ ، ومن المعروف ان هذه الآمال لم تلبث ان تحطمت نتيجة الاطماع ومهاجمة هتلر للاتحاد السوفيتي سنة ١٩٤١ « (٢٦) •

والواقع ان فكرة « قلب العالم » مع ما اضاف اليها علماء سياسة الكرة الارضية (الجيوبوليتيكيون) الالمان ، كانت عموماً تناج الفكر العسكري،

(٢٥) كتاب رواد الاستراتيجية الحديثة ص ٩١ - تأليف ادورد ميدابل ، ترجمة اللواء أ . ح محمد عبدالفتاح ابراهيم
(٢٦) المصدر نفسه (ص ٨١ - ٨٢) •

لقد كانت الجماعات التي نظمها كارل هوزهور في معهد الجغرافية بجامعة مونيخ وفي أماكن متعددة أخرى ، يعملون من أجل الحرب المتوقعة ما يعمله اليوم جغرافيو الولايات المتحدة الأمريكية ، والكثير من الوكالات والهيئات بما فيها وزارة الحرب (البنتاغون) •

هكذا ان افكار هذه المدرسة القارية ، وفق أسس جيوبوليتيك والطابع الضيق الذي صور له هوزهور تؤدي فقط الى الحرب ، مهما كان طابع الامة التي تطبقها وهي - مهما بذل من جهود لاختفاءها - وسيلة لسياسة القوة والاعتداء بهدف التوسع وبسط السيطرة والنفوذ على العالم ، كما قلنا •

ومن الجدير بالذكر ، أخيراً ، ان محاولات نشر تعاليم الجيوبوليتيكيين لم تنجح في أي بلد آخر سوى في اليابان ، •• فلقد كانت اليابان دولة عسكرية الطابع قبل عصر الجيوبوليتيكيين وكان اهتمام هوزهور باليابان كبيراً جداً وفريداً •• ولقد ترجمت كل مؤلفاته الى اللغة اليابانية ، وكانت الجغرافية علماً ترعاه الدولة في اليابان وتدعمه الجامعات ، وكذلك كيف اليابانيون علم الجيوبوليتيكا ، ليتماش مع برنامج حكومتهم للتوسع والعز (٢٧) •

ولقد حاول البعض في اميركا أن يوجدوا (جيوبوليتيكا) اميركية ، بالاعتماد على الجغرافية لدعم البرنامج السياسي لاسهام الولايات المتحدة في الشؤون العالمية ، وهذا ولاشك يتحول ليكون تخطيطاً ، لسياسة القوة من وجهة النظر الاميركية •

وربما يقوم الاتحاد السوفياتي بنفس هذا العمل الان ، ولكن من يدري ؟ •

المدرسة الجوية (الفضائية) :

أسس المدرسة الجوية للسوق (الاستراتيجية) (دوهيه) الذي انتشرت تعاليمه الان في كل مكان ، ويعتقد اتباعه : اولاً - بان القوة الجوية حتى

(٢٧) المصدر السابق ص ٩٩ •

بدون مساعدة من قوة أخرى يمكن ان تكون حاسمة • ثانيا - ان التفوق الجوي الواضح يمكن ان يضع حداً للحروب المطولة • ثالثا - ان السيطرة على الجو وتدمير قدرات العدو الانتاجية ، وخصوصا المراكز المدنية الآهلة بالسكان ، وقواعدها الصناعية هي من الواجبات الاساسية ، أما الاسناد الجوي للقوات الارضية فأمر ثانوي تماما (٢٨) •

ولقد اقترح (الكسندر • بي دي • سيفيرسكي) نظرية أخرى ، مبنية على أساس ان الفائية الجوية المطلقة ، وليس فقط المحلية او المؤقتة ، من الممكن الحصول لمعيها •• ولقد بين في كتابه المسمى (القوة الجوية مفتاح البقاء) والذي نشر في سنة ١٩٥٠ ، (قبل ظهور المقذوفات الباليستية العابرة للقارات) ، ان القواعد الكائنة في الخارج غير مفيدة ••• وقلل من أهمية القوات البحرية والبرية ، و اشار بشكل واضح أن مصير الولايات المتحدة ، يمكن ان يتقرر في الجو •• وان نظرتة الى الكرة الارضية المبنية على المنظر القطبي لها تخيل ان المجابهة بين الشرق والغرب سوف تتم عبر المحيط القطبي الشمالي وليس عبر المحيط الاطلسي او الهادي (انظر الخارطة ص ٢٠٠) ولقد رسم دائرة زرقاء حول الولايات المتحدة الامريكية محدداً قطراً بطول (٥٠٠٠ كم) يمثل المدى الضارب للقاصفات المعاصرة ، كما رسم اهيلجا اصفر حول الاتحاد السوفيتي •

ان المنطقة التي تقاطعت فيها الدائرة مع اهيلج سميت (منطقة القرار) ان المحيط سوف ينكشف نتيجة الصراع على السيادة على الجو كله • وأن أي استثمار تقوم به الولايات المتحدة ، هذا اليوم ، في منطقة الصفراء ، يهدف الى تأمين سبل الامدادات السوقية (الستراتيجية) خلال الحرب ، هو تبذير محظ ، ويعتبر استثماراً غير واقعي تماما كما لو قام الاتحاد السوفياتي بمثل هذه الاستثمار في المنطقة الزرقاء التابعة للولايات المتحدة ، ان المنطق

(٢٨) المصدر السابق (ص ١٠٠) •



نظرية دي سيفيرسكي عن التفوق والنفوذ الجوي
المخطط مقتبس من كتاب السوق الأكبر - تأليف جون أم كولينز
ترجمة : اللواء الركن علاء الدين حسين مكي خماس *

يتطلب ان تركز الاستعداد الاقتصادي فقط في المنطقة التي يمكن
الدفاع عنها *

ان الهدف نفسه واضح ضمناً وان لم تنص عليه النظرية صراحة •

ج - المدرسة الثورية :

وهناك مدرسة فكرية رابعة غير تقليدية بطبيعتها ، ظهرت في الماضي القريب ودعا اليها (ماركس ولينين ، وماو ، وهوشي منه ، وتشو غيفارا وغياب) وفي الوقت الذي تكون فيه المدارس البحرية والجوية والبرية عسكرية أساسا ، فان الحرب الثورية تكون سياسية واجتماعية ونفسية، وتتبع سياسة الاسلوب غير المباشر ، وفادراً ما يوجد في الثورات ما يشابه معركة (كلاوزفيتز) الكبرى ولقد كانت معركة (ديان بيان فو) والتعرض الذي شنه (غياب) في عام ١٩٦٨ وقيام (هانوي) بغزو فيتنام الجنوبية عام ١٩٧٢ من الحالات الاستثنائية التي تؤيد وتبرهن القاعدة .. أذ أن الارض ليست بتلك الاهمية المعروفة وان ارض المعركة الرئيسية هي في عقول الرجال •

أن ظهور مجال الجو والفضاء ، قد اوجد بعداً ثالثاً للنشاط الحربي فمنذ ذلك الحين اتجهت اقطار الاستراتيجيين نحو هذا المجال الواسع ،الذي لا حدود له فيه ولا عقبات على وجه التقريب .. بعد ان ثبت فشل الافكار السوقية لدعاة المدارس الفكرية العسكرية التي سبق عرضها ، ويتزامن مع ظهور السلاح المطلق (الاسلحة النووية) وظهور مقذوفات الباليستيقية العابرة للقارة بفترة وجيزة من بعد ذلك • الامر الذي يبدو وكأن الخيال الاسطوري ، بات يركع تحت أقدام الحقيقة والواقع وذلك برضوخ الدولتين العملاقتين وانصياعهما للامر الواقع ، ونزولهما عند حدود ، الحد الادنى من سياسة توازن القوى ، ليس بصورة مؤقتة فحسب ، بل بأعتقادنا الى الابد • تحت سيف (ديموقليس) •

وعلى الرغم من تربع الاتحاد السوفياتي ، وسط جزيرة العالم (كما وصفها ماكندر) أثر حرب ظافرة ، فهو لم يتمكن من السيطرة الكاملة على

العالم كله ، مما يؤكد خطأ الافكار السوقية لدعاة المدرسة القارية وعلماء سياسة الكرة الارضية (الجيوبولتيكيين) الالمان .

كما ان الولايات المتحدة الامريكية ، هي الاخرى اخفقت في تحقيق حلم دعاة المدرسة البحرية ، على الرغم من انتصارها في الحرب ، وامتلاكها اليوم اعظم قوة ضاربة بحرية في العالم أنشأت بناءً على نصائح (ماهان) المبشر الداعية للقوة البحرية كما مر ذكرها .

واما فيما يتعلق بالمدرستين الفكريتين (الجوية والثورية) : فيما دعمت التجربة النظرية وصحة وجهات النظر وافكار دعاة المدرسة الثورية ، حيث بلغت الثورات أهدافها ، باحراز انتصارات ساحقة ، بشن حروب ثورية في مناطق متعددة من العالم .. الا انه من غير الممكن التكهن ، فيما إذا كان بالامكان لأية فئة ثورية أو حتى دولة عظمى ثورية من نشر مبادئها الى العالم كله ، ذلك لان سيادة الافكار والمبادئ وانتشارها الى كل ارجاء العالم لم يتم حتى للأديان السماوية ، كما ذكرنا .. في حين طرأ بعض التعديلات على الفكر السوقي (الاستراتيجي) الجوي والفضائي ، بعد ثبوت فشل نظرية (دوهيه) ، وعدم امكان تطبيق نظرية (سفيريسكي) ، نظراً لظهور وتطور المقذوفات الباليستيقية العابرة للقارات .. وان مانسمع به اليوم عن استراتيجية حرب النجوم ، ماهو الا استمرار لاحداث تعديلات على افكار المدرسة الفكرية الفضائية ، ولم تبلغ الكمال بعد ولن تبلغ ...

على ذلك ، فمن غير المحتمل ، تحقيق ذلك الحلم الاسطوري القديم، قدم البشرية لأي منهما مستقبلا (روسيا ، امريكا) ولا لغيرهما من الامم في المستقبل ، كما لم يتحقق بأي شكل من الاشكال في الماضي .. طالما أن الاستراتيجيون وكبار رجال السياسة ، لا يزالون يصرون على أسدال الستار على المسائل العليا ، ويففلون جوهر فكرة الحياة .. بل يعملون ضدها ، وغالبا ما يفضلون افكار الاستراتيجية (السوق) العسكرية البحتة على

أفكار الاستراتيجية الشاملة او العليا والميتاستراتيجية ، والميتاسياسية أي
وبعبارة اخرى انهم يلحقون الاصل بالفرع ..

وهذا ما يمكنني ان أقول باحساس حر ، لكل من يصبو الى امتلاك
الحقيقة بمنظور الحياة والطبيعة والانسان ، أن لا يضع الحقيقة وراء ظهره،
عندما يتطلع للمستقبل ويسير نحوه ، لانه سوف لن يجد امامه الحقيقة
الا سرايا لا يصله أبداً ...

٤ - استراتيجية المعركة :

قد لا نكون مخطئين ، عندما نستنتج ، من أستقراء أفكار دعاة
المدارس الفكرية العسكرية الاربعة ، وعلماء سياسة الكرة الارضية
(الجيوبولتيكيين) بغض النظر عن النجاح المحدود الذي أحرزته المدرسة
الثورية (الرابعة) وثبوت فشل الافكار السوقية للمدارس الاخرى ، في
واقع الامر .. ان الاختلافات في وجهات النظر لهؤلاء الدعاة مع وحدة
الهدف عندهم (كما بينها فيما تقدم) (٢٩) لم تكن تتعدى في الاساس
حدود المناضلة بين الانواع الثلاثة الرئيسية للقوات المسلحة (البرية ،
والبحرية ، والجوية) ، كخيار استراتيجي أساسي يتعلق بتنظيم وتجهيز
وبناء الهيكل العام للقوات العسكرية ، بناءً على التقييم الجغرافي للكرة
الارضية ، لملاءمة الغرض ..

ومع ما طرأ على تلك الافكار السوقية من تطورات ، بنتيجة ظهور
صواريخ الباليستية العابرة للقارات والاسلحة النووية ، والحاجة الى
الاحتفاظ بقوات تقليدية متوازنة تجمع بين افكار المدارس السوقية التقليدية
الثلاث ، لكي تكون صالحة لتلبية متطلبات مواقع العمل المختلفة في مناطق
الحركات المحتملة ، يعتبر الخيار المذكور هو المبدئي الاول من بين

(٢٩) راجع الفقرة ٣ من هذا الفصل .

الاختيارات التقنية - التعبئة والعمليات ، لصالح السوق العسكري التقليدي •• ليس على صعيد الحروب العالمية فحسب ، وانما في الحروب الاقليمية والمحلية ، وفي النزاعات المحدودة أيضا •

ويلي ذلك ضمن اطار تشكيلة واسعة من الاهداف ، والغايات السياسية والمصالح التعارضية ، وعلى ضوء متطلبات الاستراتيجية الشاملة، ومعطياتها ، عدد كبير من الاختيارات السوقية للمعركة ومن اجل المعركة •• أدناه نماذج من هذه الاختيارات السوقية النمطية ، يمكن تصورها مرتبة بشكل مزدوج لظهور التناقض الطبيعي ، وفق مسار جدلية الصراعات :-

الاختبارات الاستراتيجية (السوقية) العسكرية : (٣٠)

- الحرب التعرضية او الحرب الدفاعية
- الحرب الخاطفة او حرب الاستنزاف
- الحرب المحدودة او الحرب الشاملة
- الحرب الوقائية او الحرب الانتقامية
- الحرب بقوات نظامية جاهزة (مجندة) او بالتعبئة السريعة •
- الحرب التقليدية او الحرب العصابات
- الحرب الاقليمية او الحرب العالمية •
- وعلى صعيد الحرب النووية تظهر خيارات اخرى التالية :
 - مقابلة القوات او مقابلة المدن
 - الانتقام الشامل او الاستجابة (رد الفعل) المدن •
 - التصعيد المسيطر عليه او الهجوم السافر (الوحشي) •
 - مناطق نفوذ او مواجهة عالمية •

(٣٠) كتاب السوق الاكبر - جون ام كولنز - ص ٤٧ - ترجمة اللواء الركن علاء حسين مكي خماس •

ومن المعلوم ان كل خيار من هذه الخيارات الاستراتيجية يتلاءم ظروفه الخاصة ، تحت مؤثرات عوامل معينة ، وينبغي على الفكر الاستراتيجي (السوقي) أن يحسن الخيار ويتخذ الاجراء الذي يصيب كبد الحقيقة في الوقت المناسب من المراحل المحددة ، على ان لا يتمسك هذا الفكر بمنهج جامد غير قابل للتغيير وعلى ان يضع في الحسبان، أي تعديل يجري اضطراراً بنتيجة الخطأ في التقدير ، له عواقبه الوخيمة ..

وينبغي ألا ننسى التأكيد هنا ، على أن جميع هذه الاختيارات، تدخل ضمن مجال الاستراتيجية العسكرية (البحتة) ، التي هي فرع من فروع الاستراتيجية الشاملة (كما بينا فيما تقدم) وهناك اختيارات خاصة بهذه الأخيرة ، وان أهم واسمى اختياراتها هو : السعي على تجنب اللجوء الى استعمال القوة ، وشن الحرب ، قدر المستطاع ، والاحتفاظ بقوات ، تكفي لردع الاعتداء المتوقع من الخصم المحتمل ، مع استخدام الامكانيات المتاحة الاخرى ، التي تمثل باختيارات الاستراتيجية الشاملة ، من الدبلوماسية ، والتحالفات ، والضغوط الاقتصادية والمالية والمساعي ، وخلق مصالح تبادلية متوازنة ، لتخفيف حدة التوترات ، واستبعاد الخيار العسكرية ، كلما كان ذلك ممكناً ، وكافت النتيجة غير مضمونة من استخدام القوة .

وأذا عدنا الى الاختيارات الاستراتيجية العسكرية اعلاه ، نجد أن لكل منها عدداً من الاختيارات ، ينبثق من ذاتها ،.. ففي الحرب التعرضية هناك: الخرق ، والاتفاف ، والاحاطات (الافقية والعمودية) بقطعات محمولة جواً أو بالقوات الخاصة ، وهناك حساب للمراحل ، والوقت والمسافة للمناورة ،.. وقوة الصدمة والقوة النارية اللازمة للخرق ، والمعاونات الجوية والهندسية وغيرها ، وحساب العوامل الطبيعية (الارض والانواء .. الخ) .

وفي الحرب الدفاعية ، تتطلب استراتيجية المعركة ، الشكل المناسب من اشكال الدفاع المعروفة ، (الدفاع الخطي ، نقاط ارتكاز قوية ، (مراكز مقاومة) • الدفاع عن النهر على النهر، عن الجبال على الجبال •• دفاع المحرك (الفعال) ، الدفاع السيار •• الخ •

وباختصار ، نقول ، ان كل شكل من اشكال الصراع يتضمن في طياته ، عدد من الخيارات • على الفكر الاستراتيجي ان يكون قادراً على الرؤية بوضوح ، واختيار ما هو افضل واجدى لكل مرحلة من مراحل الصراع وصولاً الى النتيجة النهائية وقد يكون من الصالح قبول بعض الخيارات الفاشلة في بعض المراحل ، من اجل النتيجة النهائية ، عملاً على المقولة المشهورة لفرديريك الكبير : ينبغي أن تتعلم كيف نخسر بعض المعارك ، حتى نكسب الحرب •• وليست الالفاظ الفاظه ولكن القصد يعود له بالتأكيد ••

كما ان هناك اختيارات تتعلق بتحقيق الهدف ، بأساليب مختلفة ، وغير ثابتة ، تبحث عن النصر الحاسم ، منها على سبيل المثال وليس الحصر، ما يلي :-

أ - الاسكندر المقدوني : كان يفتش عن النصر ، بفضل الاستراتيجية الناجمة عن التفوق التعبوي لقواته في المعركة •

ب - فاييوس : كان يتحاشى الاشتباك مع العدو في معركة حاسمة، ويستغل الوقت لتقل حيوية واندفاع القوات الغازية بهجمات صغيرة كوخزات الابر •

ج - كلاوزفيتز : ويبحث عن النتيجة الحاسمة والنصر في المعركة الرئيسية الطاحنة •

د - لينين : كان ينادي بتأجيل المعركة حتى يسمح التفكير المعنوي للعدو بمقاتلته والتغلب عليه •

- هـ - ماوتسي تونغ : بنى استراتيجية على التفوق المعنوي الثوري •
- و - هتلر : نجح في تطبيق استراتيجية (القضم) طبقها في اوربا في الاعوام (١٩٣٦ - ١٩٣٩) •
- ز - بوفر وفوللر : تتطابق آراؤهما بشأن ضرورة تحقيق التفوق التقني (التكنولوجيا) والجيش الميكانيكية (الآلية) •
- الا انه يمكن ان تدرج جميع هذه الاختيارات تحت نوعين من الاستراتيجية وهما :
- أ - الاقتراب المباشر وغير المباشر : لقد طور ليدل هارت ، هذه النظرية الاستراتيجية بصورة باهرة واعتبرها أفضل الاستراتيجيات على الإطلاق •
- ب - الاستراتيجية المباشرة وغير المباشرة : حاول اندريه بوفر ايجاد فروقات بين نظريته هذه ونظرية ليدل هارت للاقتراب المباشر وغير المباشر الموضوع الذي سوف نتكلم عنه بالتفصيل في الفصل القادم •
- وينبغي ان نعلم جيدا ان كافة الاختيارات الاستراتيجية للمعركة غير ثابتة وعرضة للتبدل المستمر في الزمان والمكان ، وهذا يعني على الفكر ان يستخلص العوامل الاساسية للاستراتيجية العسكرية التقليدية (البحتة) وهي :
- أ - فهم تطورات الحرب بسرعة اكبر من فهم العدو لها ، لان الحرب الحالية ، لا تشبه في جوانب عديدة بالحرب الماضية •
- ب - فهم وتوقع العوامل الجديدة أو المستحدثة ، وهذا يعني فهم عوامل التفوق التي تظهر في كل مرحلة ، مثلا (اظهر نظام الحصون الدفاعية تفوقه حيناً ، والمعركة الحاسمة او العمليات الصاعقة حيناً اخر •

تعاقت انواع الحروب خلال فترات طويلة ، فكانت (قصيرة حاسمة)
أو (طويلة منهكة) أو (عقيمة غير قادرة على الوصول الى نتيجة
هامة) •

وكان المعاصرون يفقدون صوابهم عند كل انتقال من مرحلة الى
اخرى لان القوانين التي يعتمدون عليها تفقد كل قيمتها فجأة •

أن معرفة هذه الحقيقة تؤدي الى فهم مراحل تطور الصفة الحاسمة
للقوات المسلحة ، ولهذا الفهم أهمية كبرى لان فيه مفتاح الاستراتيجية
العسكرية الرئيسي (٣١) •

العلاقة بين الاستراتيجية (السوق) والعمليات والتعبية :-

عندما تحل مرحلة تنفيذ الاعمال الحربية لتحقيق الاهداف المرسومة،
في سوح الحركات ، وميادين القتال ، تطرح معضلة فكرية أساسية أدى
تجاهلها في الماضي الى وقوع عدد كبير من الهزائم منها مثلاً (هزيمة فرنسا
١٩٤٠) وهذه المعضلة هي : (العلاقات بين الاستراتيجية (السوق)
والعمليات العسكرية ، والتعبية) •

ولما كانت الاستراتيجية العسكرية ، وسيلة من وسائل سياسة القوة
ضمن اطار الاستراتيجية الشاملة أو أن شئت قل ، ضمن السياسة العليا
للدولة (٣٢) • أصبحت العمليات والتعبية ، بلا شك ، وسيلتا تطبيق
الاستراتيجية العسكرية وأن عليهما أن يتبعاهما وليس العكس ••

ولكن هنالك عدداً من كتاب قدماء ومحدثين (ونذكر من المحدثين
فوللر ، وكامي رجرون ، وتوينبي) يفسرون كل تطور الاستراتيجية
بالتطورات التقنية ، ويشيدون بالتطورات التي أحدثتها ظهور : (نظام

(٣١) كتاب مدخل الى الاستراتيجية العسكرية - اندريه بوفر ص ٨٣ •

(٣٢) على اعتبار ان الاستراتيجية الشاملة تندمج بالسياسة العليا ، نظراً
للطبيعة المتغيرة لها •

الكراديس ، واللجون والمنجنيق ، والنبال ، بارود المدفع ، البندقية سريعة
الطلقات ، الرماشة ، الدبابة ، الطيران ، الصواريخ ، الذرة .. الخ) كل
هذه الاختراعات برأيهم حددت خطوط التبدلات والانعطافات الكبيرة ،
ويستنتجون من ذلك أن من الواجب، توجيه جميع الجهود نحو الاختراعات
التقنية (تكنولوجيا العسكرية) الحديثة ، وخلق التعيين الملائمة لها ، على
أن تكون الاستراتيجية التي تطبق هذه التعيين والعمليات العسكرية
تابعة لهما (٣٣) .

وهذا يعني انهم يقدمون مفهوما معاكسا للفكرة السابقة ..
ويظهر هنا تناقض خطير يزداد خطره ، بأحتوائه على «جزء من الحقيقة»
ويمكن ذلك في الواقع كما يقول (بوفر) بأن التقدم التقني ، ولاشك عامل
رئيسي من عوامل القوة ، ومن البديهي ، تعذر إيقاف الدبابة بالبندقية ،
واسقاط الطائرة بالسهم مثلا .

ومن الطبيعي من جهة اخرى ، ان يقدم التفوق التقني ميزة كبيرة
لمن يتمتع به ، لانه يزود الاستراتيجية بوسائل اضافية فعالة ..
ولكن من المحتم عدم جدوى هذا التقدم التقني ، اذا ما استخدم
في اطار استراتيجية سيئة . وهذه نقطة اساسية لا يجب نسيانها ابداً .
مثال ذلك : تجربة الفرنسيين في الجزائر ، يمكن ان يثير التساؤل
التالي هل سمح التسليح الحديث والمتطور جدا للفرنسيين الحصول على
النتيجة الحاسمة لاختتام ثورة الجزائر ؟ . وهل تمكن الاميريكيون
بتسليحهم فائق التطور كسب الحرب في فيتنام ؟ ..

(٣٣) كتاب مدخل الى الاستراتيجية العسكرية - اندريه بوفر - ص ٧٦ .

اذن ، فان تقييم التفوق التسليحي ، يجب أن يتم ضمن عمل استراتيجي ملائم لاحباط استراتيجية الخصم ، وتكتيكاته (عملياته وتعبيته) ، لتوضيح ذلك نقول :

قد يكون للدبابة والطائرة تأثير حاسم ، ولكن حرب العصابات اثبتت فشلها •

أذا ماتم اختيار مقاومة الدبابات في الحرب التقليدية ، بمشاة راجلة (كما فعل الفرنسيون عام ١٩٤٠) فان الهزيمة واقعة لا محالة • والهجوم بمشاة خفيف على مواقع حصينة مدعومة بأسلحة متطورة حديثة ، وبكثافة كبيرة ، مصيره الفشل حتما •

وعليه يمكننا القول بأعتقاد جازم ، بأن التعبئة الصحيحة والمجدية هي الاستراتيجية (العسكرية) بعينها • وعلى هذه الاستراتيجية ، ان تحدد شكل الصراع ، وأسلوب العمل بالتقرب (المباشر او غير المباشر) •

ولكن ليس على الاستراتيجية العسكرية أن تختار شكل التعبئة فحسب ، بل عليها ان توجه تقدم التعبئة ، لتمكنها من القيام بدورها الضروري للحصول على النتيجة الحاسمة ••

مثال ذلك :

« جرى تطبيق فكرة استراتيجية ذاتها ، مرتين ، في الحريين العالميتين : الاولى ، عام ١٩١٨ ، حاول الالمان القيام بخرق الجبهة مع الاحاطة الواسعة لجناح الفرنسيين الأسر فلم تنجح المحاولة ، لان الوسائل المتوفرة في ذلك الوقت ، لم تكن ملائمة لانجاز تعبئة الخرق والاحاطة الواسعة ، نظراً لبطء ايقاع التقدم والحركة في ذلك التاريخ ، في حين ، نجحت المحاولة ، وحقق الالمان عام ١٩٤٠ (الحرب العالمية الثانية) النتيجة الحاسمة في تطبيق نفس الفكرة الاستراتيجية مع ادخال تعديل طفيف عليها ، وذلك ليس بفضل

التعديل الذي تضمن تغييراً في اختيار موقع الخرق وجعلها من منطقة «الارادن» الوعرة وغير صالحة لعمل الدبابات فحسب (كما يعتقد البعض) وانما بفضل التعبئة المتلائمة مع معطياتها الذاتية ، أي بعبارة أخرى ، نظراً لتوفر امكانية تحقيق الفكرة الاستراتيجية بامكانات التعبئة الحديثة ، المستندة على زيادة قابلية الحركة والسرعة ، التي توفرت لها في هذا الوقت » •

اذن ، فإن الافكار الاستراتيجية العسكرية لكي تكون قابلة للتطبيق، يجب أن تتلائم مع امكانات التعبئة العصرية ، المستندة الى معطيات التكنولوجيا الحديثة تماما • كما ينبغي أن يتم التقييم التقني (التسليحي) العصري وامكانات التعبئة ، والعمليات (العسكرية) • يجب ان يكون ضمن اطار فكرة استراتيجية ملائمة لاجباط افكار الخصم الاستراتيجية • هكذا فإن العلاقة بين الاستراتيجية ، والعمليات العسكرية والتعبية ، متبادلة ، وفق حسابات الخطأ والصواب في تحديد تلك العلاقات الناهضة في كل عصر من العصور •

الفصل السادس عشر

■ انواع الاستراتيجية

الفصل السادس عشر

« انواع الاستراتيجية »

وقد أتهينا تـواً من دراسة أقسام الاستراتيجية من حيث « الدرجة » أي تقسيمها الى عدة مستويات (الميتاستراتيجية - الاستراتيجية الشاملة أو العليا او القومية - الاستراتيجية العسكرية التقليدية (الصرفة) - استراتيجية المعركة) .

وقد نوهنا بان الاستراتيجية تنقسم من حيث طبيعتها ، من جهة اخرى الى نوعين من الاستراتيجية هما :

- أ - الاستراتيجية المباشرة وغير المباشرة .
- ب - الاقتراب المباشر وغير المباشر .

وقد تبدو التعابير في (أ ، ب) اعلاء تعابير متداخلة ، قابلة للنقاش ولكثير من اللبس والغموض ، الا أن ليدل هارت طور نظرية التقرب غير المباشر بصورة باهرة ، واعتبرها أفضل من كافة خيارات الاستراتيجية العسكرية التقليدية على الاطلاق ، ويؤيده في ذلك جميع كتاب الاستراتيجية، قاطبة . ولقد فصل ليدل هارت استراتيجية « التقرب غير المباشر » في كتابه « الاستراتيجية وتأريخها في العالم »^(١)، في هذا الكتب يتعرض ليدل هارت لاهم المعارك الحاسمة في التأريخ ، ويعزو سبب الانتصارات الحاسمة

(١) تعريب المقدم الهيثم الايوبي - منشورات دار الطليعة - بيروت .

فيها الى اتباع الطرف المنتصر استراتيجية التقرب غير المباشر ، فماذا يعني هذا النوع من الاستراتيجية ؟*

يرى ليدل هارت أن هناك نوعين من العمل العسكري على صعيد الاستراتيجية نوع مادي يستهدف القوات المعادية الرئيسية بصورة مباشرة، وهذا ما أسماه بالاقتراب المباشر ** ونوع معنوي يوجه الى مركز تفكير هذه القوات وجهازها العصبي لشله ومنعه من التفكير والتخطيط والتعزيز وهذا ما أسماه بالتقرب غير المباشر *

يكون من الواضح بهذه الصورة ، ان استراتيجية التقرب المباشر وغير المباشر التي تكلم عنها ليدل هارت تفترض استخدام القوات العسكرية ونشوب القتال وهي ذات طابع جغرافي وبهذا تدخل ضمن مجال الاستراتيجية العسكرية التقليدية ، التي هي فرع من فروع الاستراتيجية أو العليا أو القومية كما فصلناها فيما تقدم *

وعليه ، تتضمن هذه الاستراتيجية (التقرب غير المباشر) في مجال العمليات العسكرية « عدم أخذ الثور من قرنيه »^(٢) ، أي عدم مجابهة العدو بصورة مباشرة ، وتعني عدم الاقتراب منه الا بعد ازعاجه ، ومفاجأته وزعزعة توازنه ، بتقرب غير متوقع من قبله ، ويجري عادة من اتجاهات متحولة *

والواقع ان هذه المناورة الاستراتيجية (التقرب غير المباشر) كما يقول (ليدل هارت) هي وسيلة تفرض نفسها على أحد الخصمين المتنازعين، إذا كان لا يثق ثقة تامة ، بأنه من القوة بحيث يستطيع التغلب على خصمه في معركة تنشب على ارض يختارها الخصم *

(٢) كتاب آراء في الحرب - تأليف اكرم ديري - ص ١٣ منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر *

لقد بين بحق ان كلا الطرفين المتحاربين ، لا يستطيع ان يكون واثقا كل الثقة من قوته كل على حده ، وحتى لو احسن أحدهما انه قوي ، فإن انتصاره سيكون له ثمن باهظ التكاليف ، فيما إذا اختار التقرب المباشر، ولهذا يقترح ليدل هارت الاستخدام المنهجي للتقرب غير المباشر ، ويعنى، التقدم نحو العدو من اتجاهات غير المتوقعة ، كالتقدم الذي قام به الالمان في (الآرادن) أثناء الحرب العالمية الثانية ثم التقدم في اتجاهات ، والقيام بتغيرهما ، بحيث تصرف تفكير العدو عن الاهداف الحقيقية ، كالتقدم الذي قامت به الفرق المدرعة الالمانية عام ١٩٤٠ ضد فرنسا ، بحيث زعزت ترتيب الحلفاء الدفاعي ، وحيرتهم في اهداف الهجوم ، هل هو باريس أم شمال فرنسا ؟

في حين ان حرب ١٨٧٠ - الى الحرب الروسية اليابانية ، كانت معظم الاستراتيجيات المطبقة من نوع التقرب المباشر . لهذا لم تكن هذه الحروب حاسمة ، وكذلك الحرب العالمية الاولى التي استخدم فيها الهجوم المباشر المدعوم بتفوق ساحق بالمدفعية الا ان كل الهجمات التي حدثت ، أثبتت ان من الممكن خرق الجبهة ضد عدو ضعيف المعنويات ، الا أن النتائج لا تكون حاسمة وقادرة على احراز النصر النهائي .

لقد كان (ليدل هارت) على حق في معظم الحالات ، فيما يتعلق بالفكرة الرئيسية من هذا المفهوم ، برأي (اندريه بوفر) والذي كان قلب ميزان القوى المتجابهة قبل وقوع المعركة بالناورة لا بالقتال ، فبدلا من مجابهة العدو مباشرة في الزمان والمكان من اختياره ، ينبغي الاستعانة بلعبة محكمة ، ترمي الى الاخلال بترتيباته ، وتوقعاته وتوقيتاته ، وذلك أما بغية التعويض عن النقص الذي نجد انفسنا فيه بالنسبة لقوات العدو أو لغرض تأمين التفوق الساحق عليه وابادته .

غير أن هذه الفكرة المركزية (كما قلنا) كانت تقتصر على تطبيقات الاستراتيجية العسكرية التقليدية (الصرفة) ذات طابع جغرافي (التقرب المباشر وغير المباشر) .

عليه فإن الجنرال (اندريه بوفر) ينظر للاستراتيجية من زاوية مختلفة أخرى مشيراً الى وجود بدائل تقدمها الاستراتيجية الشاملة ، باتباع أسلوب المباشر أو غير مباشر وبتشكيلات متنوعة ومتعددة ، هكذا فإنه ينقل مزايا التقرب غير المباشر التي ابرزها (ليدل هارت) الى مجال الاستراتيجية الشاملة ، ويمكن ممارسة لعبة الاستراتيجية بأسلوبين بشكل عام (مباشر وغير مباشر) كالموسيقى بطبقتين على حد تصوير (بوفر) والمفتاح الرئيسي للطبقة العليا ، هو المباشر تكون فيه القوة هي العامل الرئيسي والجوهري ، أما المفتاح للطبقة الثانية ، فهو يمثل الاستراتيجية غير المباشر ، التي تتراجع فيه القوة ليحل محلها الفكر المستند لعلم النفس والعلوم الأخرى ، وبالطبع فإن أية استراتيجية يمكن ان تستيد من كلا المفتاحين وبدرجات متفاوتة ، وتؤدي بالنتيجة الى ظهور عدد كبير من الانماط الى حيز الوجود

ويجد تطبيقات التقرب غير المباشر في الاستراتيجية الشاملة بشكل مختلف ، في كل النزعات التي يريد أحد الخصمين فيها الوصول الى النتيجة بوسائط غير عسكرية أو بوسائط عسكرية أقل من الوسائط التي يحتمل أن تجاهه ولهذا فقد اعطى (بوفر) لهذه الاستراتيجية الاسم العام « الاستراتيجية غير المباشرة » .

لقد اوضحت لهذه الاستراتيجية مساحة عمل متسعة بسبب وجود السلاح الذري ، فأضحت بالغة التعقيد ورهبة الفاعلية ، ويتميز بصفات مكررة ومخادعة ، لأنها أصلاً غير مباشرة ، غير انها لم تفهم جيداً في معظم الأحيان .

الفرق بين التقرب غير المباشر والاستراتيجية غير المباشرة :

ولا يكمن الفرق الأساسي بين التقرب غير المباشر ، والاستراتيجية غير المباشرة في الطابع الجغرافي «للتقرب» فحسب ، فالتقرب غير المباشر يهدف في الحقيقة الى النصر العسكري ، ولكن باتباع تحضيرات وأساليب غير مباشرة لذا فان التقرب المباشر وغير المباشر يدخل ضمن حقل الاستراتيجية العسكرية الصرفة في حين ان الاستراتيجية غير المباشرة تدخل ضمن حقل الاستراتيجية الشاملة ، وهي تلك التي تنتظر حلول الحسم بوسائط غير وسائط الانتصار العسكري، تتراوح بين المساعي السليمة/الدبلوماسية وبين التلويح بالقوة أو باستخدامها ومن ضمنها اسلحة التدمير الشامل .

وهناك ميزة اخرى للاستراتيجية غير المباشرة ، وهي تكمن في الطابع الخاص الذي تتخذه فيها « حرية العمل » التي أضحت محدودة ومفيدة في معظم الاحيان ، بأنعكاسات ، وردود الفعل ، التي قد يسببها تطور النزاع على الوضع الدولي .

وقد حاول هتلر في الاعوام ١٩٣٦ - ١٩٣٩ ، بلوغ أهدافه دون أن يجعل الحرب العالمية تنشب ، يعني أنه راعى ظروف الوضع العام الدولي، وعمل ضمن حدود حرية العمل المتاحة له في تلك السنوات ، متبعاً الاستراتيجية غير المباشرة ، حقق بها اهدافه دون اراقة الدماء .

وفي عصر ما بعد الذرة ، ضاق هامش حرية العمل بدرجة كبيرة جداً ، وقد تجلى ذلك بوضوح في النزاعات المتعددة المحدودة ، التي حدثت منذ عام ١٩٥٠ (كوريا ، الهند الصينية ، شمال افريقيا ، اسرائيل ، السويس ، كوبا ، برلين) . فأن النتائج التي تمخضت عن هذه الحروب ، كنا نراها مغايرة تماماً لو كانت قد تمت ، تحت شروط توفر حرية عمل اوسع للطرف الاقوى الذي هزم امام الطرف الاضعف ، او الذي اخفق في الحصول على النتائج المرجوة ، بسبب قيود وانعكاسات الوضع الدولي في عصر الردع النووي .

هكذا تبدو الاستراتيجية غير المباشرة على انها فن معرفة افضل استخدام هامش حرية العمل الضيق الذي يقلت من الردع بالاسلحة النووية • ويسمح الوضع العام الدولي استخدامه ، لمديات محددة ، ممكن الحصول فيها على نجاحات هامة ، مع التحديد ، والتحديد الصارم احياناً لاستخدام الوسائط العسكرية ضمن هامش حرية العمل المتاح •••

لقد استخدم السوفيت هامش حرية العمل بدرجات متفاوتة من النجاح (المجر ، تشوكسلوفاكيا ، كوريا) تمكنت من تحقيق أهدافها بحركة سريعة ومباغته ، وباتباع الاستراتيجية غير المباشرة ، بشكل لم تؤد عملها الى تدخلات الدول الخارجية او نشوب حرب عالمية •• وبظروف معاكسة دولية طبقت اسرائيل هذه الاستراتيجية في عدوانها ، وحقت أهدافها التوسعية ، بالاستفادة من هامش حرية العمل الضيق المتبوع بتدخلات الدول العظمى وفرض ايقاف اطلاق النار •

وينتج عن ذلك ، ان امكانية هذا العمل المتاح / ونجاح العملية / ضمن هامش حرية العمل ، محكومان بنجاح مناورات الاستراتيجية الشاملة في الساحة العالمية (وهذه مايسمىها البعض « بالمناورات الخارجية » واني أفضل تسمية « لعبة الامم » عليها •• وهي عبارة عن تركيب متكامل من الدبلوماسية والاقتصاد والمال ، والسياسة ، والمصالح المشتركة بمنظور المستقبل ، والتي تتضمن عدداً لا يحصى من الانماط والروابط ، ويتحدد هامش حرية العمل لكل دولة من الدول من محصلة ابعاد هذه المجموعة الغريبة والمعقدة من المصالح المتشابكة والمتناقضة في معظم الاحيان •• وهذا الهامش ، ما هو الا ، ثغرات تنشأ عن تناقضات المصالح المتشابكة •

وعليه فأن تجاهل أو التكرار لقواعد هذه اللعبة ، او (المناورة) يؤديان بالضرورة الى الخطأ في تحديد هامش حرية العمل المتاح ، وبالتالي ضياع فرصة الاستفادة من وجودها ، هكذا فأن التمسك بقوانين هذه اللعبة ، يتمثل في الحقيقة بتطبيق الاستراتيجية غير المباشرة ، ضمن معطيات الاستراتيجية الشاملة او العليا او القومية •

الفصل السابع عشر

الخاتمة

الفصل السابع عشر

الخاتمة

يستحق المهزوم ، مصيره لان هزيمته ، تنتج دائما عن الاخطاء الفكرية التي ارتكبها ، سواء قبل النزاع او خلاله ... يصح هذا القول فيما اذا لم يكن المهزوم ، ضحية عدوان غير متكافئ ، وقع عليه من قبل قوة توسعية طامعة ومارقة ، وفيما اذا لم تكن اسلحة القدر ضده .

فلو تخيلنا كل ماسبق ذكره ، ومر مناقشته ، في هذه الدراسة ، لأمكننا ارجاع كل شيء الى الاصل أي الى (الفكر) .. وتوصلنا بسهولة الى كشف الوضع الجدلي للخصومة ، والخصوم ... هذا المسار الذي تحدده (كما رأينا) أربع احداثيات ، هي : (القوى المادية ، والقوى المعنوية ، والقوى الفكرية ، والقوى وآثار القدر والحظ والصدفة) .

بيد أن الحرب أو الصراع ، تستخدم القوى المادية المتأثرة بعتاد العصر ، والقوى المعنوية المرتبطة ارتباطا وثيقا بالافكار المسيطرة والمنبثقة من الحضارة القائمة .. ولا يمكننا استبعاد آثار القدر والحظ والصدفة كلية ، وتدخلات هذه القوى الغامضة التي حينما تطرأ ، تغير قيم محصلة مسارات القوى الثلاث نحو الاحسن او الاسوأ .

وأني آمل ان تكون هذه الدراسة قد أقتعت القارئ ، الى حد ما ، وظهرت له حقائق الاستنتاجات التالية :

أ - حينما ينظر الى الحرب وفق مسار الجدلية ، باعتبارها ، حدثا من أهم أحداث حركة التاريخ البشري ، ينبغي امعان النظر بصورة محكمة الى (الفكر) الذي يعكس هذا الحدث العنيف ، وينعكس عليه ، فأن شكل الحرب المنبثق من هذا الفكر ، كونه شكلا مسحتدثا أو قديما وباليا ، يقدم دليلا ساطعا لوضوح الرؤية الفكرية او العكس ... وهكذا نصل الى الاستنتاج من أن الحرب عبارة عن فكرة في الاساس والجوهر ، وتزداد فيها أهمية اكتشاف الدور الخاص للقيم الفكرية ، لأن الفكر ، هو الاساس الخلاق لكل حدث ، والحرب ، كحدث ، يستمد قوته من الفكر ، فهو الذي يربح الحرب او يخسرها ، عليه ينبغي ان يكون ان فكر الذي يقود الحرب يتمتع بصفات عليا وخصائص معينة ، ولكنه ليس فكراً مجردا ، وانما فكر مسلح بالعلوم والتقنية العصرية ، ومتلاحم مع الروح ، ومدعوم بالقوى المادية والمعنوية والنفسية ، وبعناصر هذه القوى التي تتعلق بالفضائل البشرية والحريية من (العبقريية ، والشجاعة والاقدام ، والحزم ، والصمود ، وقوى النفس والشخصية والمزاج ، وروح الوحدة والقيادة) ، هذه الفضائل التي تتأثر بالفكر ايجابا او سلباً .

وبهذه الصورة يكون من الجدير بالملاحظة ، أن كل الطرائق سواء استخدمت من قبل العقائديين او رؤساء (ماديين) عبارة عن أساليب لا تبلغ النصر الحاسم ، الا بتفوق الفكر على القوة ، وتفوق الفكرة على المادة ، والعقيدة على القتال ، وانطلاقا من هذا المنظور ، ينبغي أن يخضع الفكر للحقيقة لا أن يخضع الحقيقة لقوانينه .

ب - وفي تحليلنا للنظرية الحرية والاستراتيجية ، وفق النهج الذي انتهجناه في دراسة هذا الجانب الهام والحيوي من العملية الفكرية ، نجد أنفسنا ، قد توصلنا الى كشف مجموعة من الملابس والغموض التي تكتنف بعضا من المفاهيم النظرية ، والافكار المسبقة التي وجدناها كثيراً

ما أدت الى الخلط بين مفهومين لمظهر واحد ، وبالعكس ، من جهة ، والى تقسيم جائر وتعسفي لمسألة موحدة اصلا من جهة اخرى •

واني لا أجد نفسي مقتنعا تماما بفكرة التقسيم الافقي بين السياسة والاستراتيجية ، نظراً للطبيعة المتذبذبة لهذه الاخيرة • فيما عدا ذلك أراني مقتنعا بدرجة كبيرة بأهمية وفائدة تقسيم الاستراتيجيات (من حيث الدرجة) بحيث تتخذ الاستراتيجية الشاملة او العليا أو القومية موقعها فيه تحت (الميتاستراتيجية) ، وفي قمة هرم الاستراتيجيات المتعددة ، والخاصة بكل مجال من مجالات النشاط البشري ... ويكون دورها ، في الواقع ، توجيه وتنسيق الاستراتيجيات الاخرى ، الاقتصادية والمالية ، الصناعية ، والدبلوماسية ، والتقنية • الخ • فليست الاستراتيجية العسكرية (التقليدية) الصرفة سوى أحد هذه الاستراتيجيات ، وتتضمن في طياتها الاستراتيجية العملية (استراتيجية المعركة) وتقوم بدور رئيسي او دور بسيط مساعد ، حسب الحالات والاضاع •

الا أن حلول هذه الاستراتيجيات تتباين بعضها عن البعض ، بطرائقها المستخدمة ، فكل حل منها عبارة عن مزيج من الطرائق المنتقاة لكي تتلاءم بصورة أفضل ، وتتفق مع الوسائل الجاهزة او مع مكامن الضعف لدى الخصم ، وأختيار أفضل هذه الطرائق من بين مجموعة كبيرة واسعة الامتداد ، تندرج بين الایحاء والتدمير الشامل ••

ومن بين الاختيارات المتاحة الاخرى ، يعتبر الحصول على حرية العمل الدليل الساطع على النجاح • وان الصراع من أجل الحصول على حرية العمل ، وحرمان الخصم منها ، هو في الواقع روح الاستراتيجية المعاصرة ، عندئذ ، يبرز الى النور مفهومان :

الاول : ينطوي على فكرة استخدام القوة المتفوقة الجاهزة • وهذا هو النوع المباشر من الاستراتيجية •

والثاني : يستهدف لعبة اكثر خداعا وتحايلا وخبثا ، وهو الذي يشكل
« الاستراتيجية غير المباشرة » •

وليس الاقتراب المباشر وغير المباشر سوى نماذج للاستراتيجية
المباشرة •

ومن ثم ينبغي ان نعلم بأن الاستراتيجية ، لاتدار ، كلعبة الشطرنج
بأحجار ذات قيمة ثابتة ومحددة ، فحلولها تماثل مختبر تحضير العقاقير من
مزيج من العناصر من اجل الحصول على الدواء الناجح لمرض تم تشخيصه
بصورة دقيقة • فهي (الاستراتيجية) بهذه الصورة «اختراع دائم وابدي»
على حد تعبير (اندريه بوفر) يستند الى فرضيات ، ينبغي التحقق منها اثناء
العمل ، والا فان الثمن سيدفع باهضا حينما تحل الهزيمة ، نتيجة لأية اخطاء
في التقدير ، وهنا تكمن أكبر صعوبة يتعرض لها الفكر البشري ، وبخاصة
في عصر التطور السريع ، كما هو الحال في عصرنا الحاضر •

وقد اسيئت معرفة هذا الطابع التطوري ، حتى الاعوام الاخيرة ،
لان بعض النظريات ، ذهبت الى حد الادعاء بان الاستراتيجية فضيلة عمل
ومبادئ ثابتة لا تتبدل ولا تتغير ، وعلى التعبية وحدها ان تتطور ، وهناك
من يتمسك بهذا الرأي وما يزال وانا لست منهم •

وأخيراً فأن كثيرا من مجالات الاستراتيجية لم تستكشف بعد ،
بصورة كاملة أو لم تستكشف على الاطلاق (برأي بعض المحدثين) من هنا
تظهر أمامنا مهمات وواجبات عاجلة ، ان اهمها يتعلق بدراسة العامل النفسي
للاستراتيجية لان من الضروري تحديد نفسية الجماعات بدقة ونفسية
الجيوش والقادة والحكام والشعب وأخيراً الرأي العام الدولي والداخلي
•• وقد اصبح من المستحيل الاستمرار في العمل بحرية تامة في محيط
الاسرة الدولية بقيودها وتعقيداتها •

لهذا فلا قيمة للاستراتيجية ، إذا لم تمارس ضمن اطار النفسية
(البسكولوجية) بصورة جيدة ، وهذه هي من اصعب المشكلات ، وتعود
دون شك الى شكل خاص من اشكال التفكير ، وربما كان هذا الشكل
هو الشكل الجدلي •

وهذا ما حاولناه في هذه الدراسة المتواضعة ، مع اعتقادنا وايماننا
بأن الفكرة هي التي ينبغي ان تحكم وتوجه كافة المسائل المتعلقة بالصراع
أو الحرب او الاستراتيجية ، كما يجب أن تحكم وتوجه كل الامور
الانسانية الاخرى •

غير ان هذه الفكرة هي في حد ذاتها قناعة من القناعات أو فلسفة
من الفلسفات •

التذييل

في أثناء البحث والدراسة ، ولدى الرجوع الى المصادر المغمورة بالغبار في الرفوف العالية ، بغية استقصاء المعلومات ودعم الحجج ، او تثبيت بعض الافكار والمفاهيم ، كأسلوب دراسة متبعة اعتياديا ، استأثر اهتمامي وأثار فضولي ، موضوعين ، من مواضيع الحرب والاستراتيجية ، في غاية الأهمية وبالغة الخطورة ، لاسيما فيما يتعلق بجانب التطبيق العملي لمفهوميهما ، الا انه نظراً لكونهما من المواضيع الفرعية ، وبعيدة الصلة بالفكرة العامة ، وخط التفكير المركزي للدراسة ، لذا لم يكن بالامكان ضمهما في اماكن مناسبة من فصول الكتاب دون أن يؤدي ذلك الى الاخلال بالفكرة العامة ، والانحراف عن خط التفكير المركزي .. فضلا عن الأظالة والاطناب ، بلا فائدة مرجوة .. كما لم يكن من الحكمة تركهما بدون المعالجة والدراسة المستفيضة لاهميتهما .

على ذلك فقد فضلنا اضافتهما الى نهاية الكتاب في ملحقين (أ - ب) متحاشيا بذلك المحاذير الآتية الذكر .

الملحق (أ) ويتعلق بمفهوم « نقطة الذروة للهجوم - والحد الاقصى للمناورة الاستراتيجية » .

الملحق (ب) ويتعلق بحرب الازرار ، كما يسميها البعض .. والحرب الالكترونية كأسم شائع لها .

الفصل الثامن عشر

**نقطة الذروه في الهجوم
والحد الاقصى للمناورة**

الفصل الثامن عشر

الملحق (آ)

نقطة الذروة للهجوم – والحد الاقصى للمناورة الاستراتيجية

أن مفهوم نقطة الذروة للهجوم والحد الاقصى للمناورة الذي تكلم عنه (كارل فون كلاوزفيتز) أب الاستراتيجية وواضع النظرية الحربية وأسس الاستراتيجية – سهل وبسيط من الناحية النظرية ولكن ممتنع التطبيق في كثير من الاحيان .

لقد اخفق في تطبيقه عدد من عباقرة الحرب امثال (شارل الثاني عشر ونابليون وهتلر) مما يثير الاستغراب والدهشة من أخفاق ثلاثة من اعظم عباقرة العصر في تطبيق هذه النظرية الحربية البسيطة .

تشير هذه الدراسة ان الاخطاء المرتكبة مع تشخيص العلاج الملاءم الموصوف في فن الحرب .

نقطة الذروة للهجوم والحد الاقصى للمناورة

١ - كثيراً ما يستشهد بأسم (كارل فون كلاوزفيتز) - أب الاستراتيجية ولكن قليلون هم الذين قرأوا له ، وقليل أيضاً أولئك الذين فهموه . . . وكثيراً ما يتردد على اللسان تعبيره ، من أن الحرب استمرار للسياسة بوسائل أخرى . ويتفق كل الذين طبقوا هذا التعبير في الاعتراف ، بعبقرية كلاوزفيتز النادرة ، ولكن ليس هناك واحد من أولئك الذين استوحوا من آرائه وافكاره ، حفظها بصورة كاملة . . .

بهذه الكلمات ، استهل (بيير نافيل) مقالة « كلاوزفيتز ونظرية الحرب » ، مدافعاً عن افكاره والقوانين النظرية التي وضعها للحرب .

٢ - لست بصدد الاتحاد في الرأي مع (بيير نافيل) او (كامبي روجرون) للدفاع عن كلاوزفيتز ، ولا الاصطفاف في صفوف النقاد له (ستالين) أو لبعض آرائه دون الاخرى (ليدل هارت ، فولر) وغيرهما ، بل دفعني احساس عميق لاهمية وخطورة مسألة « نقطة الذروة للهجوم أو الحد الاقصى للمناورة الاستراتيجية » ، التي تحدث عنها كلاوزفيتز كثيراً في مؤلفه الثمين (في الحرب) وكذلك بسبب الدهشة من اخفاقات عدد من عباقرة الحرب ، في فهم ابعاد هذا المبدأ ، لعدم ادراكهم ما يتضمنه المفهوم الداخلي لهذه الفكرة ، على الرغم من البساطة والوضوح الذي تتسم به . مما تكون لدي احساس بأن الطبيعة ، تهب للمدافع الحاذق ميزة تمكنه من تلافي الهدف السلبي للدفاع ، مقابل الهدف الايجابي للهجوم ، في حدود التعادل ، في نقطة التوازن ، تاركة قول الفصل ، في الصراع : المحاذقة ، والفطنة ، والعبقرية . . .

٣ - ترد هذه التسمية « نقطة الذروة للهجوم » او كما يسميها بعض العسكريين « نقطة اقصى تطور » في المقدمة التي وضعها المترجمان الاستاذان « اكرم ديرى والمقدم اليشم الايوبى » للمؤلف « في الحرب » الذي نقلاه الى العربية ، لكارل فون كلاوزفيتز ، وفي كتب وترجمات اخرى لهما •

لا تتواجد مثل هذه التسمية ضمن المصطلحات العسكرية المتداولة عندنا ، في حين هنالك تعابير ، تعطينا دلالة مموهة لفكرة « نقطة الذروة » وهي ترد ضمن مصطلحات صفحة الهجوم مثل « زخم الهجوم - او ادامة زخم الهجوم - او انتهاء زخم الهجوم » •

ولما كانت معانٍ هذه التعابير لا تقود الى مفهوم فكرة « نقطة الذروة » ، لذا نرى من الضروري استعمالها كما ورد في المؤلف المذكور.

٤ - ماذا تعني « نقطة الذروة » او الحد الاقصى للمناورة ؟

لقد تحدث كلاوزفيتز كثيراً عن هذا المفهوم ، عند تحليله العميق للمميزات المتبادلة للهجوم والدفاع •• وحدده بأنه « مرحلة التي يصل فيها اندفاع الهجوم الى الاجهاد ، وتصل المناورة الاستراتيجية الى اقصى مداها ، تغدو قوة الهجوم في القدمات الاولى هشه ضعيفة ، الامر الذي يضطر المهاجم استخدام قواته الاحتياطية ، ويحصل المدافع على اقصى مردود ، اذا احسن تقدير هذه النقطة لعدوه ، وقام بهجوم معاكس ••

٥ - درست هذه الفكرة من قبل تلاميذه الذين استحصلوا دروساً قيمة من آرائه في الحرب ، ويوجد منهم في كل أمة ، وفي كل طبقة من طبقات المجتمع الواحد • وكان له من أنبع سمته في الغرب والشرق ، وهناك امتداد له في عصرنا الحالي - ماك آرثر - ماوسي تونج - اللذان يستشهدان به وقد طبقا افكاره •• ومع ذلك فان أي واحد يتأمل (كلاوزفيتز) ملياً أثناء

العمل ، يفهم بسرعة أن مولتكه ، وشليفن ولودندروف ، وهتلر مجتمعين كانوا أسوأ تلاميذه ، على حد زعم « بيير نانيل » ، إذا ما قمنا بتقييم لقرن من الحروب الذي عاشوه ، وذلك لأننا : إذا اعتبرنا ، أن الحرب ليست الا وسيلة سياسية معينة ، فعلى أن تتفق أن السياسة قد فشلت مع الوسيلة في نهاية المطاف . .

أن الضباط الألمان ، لم يستحصلوا من حكمة كلاوزفيتز ، بعد انهيار نابليون والقضاء على ثورة عام ١٨٤٨ ، الا استنتاجا واحدا : وهو ان الدولة، ينبغي أن تخضع للجيش ، نظراً لان السياسة والحرب تتشابهان معاً .
أما المضباط الفرنسيون فلم يعيدوا قراءة (كلاوزفيتز) الا بعد عام ١٨٧١ وكانت قراءتهم بقصد رفض « فلسفته الضبابية » .

ويمكننا القول ان افكار كلاوزفيتز لم تفهم على حقيقة أنها . . كما لم يفهم امتداد نظريته وشمولها من قبل الكثيرين ، ذلك لان هو نفسه لم يستطع أن يلاحظ ان عصر الثورات الوطنية البورجوازية ، قد آل الى الزوال في اوروبا ، وانه لم يكن يكتب لعصره بل لعصرنا ، وليس لاوربا فحسب بل للجميع ، ولهذا السبب نجد اسم (كلاوزفيتز) يلعب تدريجيا في الطبقات الثورية الجديدة من المجتمع ، وقد أشاد به ماركس ، انكلز ، ومن بعدهم (لينين) ، الذي كتب عنه « وكرر ماكتبه اكثر من مرة » ، أن كلاوزفيتز هو واحد من اعظم المفكرين العسكريين وواحد من اعظم فلاسفة ومؤرخي الحرب . . انه كاتب أضحت افكاره الاساسية اليوم الزاد الذي لا جدال فيه لكل مفكر . .

٦ - وتعتبر الدراسات الاستراتيجية لمولتكه استمراراً لعمل (كلاوزفيتز) وتكملة للنظرية التي شرحها في كتابه « في الحرب » .

لقد استخلص هتلر درساً صحيحاً من تجارب عام ١٩١٤ ، أذ فهم أن الحرب على الجبهتين لا تؤدي إلى أي نجاح حقيقي ، إذا تمسكت ألمانيا بالاستراتيجية التي اقترحها مولتكه بعد عام ١٨٧١ ، كما فهم ، أن عدم نجاح خطة شليفن عام ١٩١٤ نجاحاً كاملاً وضع ألمانيا في وضع حاول فون شليفن نفسه جاهداً تجنبه في مخططه ، وهو القتال على الجبهتين ، لذا فكر هتلر بتطبيق فكرة شليفن القديمة المبنية على الدفاع في الشرق والهجوم في الغرب ... إلا أن هتلر أخطأ في شيء واحد ، فهو لم يفهم فكرة (كلاوزفيتز) عن «الحد الأقصى للهجوم الاستراتيجي نقطة الذروة» أو مايسميه بعض العسكريين «نقطة أقصى تطور» كما مر ذكره .. وهي المرحلة التي يصل إليها الهجوم الاستراتيجي ثم يتغير بعدها ميزان القوى .. فهو لم يفهم أنه على مستوى عصر الحرب العالمية الثانية ، تقع «نقطة الذروة» أو الحد النهائي للهجوم ، على شاطئ المانش ، فإذا لم تتمكن ألمانيا من اجتيازه ، حكمت على نفسها بالدفن في فرنسا ، عندئذ لا تجدي متابعة النصر في بلقان، وإفريقيا ، ومضاعفة العمليات الجوية، وعمليات الغواصات، مع ترك انكسار حرية لتعاود الهجوم المعاكس بمعونة الولايات المتحدة الأمريكية ، عندما تكون ألمانيا قد خسرت معظم قواتها في الشرق .

لقد أكد فون مانشتاين على هذه النقطة في كتابه : «انتصارات ضائعة» واعتبر القضاء على بريطانيا هدف ألمانيا الاستراتيجي الذي تحقيقه يكون كفيلاً بالحصول على نتائج حاسمة ..

٧- لم يكن هتلر الذي وسع كثيراً من المفاهيم الاستراتيجية وحده، لم يفهم فكرة كلاوزفيتز عن «نقطة الذروة» وقد سبقه في ذلك نابليون وشارل الثاني عشر (ملك السويد) .. ولم يكن ستالين أوفر حظاً من هؤلاء في فهم هذه الفكرة مع فارق في النظرة والحكم بين هؤلاء .. فبينما يوجه هتلر إلى الداهيين إلى مسارح القتال الدائر في الشرق ، نصيحة

يطلب منهم أن يستصحبوا معهم كتاب كلاوزفيتز «في الحرب» في حقائبهم نجد أن ستالين يدعو مواطنيه في الاتحاد السوفيتي إلى أن يقضوا نهائياً على الاحترام الذي يكنه العسكريون في العالم للمنظرين الألمان ... وهو احترام لا يستحقونه لأنهم خسروا حربيين عالميتين ، وبخاصة كلاوزفيتز وكان يقول « أن من المضحك اليوم أن نطلب من كلاوزفيتز إعطاءنا الدروس » •

غير أن التجربة لا تحسم هذه المناقشات والا لكان من الحق أن نقبل مع ستالين (صانع هزيمة المانيا رقم واحد) اداة عقيدة عسكرية لم تنجح في الامتحان خلال حربيين عالميتين ... ولكننا مازلنا نعجب بهانيبال وإن قهره سيبيون ، وهتلر وإن هزم في نهاية المطاف في اوسع حرب قادها في العصر الحديث .. وانا مازلنا نستقي الدروس من معارك نابليون تماماً كما نستقيها من معارك كوتوزف وبلوخر ، ودلينجتون الظافرة •

ولا غرو إذا كان مؤلف كلاوزفيتز «في الحرب» الذي كتبه في مطلع القرن الماضي كثير من الاجزاء فيها قد شاخت وهرمت .. وانا لن نجد فيها الجواب على الاسئلة التي تواجه الرجل العسكري اليوم في عصر الدبابة والطائرة والصواريخ والقنابل الهيدروجينية والاقمار الصناعية .. ومع ذلك ليس هناك شخص واحد يعلن عن زعزعة ايمانه بصحة المبادئ التي اختبرت فترة طويلة من الزمن والتي تمنعنا من أن ننسى بان « الظواهر العابرة » تبقى رغم قوتها اضعف من المبادئ • وان كلاوزفيتز أحد محلي تلك المبادئ ..

٨ - ان من أهم ما قدمه (كلاوزفيتز) للفن العسكري والذي لا يجاريه فيه أي انسان - في رأي كامي روجرون - هو تحليله العميق للمبررات المتبادلة للهجوم والدفاع ومفهومه عن «نقطة الروة» موضوع البحث. وان فهم نقطة الذروة من الناحية النظرية سهل وبسيط ولكنها ممتنع التطبيق



في كثير من الاحيان ، فقد اخفق فيه عباقرة الحرب ، شأنها في ذلك تماماً شأن تطبيق مبادئ الحرب الاخرى ، نجدها في الوهلة الاولى سهلاً وميسوراً •• ولكن كم من القادة العظام اخفقوا في تطبيق أبسطها رغم محاولاتهم الجادة للتمسك بها ••؟ ولقد قال نابليون « يذهل المرء على تفاعلة مبادئ الحرب ، ولكن يتضاعف ذهوله حين يحس بعجز شديد في تحقيق أبسطها عند التطبيق (ليست الالفاظ تعود لنابليون ولكن القصد يعود اليه بكل تأكيد) » •

هكذا فان مفهوم « نقطة الذروة » في الاعمال الهجومية مرتبط بأضعاف الخصم كلما تقدم ، فلا بد من الملاحظة التالية :-

أ - ان الثقة التي تبعثها الانتصارات في نفس المهاجم في مقابل التفكيك العميق الذي يتعرض له المدافع من جراء الاعمال التعرضية الهجومية امور لا يجوز اغفالها او التقليل من شأنها •

ب - ولكن تقدم المهاجم يبعده عن قواعده ، ويتعين عليه ان يحتل الارض المكتسحة ، ويحاصر المواقع القوية ، الني يدافع عنها الخصم بأصرار، كما ويحتاج الى قوات كبيرة لحراسة خطوط المواصلات الطويلة ••• هكذا ستعاني قواته كثيراً من المشاق والآلام ، مضافا الى مشاق القتال وآلامه •

ج - أما الخصم المنسحب امامه الى مقربة من مستودعاته وقواعده فيسهل عليه تموين قواته وتنخض مشاقه بالاعتماد على تحصينات معدة ومحصنة سلفا ، من قبل قطعات اخرى في الخلف ، وكما يتلقى للدفاع عنها مساعدة شعبة •

٩ - وبمتابعة أفكار (كلاوزفيتز) عن « نقطة الذروة للهجوم - او المناورة الاستراتيجية نجد حدوث تبدل الموقف أغلب الاحيان ، عندما يقطع

المهاجم تقدمه اضطراراً ليتحول الى الدفاع ... عندئذ يكون المهاجم قد بلغ ، دون أن ينتبه ، مدفوعاً بتيار الاحداث حدود اتوازن أو حدود قوته الذاتية . وقد يحدث أحياناً ان يجد المهاجم نفسه مدفوعاً بفعل القوى المعنوية الذاتية للهجوم ، ان من السهل عليه ان يتابع تقدمه ، بالرغم من الانهالك والارهاق الذي تعائيه قواته .. على المدافع ان يأخذ ذلك بنظر الاعتبار في توقيت هجومه المضاد .

١٠- وتعتبر الغزوات الثلاث لروسيا من قبل شارل الثاني عشر ونابليون ، وهتلر أمثلة بارزة على صحة هذا المبدأ ، والتفاوت بين المعرفة والقدرة (أي بين الفهم والتنفيذ) الى الحد الذي يجعلنا ان نتساءل بأستغراب عن السبب الذي حدى بأثنين من اعظم استراتيجيي العالم (نابليون وهتلر) الى تناسي هذه الدروس التي استخلص من فشل سلفهما (شارل الثاني عشر) وكيف كان بمقدور خصومهما ان يترددوا في اختيار التي يجب ان تواجه الغزو ...

والغريب حقاً أنه لا يوجد من بين أولئك الثلاثة الذين هاجموا روسيا، واحد لم يكن يعتقد انه قادر بعبقريته وموهبته الفذة على تذليل كل الصعوبات والمشاق التي تعترض مثل هذا المشروع ... وكيف كان بمقدور شارل الثاني عشر ، ان يتردد في (بولتافا) وبشك في عبقريته وطاقته جيشه الذي سحق به كل الجيوش التي كان يجمعها قيصر روسيا بطرس الاكبر؟ . وعندما دخل نابليون الحرب كان يعلن مؤكداً على انه لن يقترب خطأ شارل الثاني عشر .. وكذلك الدعاية الالمانية ، لم تتردد عن التأكيد بأن هتلر لن يقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه نابليون وشارل الثاني عشر .

أما اليوم وبذهن صاف واعصاب هادئة ، يمكننا أن نرى بكل وضوح، عدم ادراك هؤلاء الغزاة ، مضمون فكرة « نقطة الذروة » او الحد الاقصى

للهجوم » • وحاولوا العمل ضدها •• أن لهؤلاء الفاتحين الغزاة عذراً على الأقل ، وهو أن مشروعاتهم لم يكن يتضمن حلاً آخر ، غير الحل الذي حاولوا استخدامه •

لقد فهم نابليون جيداً ، أن الفشل النهائي لشارل الثاني عشر ، كان ناجماً عن تطبيق المتقطع لجهوده خلال سلسلة المعارك المتتالية ، لتلافي هذا النقص ، جمع أعظم الجيوش وأضخمها في جيش واحد لغرض حسم هذه المشكلة ••• إلا أنه أهمل تحصين مواقع قوية واقامة مستودعات تموين على طول خطوط مواصلاته ، الأمر الذي كان سبباً مباشراً في انسحابه الذي أدى الى وقوع جيشه في كارثة مروعة ••

أما هتلر الذي قرأ كتاب كلاوزفيتز عن معارك عام ١٨١٢ فإنه تجنب على الأقل الملاحظة الجدية التي وجهها كلاوزفيتز لقيادة الغزو من قبل الامبراطور نابليون ، وهي اهمال مواقع قوية ، واقامة مستودعات كما مر ذكرها ••• ففي هذا المجال نجح هتلر نجاحاً باهراً في ابتداعه اقامة «مواقع قنفيذية» ، يرجع اليها الجيش الألماني بعد فشله أمام موسكو •• « ويقصد بهذه المواقع ، الدفاع الى جميع الجهات ، ضد اندبايات والمشاة والطيران » •• ومن المفروض أن هذه المواقع ، دفاعات متحركة ، وقد ارتكب كثير من العسكريين أخطاء في تصميمها ومنهم هتلر •• اذ فهموها على انها دفاعات ثابتة في كل الاتجاهات ، مع أن تسميتها نسبة الى القنفيذ، تدل على انها متحركة ، لان القنفيذ حيوان متحرك ، يقف للدفاع كقلعة محصنة في كل الاتجاهات فترة مؤقتة ثم ينحرك الى مأوى او مكان آخر يقدم له حماية افضل •• هذا ما لم يفهمه هتلر •• فجمد تلك المواقع القنفيذية في اماكنها ، ولم يستطع هضم فقدان بضعة كيلومترات من الارض المحتلة والانسحاب الى خلف نهر فستوله ، بعد ان استطاعت تلك المواقع ان تقاوم شتاء عام ١٩٤١ - ١٩٤٢ •

على ذلك فان الحكم الذي أصدره (كلوزفيتز) على نابليون ينطبق على شارل الثاني عشر ، كما ينطبق على هتلر .. لقد كتب كلوزفيتز بهذا الصدد قائلاً « ان هذه المعركة لم تفشل لأن نابليون تقدم بسرعة كبيرة متوغلاً الى مسافات بعيدة كالاعتقاد الشائع . وليست الامبراطورية الروسية من البلدان التي يمكن احتلالها حقاً او الحفاظ عليها محتله .. فمعركة ١٨١٢ لم تنجح بفضل صمود الحكومة وصمود الشعب واخلاصه لها ، وثبات جأشه ، ولانها لا يمكن ان تنجح .

ومن المحتمل ان يكون بوناپرت قد ارتكب خطيئة كبرى بمهاجمة روسيا ، الا ان نتيجة المعركة قد برهنت على الاقل بأنه اخطأ في حساباته .. ولكن علينا ان لا ننسى لو قبلنا بضرورة هذا الهجوم لوجدنا انه لم يكن من الممكن قيادته بصورة اخرى لبلوغ هدفه .

١١- بالنسبة للمبادئ العسكرية والحكمة النظرية المتضمنة فكرة نقطة الذروة للهجوم ، يعتبر أحسن رد فعل وافضله هو رد فعل المدافع ، وليس رد فعل المهاجم ، سيما اذا اندفع في معركة لا مصير لها .. وبالنسبة لمن يرى بصورة عامة شاملة ان يملك المدافع من الذكاء مايتيح له جر خصمه الى مابعد « نقطة الذروة » لهجومه ، يحددها بالحس السليم والحكمة والمعرفة لتشكيل قتال الخصم واسلوب قتاله .. وان يستفيد الى أقصى مايمكن من انقلاب ميزان القوى لهذه المناورة .

١٢- ويكون من الحق بعد دراسة هذه الامثلة البارزة أثارة التساؤل التالي :-

ليس هناك بلد يتمتع بمساحات شاسعة مشابهة لمساحات روسيا وابعادها ، ومن النادر وجود دولة هبتها الطبيعة بخط للتراجع على ٨٠٠٠ كم من حدودها .. فهل نستنتج من تلك الامثلة ، ان الوسيلة الوحيدة لمقاومة غزوات هجومية قوية كهجوم شارل الثاني عشر ونابليون وهتلر ، هو

الانسحاب الى مسافة ألفين او ثلاثة الاف من الكيلومترات عن الحدود ،
وهو أمر ليس في متناول كل الدول ولا في قدرتها ؟••

ان لدى الفن العسكري في رأي كلاوزفيتز وسائل أخرى ، فبالرغم
من أن هذا الفن يمتنع عن اعطاء صفة عامة يستخدمها القادة الحربيون
الذين لا يتسمون بالخيال وصفاء الذهن •• فهو لا يخفي ميله نحو المناورة
التراجعية المتبوعة بهجوم ضد جناح الخصم المتقدم •• لقد طبق (جوفر)
هذه المناورة على (المارن) عندما قذف بجيش غاليني على جناح الجيش
الالمانى ، بعد أن انسحب امامه ابتداء من شارلروا •

أن مفهوم «نقطة الذروة» هذا المفهوم الاساسي بالنسبة للمهاجم
العاقل والمدافع الحاذق ، يمتد على مساح عمليات ، أبعادها أقل بكثير من
ابعاد مسرح عمليات الاتحاد السوفيتي - وان تجربة الجنرال (ماك آرثر)
عن محاسن المناورة بهدف اضعاف الخصم ، تساوي وتوازي مناورة ستالين
لان مناورة ماك آرثر التراجعية ، قد نفذت الى جزر سليمان ، والى غينيا
الجديدة أي على مسافات تقل بكثير عن المسافة بين الحدود الالمانية -
وستالينغراد •

لقد قام ماك آرثر بهذه المناورة التراجعية التي تمت طبقاً للمسافات
التي حددها (كلاوزفيتز) - وهي (من ١٠ - ١٥ كم) لامتصاص هجوم
فرقة ومن (٣٠ - ٥٠ كم) لامتصاص هجوم فيلق وحسب طبيعة الارض •
أن تطبيق مفهوم «نقطة الذروة» في الهجوم على استراتيجية الحرب
الجبلية يفسر بصورة صحيحة الانتصارات والهزائم التي منيت المناورة
الفرنسية في الهند الصينية ، وتفسير ذلك :-

أن للعمليات في المناطق الجبلية بصورة عامة ، هدفا هو الحفاظ على
حدود تتبع معظم الاحيان خط الذرى ، ولكن نظرية «نقطة الذروة» تثبت
أنه ينبغي ان لا ينظم الدفاع على مقربة من خط الذرى في السلاسل الجبلية،

وانما من الواجب أقامته في السهل الواقع خلف السلسلة ، أي على السفح الصديق (السفح المعاكس) لان تفسير هذه النظرية يستند الى تضخيم عامل المسافة واطالتها ، بسبب صعوبات الارض ووعورتها ، ويعني هذا أن الدفاع في السفح المعاكس ، يجعل نقطة الذروة للهجوم تصل حدودها القصوى بعد عبوره خط الذرى ، او أثناء القتال في السفح المعاكس، وعند وصول تقدمه السهل يكون قد استنزف قوته الذاتية ، وطالت خطوط مواصلاته عبر ارض وعرة ، فيصعب عليه الامداد والتموين ، عندئذ يسهل القضاء عليه بهجوم مضاد ...

ان الدفاع عن لاووس أثناء معارك الشتاء ١٩٥٣-١٩٥٣ بمعسكرات محصنة واقعة على وادي الميكونغ خلف الحدود جعل الفيت - مينة عاجزين عن احتلال البلاد .. وعلى النقيض من ذلك ، خلال معارك ١٩٥٣-١٩٥٤ عندما أراد الفرنسيون بخطة دفاع طموحة اكثر للدفاع عن لاووس على حدودها بأقامة دفاعات وقلاع محصنة في (ديان بيان فو) على السفح التونكين (السفح المعادي) انتقلت كل محاسن الارض الى الفيت - مينة، فقصرت خطوط مواصلاته ، وان الهجوم المقابل ضد الفيت - منه ، تم قبل بلوغ هجوم الخصم حدوده القصوى ، فشلت جميع الهجمات المقابلة وسقط ديان بيان فو ، وبسقوطه سقطت فيتنام الشمالية كلها وضاعت ، لان الفرنسيون لم يقبلوا هذا التخلي البسيط عن الارض الذي نصح به (كلاوزفيتز) ولم يفهموا ذلك ابدأ ، لان الرأي السائد آنذ والذي لا يزال سائدا حتى اليوم يتعارض كل التعارض مع العقيدة الكلاوزفيتزية هذه .

١٣- ويمكننا الاستخلاص من هذا السرد التفصيلي لابعاد هذه النظرية المدعومة بالوقائع التاريخية ، مايلي :-

١ - أن خسارة بضعة كيلومترات من الارض ، لغرض تطبيق المناورة التراجعية ، متبوعة بالهجوم ضد جناح الخصم المتقدم يعتبر كمقدمة لصفقة رابحة فيما بعد .

- ب - أن فكرة الدفاع السيار (Mohil Difines) - ليست أكثر من نشاط إيجابي لاضعاف الخصم ، بعمليات الصد والحصر والتراجع المسيطر عليه ، للمسافات القياسية المسموح بها ، الى المواقع المحصنة سلفاً ، بغية ايصال هجوم الخصم الى حدوده القصوى «نقطة الذروة» عند وصوله الى ارض القتل المنتخبة ، ومن ثم توجيه الضرب المقابلة له بعد انقلاب ميزان القوى وتدميره .
- ج - وكما ان استراتيجية الدفاع المتحرك او كما يسميه البعض بالدفاع الفعال Active Defense ، تتضمن اعمالاً ، تؤدي الى اختزال قوة العدو المادية والمعنوية ، بتوجيه ضربات قوية ، ومتلاحقة له ، في مناطق التحشد ، ومواضع الاجتماع ، ولكن لا يستهدف منها احتلال الارض ، والاحتفاظ بها ، مما تؤدي تلك الضربات الى ايصال الخصم الى حدود قوته الذاتية بوقت قصير ، وبأقل مسافة من التقدم .
- د - وفيما يتعلق بالحروب في الاراضي الجبلية الوعرة ، فان انتخاب المواضع الدفاعية الرئيسية في السفح الصديق (السفح المعاكس) ، يعتبر تطبيقاً مثالياً لفكرة «نقطة الذروة» .
- هـ - وفي النهاية ، نستطيع التأكيد بصورة جادة على انه لا يكون من الحكمة اطلاقاً ، وعلى جميع المستويات ، في سلم القيادة ، القيام بالهجوم المقابل ، قبل التحقق من ان هجوم الخصم قد وصل الى قوته الذاتية « نقطة الذروة » او مناورته الاستراتيجية الى حدودها القصوى ، مع ملاحظة حدوث تبدل الموقف ، اغلب الاحيان عندما يقطع المهاجم تقدمه اضطراراً ، ليتحول الى الدفاع ، آتئذ ينبغي العمل على تجنب البطء وفسح المجال له لترصين مواضعه وتعزيزها .

الفصل التاسع عشر

حرب الأزارار

الفصل التاسع عشر

الملحق (ب)

الفكر وحرب الازرار

بعد أن غزت الحرب كافة ميادين الحياة البشرية ، الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية والنفسية ، أصبحت تستخدم مختلف الوسائل والوسائط والطرائق لتحقيق أغراضها .. وبأختصار كما قال كلاوزفيتز « ان الحرب لا تخص ميدان العلوم والفنون ، ولكنها تخص الوجود الاجتماعي ، انها نزاع بين المصالح الكبرى يسويها الدم ، وبهذا فقط تختلف عن النزاعات الاخرى » .

وكما أن مهنة الحرب أصبحت من اصعب المهن وأشقها على الاطلاق .. وكانت هذه المهنة صعبة جداً منذ القدم ، ولكنها أضحت اصعب بكثير في أيامنا هذه ، وذلك بعد ان دخلت فيها عوامل متعددة ومتشعبة ومتسعة ، وبعد ان تضخمت تلك المصالح الكبرى المتشابكة والمتناقضة في معظم الاحيان ، مما دفع الفكر البشري الى ابتداع انواع الاسلحة الفتاكة ذات قوة تدميرية هائلة والمعدات التقنية المتقدمة .

فبينما قدمت تلك الوسائل التقنية المتقدمة بعض التسهيلات للقائد الحربي من جهة ، زادت من صعوبات ادارة العمليات وقيادة الجيوش من جهة اخرى ..

وقد وصف الجنرال ديفول ، العمل الحربي في كتابه (حد السيف) وبرهن على اتسامة بصفة عدم الاستقرار وتعرضه للتبدل والتنوع ، واعتبر هذه الصفة هي التي تصنع صعوبة التفكير وعظمته .. اذ يضطر الذكاء والخيال الى سبر اغوار المجهول في هذا المجال ، والى القيام بمحاكمات فكرية تخرج عن سبيل المألوف ، في حل المعضلات التي تفاجئ القائد، اذ لا يكاد الذكاء ينكب بالطرق المألوفة على حل بعض المشكلات ، حتى تقاطعه بعض التفاصيل « فيرى عنصراً من عناصر الموضوع يفلت منه او حدثاً من الاحداث يخيب أمله ، ولا يستطيع مصباح الذكاء ، أن يلقي على الاسباب المتعددة الغامضة الا بعض الضوء الخافت ، وينساب سيل الظروف المتحركة المضطربة من شباكه كما ينساب الماء من شبكة الصيد .

ان العدو عامل متبدل ، يتطور باستمرار ، وما يُعرف عنه في لحظة قد يتغير ويتبدل خلال ساعات ، ولا يمكن لذكاء القائد مهما كان قويا ، ان يكشف بدقة وتأكيد ماهيته وشكله وافعائه الحالية والمتوقعة ولهذا تلجأ القيادات باستمرار الى التحليل المشترك - وعملية تحليل هذه تسمى باللغة العسكرية (تقدير موقف الاستخبارات) الذي يشترك فيه عدد كبير من الضباط من مختلف شعب الاركان لمتابعة كل تحركات العدو ، وجمع كل المعلومات عنه ، لغرض الخروج بحصيلة تسمح بمعرفة نوايا العدو وتحركاته .

ولكن انخفضت هذه الصعوبة على الاقل في ميدان المعركة بالنسبة للدول المتقدمة ، في العصر الحالي ، بفضل المعدات الالكترونية والسريرية « الحاسبات والرادارات الارضية والمحمولة جواً والاقمار الصناعية ... الخ » . ولكن وفي الوقت نفسه ظهر معها نوع اخر من الصعوبات ، غير من شكل المعضلات وطبيعتها .. أذ ان ادارة مثل هذه المعدات بحاجة الى اختصاصيين يعتمد عليهم القائد الحربي (صانع القرار)

فأن المعلومات المتناقضة والخطئة الآن يكتنفها شكوك من نوع آخر تكون في الغالب تقنية ، فضلا عن الشكوك المتأنية من تناقض المعلومات وغموضها الناجمة عن اختلاف مواقع الرصد ومراكز جمع المعلومات ، والكفاءة التقنية للعاملين .

من هنا نجد اليوم الاصوات مرتفعة ، تعبر عن المخاوف من اندلاع الحرب الكونية ، بسبب ارتكاب اخطاء تقنية محضة ، فالمحاولات جارية لحد الان دون جدوى ، للتغلب او التلافي مثل هذه المعضلة الصدفية وتجنب مخاطرها المحدقة .

ولهذا فقد يحذر العقيد ميكشه (وهو احد اساتذة فن الحرب في كلية الحرب العليا في البرتغال وأحد التقاد العسكريين المشهورين في العالم)^(١) من صفة العسكري (الحديث) الذي اصبح يستخدم الاضرار بدلا من سلاحه الشخصي بصورة غريزية ، ويراقب الشاشة الصغيرة بدلا من الاستطلاع الشخصي لميدان المعركة الحقيقي ، ويحاول حل المشكلات المعقدة للاستراتيجية بوسائل ينقصها المرونة، برغم من قوتها ومداهها وسرعتها، او بسبب هذه الصفات ، للتلاءم مع اوضاع مختلفة ومتبدلة في الحرب . فالرغبة في رفع مستوى الجيوش الى اخر مستوى وصلت اليه التقنية الحديثة ، يؤدي الى صيغ ميكانيكية ميتة قابلة للمناقشة بصورة عملية في ادارة العمليات ، وقابلة للمناقشة بصورة اكثر ، عندما يراد منها دعم سياسة من السياسات بالمعنى الدولي لهذه الكلمة أذ تحاول الدول الكبرى التي حصلت اليوم على اكبر تقدم ، وضع قواعد ثابتة لاحوال غير ثابتة ، وتحاول الحصول على حرية العمل ضمن اطار وحدود من « المعايير » وهذا

(١) كتاب آراء في الحرب - تأليف اكرم ديري ص ٦٤ منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت .

يقود الى وضع خطط ، قد تبدو منطقية لاول وهلة ، غير انها « تتناقض وتتعارض » مع آلاف التجارب .

ويضيف العقيد ميكشه « يبدو انهم (الدول الكبرى) لم يفهموا حتى الان أن التقنية ليست هدفا في حد ذاتها ، بل أنها وسيلة لتحقيق غرض من الاغراض ، فهم يحاولون ان يردوا على القنابل ذات الطاقة التدميرية الهائلة بقنابل اخرى اكثر طاقة منها ، وعلى الطائرات السريعة بطائرات اسرع وعلى الصواريخ الموجهة باخرى قادرة على اعتراضها او سبقها بمئات الكيلومترات ، وهم ينسون ان « الانسان هو معيار كل شيء » وقد غاب عن اذهانهم ، ان معظم الحروب تنفجر مستقلة عن التقنية وبالتالي فانهم لا يستطيعون حل كل المعضلات بوسائل التقنية الحديثة فقط » .

فاذا كان من الطبيعي ان تطبق التقنية في كل نشاطات الحياة ، فأن تطبيقها في الميدان العسكري ، مع المبالغة والتطرف ، يؤدي بسهولة الى ارتكاب أخطاء ممتة . فانتصار المادة على الفكر قد أخط بفن الحرب الى المستوى « التقني » وهبط بالاستراتيجية الى مستوى آلي عادي ، « فالروتين التقني » يحل الان مكان الذكاء الخلاق ، ولم يعد الجنود المقاتلين محاربين أشداء ، بل انهم اصبحوا اختصاصيين في استخدام بعض الآلات والادوات . ان العقل الالكتروني هو الذي يزود اليوم الجنرالات النوويين الذين يتابعون معاركهم على الشاشة الصغيرة - المادة اللازمة - لقراراتهم . ويراقب «المقاتلون» الذين يتمتعون بأختصاص رائع في استخدام الرادارات ويرقبون السماء من الارض - والارض من السماء ، على حين يوجه جنود اخرون الصواريخ ضد المهاجمين . فالقتال بالنسبة لهؤلاء الجنود عبارة عن مراقبة مصايح متعددة الالوان ، وادارة الازرار، والضغط عليها .

ولكن ماذا يحدث لهؤلاء المقاتلين لو ان بعض الجنود المعادين المسلحين بالسكاكين ، تسللوا الى مراكزهم ؟ ماذا تفيدهم عندئذ كل هذه التقنية...؟ أن (ميكشه) لا ينادي بالاستغناء ، بالطبع ، عن الرادارات وعن الصواريخ الموجهة او الطائرات أو المعدات الاخرى ذات الازرار ، ولكن ينبه فقط الى ان « تقنية » الجيوش تخلق نموذجا من الجنود أقل مستوى من المقاتل الحقيقي ، فيما يتعلق برباطة الجأش ، وقوة تحمل المشاق والانتعاب والآلام التي تتطلبها الحرب .. حيث يقول : وما لا شك فيه ان تزويد المحارب بالآلات الملائمة تضاعف احتمالات نجاحه ، وتنمي بالتالي ثقة الجندي بأسلحته . غير ان المعنويات شيء اخر ، غير الشعور المبالغ بقيمته ، هذا الشعور الذي يتحول فوراً الى عقدة نقص عندما يتعرض لاختفاق حتمي ومؤكد . فالمعنويات الحقيقية في نظر هذا الناقد الكبير لا « تشتري » بميزات العتاد والتحسينات الطارئة عليه ، وكما أشار الى ذلك (سوفاروف) « ان الرفاه يقلل من الشجاعة » ولكن هنالك ملاحظة مدعومة بالتجربة ومخالفة لهذا الرأي ، وهي ان العتاد والسلاح المتطور والمتفوق يدعم المعنويات ويقويها ..

صحيح ، ان جنود المشاة الذين يتحولون الى ركاب في سيارات الجيب يصبحون كسالى ، وتتجه قيادتهم عند ذلك الى مطالبة الآليات بجهود اكبر من الجهود البدنية التي تطالب بها جنودها ، فمن السهل جداً نقل مشاة مدربين على المسير راجلا لمسافات طويلة في آليات ، طالما كان ذلك ضروريا الا ان العكس صعب جداً ، ولكن ذلك لا يعني ظهور صعوبات جديدة باستخدام الآليات ، بل على العكس من ذلك فان ظهورها أضاف وسيلة اخرى مجدية لرفع فن الحرب الى درجة اعلى ، لانها زادت من السرعة التي هي روح الحرب ، عندئذ لا يتطلب الامر اكثر من الاستمرار في تدريب جنود المشاة على السير راجلا لمسافات طويلة ، وباستمرار .

ويقارن العقيد (ميكشه) بين جنود الماضي والحاضر ، بصورة مضللة، فيرى ان الجنود السابقين لم يكونوا يعتبرون أنفسهم بؤساء ابداً ، فقد كانت القطعة تسود مكان روح الفردية ، وكانت المصالح الذاتية تمحى وتضمحل امام المصلحة الجماعية .. فقد كان الجنود يربون على احترام التقاليد ، وعلى الاعتزاز بقطعاتهم ، الامر الذي جعلهم يتغلبون على كثير من الصعوبات النفسية .

ومع صحة هذا الرأي جزئياً ، فإن التقاليد لا تتعارض مع التقدم أبداً كما يقول ميكشه نفسه في مكان اخر ، ولا يؤدي بالضرورة الى انخفاض روح القطعة ، وانحصار المصالح الجماعية أمام المصالح الشخصية بسبب توفر وتنوع وسائل التقنية للجنود العصريين ، وينبغي ان يرتبط التقدم بالتقاليد كحل ميسور ، وفي متناول اليد ، هذا ولا نعتقد بوجود جيوش تنكر ماضيها لتبني مستقبلها على ارضية جديدة كل الجدة ، حتى تصاب بمركب نقص ، كما يظن ذلك ميكشه في معرض حديثه عنه .

اذن يتوقف الامر على الاعداد الصحيح للجيش العصرية ، فلا بد للجندي من ان يؤمن بفكرة توحى له بالاندفاع والاستبسال مع بث روح الجماعة فيه والاعتزاز بالقطعة التي ينتمي اليها ، وتمنيه روح القتال فيه الى جانب اختصاصه التقني ..

فالحرب صراع في سبيل مصالح الجماعة التي ينتمي اليها الجندي ، عندئذ يكفي أن يشعر الجندي بانه أنما يخوض حرباً عادلة ومشروعة من اجل قضية كبرى تهتم الجميع .

وبظهور استراتيجية الردع النووي ، وابتداعات التقنية المتطورة للأسلحة والمعدات ، لا تقتضي الضرورة الى تنمية روح القتال الى جانب الاختصاص التقني فحسب ، بل تغدو الحاجة ملحة لمد الانظار نحو مجال

عمل اكبر من عمل الاسلحة والمعدات الحربية ، الى مجال «الفكر» الذي
يبتدع المادة ويقودها ، كما يقود السياسة والاقتصاد والحرب ... لذا
كما قال (غيتون) وسبق وان اشرنا الى قوله هذا : ان رجل السياسة ورجل
الحرب ورجل الاقتصاد ، كالفيلسوف والرجل العادي ، أحسوا جميعا
بأنهم معنيون بالحرب المحتملة ، فمن واجب الجميع الاهتمام بالاستراتيجية،
عليه فقد اتجهت الانظار في العصر الحالي نحو دراسة العلاقة بين الفكر
والاستراتيجية ، والحرب بمختلف اشكالها ، التقليدية ، والنووية ، وحرب
الازرار او كما يسميها البعض (بالحرب الالكترونية) ، وحرب النجوم
التي عبارة عن مزيج من الحرب النووية والالكترونية والاشعاعية •

المصادر

ت	الكتاب	المؤلف	الترجم او دار انشر
١ -	في الحرب	كارل فون كلاوزفيتز	اكرم ديرى والمقدم الهيثم الايوي
٢ -	الوجيز في الحرب	كـذا	كـذا
٣ -	آراء في الحرب	اكرم ديرى	المؤسسة العربية للدراسات والنشر
٤ -	الذكاء والقيم المعنوية في الحرب	الجنرال جان بيريه	اكرم ديرى والهيثم الايوي
٥ -	الفكر والحرب	جان غيتون	كـذا
٦ -	الاستراتيجية	ب. ه. ليدل هارت	الهيثم الايوي
٧ -	وتاريخها في العالم	كـذا	اكرم ديرى والهيثم الايوي
٨ -	القادة الالمان يتكلمون	كـذا	اكرم ديرى
٩ -	الاختيار الصعب بين الهجوم والدفاع	كـذا	اكرم ديرى
١٠ -	مدخل الى الاستراتيجية العسكرية	الجنرال اندريه بوفر	كـذا
١١ -	استراتيجية العمل	كـذا	المقدم الهيثم الايوي
١٢ -	الردع والاستراتيجية	كـذا	واكرم ديرى
١٣ -	التفسير الاسلامي للتاريخ	كـذا	كـذا
١٤ -	السبيل الى القيادة	د. عماد الدين خليل	العميد الركن مصطفى حسن
١٥ -	مذكرات المارشال مونتغمري	المارشال اللورد مونتغمري	فريد جبر
١٦ -	الامير	كـذا	خيري حمادي
١٧ -	بحوث ودراسات عسكرية	نيقولو ميكافلي	دار المريخ للنشر - الرياض
١٨ -	ادارة الحرب	العميد الركن يوسف ابراهيم سلوم	اكرم ديرى
		الجنرال ج. ل. فولر	

- ١٩- السوق الأكبر جون ام كولينز اللواء الركن علاء حسين
مكي خماس
- ٢٠- الاستراتيجية العسكرية مجموعة من الجنسالات
السوفيت باشراف المارشال ف٠ د
العميد الركن عبدالرزاق
الدردري سو كولوف
- ٢١- منبع الاخلاق والدين بيرغسون
٢٢- رواد الاستراتيجية ادورد ميدايرل
الحديثة
- ٢٣- من العدوى الثورية الجنرال اندريه بوثر
الى الحرب النووية المشير اريش فون مانشتاين
٢٤- انتصارات ضائعة العقيد الركن فاروق عمر
الحرييري
- ٢٥- التكنولوجيا والحرب الميجر جنرال ج ف فولر
الحديثة دار القلم - المكتبة العربية -
بيروت
- ٢٦- تاريخ فن الحرب الجنرال ستروكوف
الجزء الاول والثاني العميد الركن طه ماضي
٢٧- الحرب والسلم العميد اركان حرب علي
٢٨- تبسيط الاستراتيجية فهمي عبدالستار
دار الفكر العربي - القاهرة
- ٢٩- قائد اليانزر الجنرال هاينز كودريان
الجزء الاول والثاني الجمهورية العربية المتحدة
مطبعة القوات المسلحة
دار الاندلس للنشر بيروت
- ٣١- الفلسفة المؤسسية الجنرال جياب
٣٢- حرب المقاومة ركس نايت وماركيت نايت دار الاداب - بيروت
الشعبية
- ٣٣- المدخل الى علم النفس ادور جونو
الحديث د٠ عبد علي الجسماني
- ٣٤- ادارة الحرب الخيز ج ف فولر
٣٥- العتيدة اشرفية محاضرات كلية الاركان
ترجمة اكرم ديربي
الرائد الركن عزيز قادر

(فهرست)

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة المؤلف
٩	الجزء الأول
١١	الفصل الأول
١٣	الفكر والحدث
٢٠	الجدلية (الديالكتيكية) والحرب
٢٥	الفصل الثاني :
٢٧	الفكر والحرب
٣٠	الحرب كفكرة
٣٢	صفات الفكر العليا
٣٤	خصائص الفكر ووظيفته في الحرب
٣٥	طبيعة المعارف الضرورية في الحرب
٣٦	غذاء الفكر
٢٧	لم لا يكون القائد الحربي عالماً
٢٨	تطابق المعارف مع الرتبة
٢٨	تحول المعرفة الى الإرادة
	الفصل الثالث :
٤٢	الفكر والقيم المعنوية في الحرب
	الفصل الرابع :
٤٦	الفكر والفضائل الحربية
٤٧	الفكر والعبقرية الحربية
	الفصل الخامس :
٥١	الفكر والشجاعة العسكرية
٥٣	الأصل الفردي والاجتماعي للشجاعة العسكرية
٥٥	أسس الشجاعة العسكرية
٥٨	أنواع الشجاعة العسكرية
٢٦٩	

الفصل السادس

- ٦٢ الفكر والأقدام
٦٤ الأقدام وعلاقته بالفكر
٦٧ الأقدام والشجاعة
٦٨ الأقدام والتصميم

الفصل السابع :

- ٧٢ الفكر - والحزم والصمود في الحرب
٧٤ الصمود - وقوة النفس او قوة الشعور
٧٥ الصمود وقوة الارادة
٧٩ الصمود وقوة الشخصية (او الشخصية)
٨١ الصمود والعناد

الفصل الثامن :

- ٨٥ الفكر - والمزاج وأثرهما في الحرب
٨٩ حضور البديهة

الفصل التاسع :

- ٩١ روح الجماعة او القطعة او الوحدة
٩٢ انتقال الاحاسيس والافكار من الفرد الى الجماعة
٩٥ اسباب ميلاد روح الجماعة او القطعة او الوحدة
٩٧

الفصل العاشر :

- ١٠٣ الفكر وفضيلة القيادة في الحرب
١٠٥

الفصل الحادي عشر :

- ١١٧ اثر القدر والحظ - والصدفة والشك في الحرب
١١٩ اثر القدر والحظ في الحرب
١٢٣ اثر الصدفة في الحرب
١٣٠ اثر الشك في الحرب

١٣٥	الجزء الثاني
	الفصل الثاني عشر :
١٣٧	الفكر والنظرية الحربية
١٣٩	صعوبات النظرية الحربية
١٤٤	نشوء النظرية الحربية وتطورها
١٤٩	نحوى النظرية الكلاوزفيتزية
١٥١	تعديل النظرية
١٥٥	الفصل الثالث عشر :
١٥٧	الفكر - والنظرية الاستراتيجية (السوقية)
١٦٣	الفصل الرابع عشر :
١٦٥	الفكر - والاستراتيجية (السوق)
١٨١	الفصل الخامس عشر :
١٨٣	اقسام الاستراتيجية وشمولها
١٨٤	١ - الميتاستراتيجية
١٩٢	٢ - الاستراتيجية الشاملة او العليا او القومية
٢٠٠	٣ - الاستراتيجية العسكرية (البحتة)
٢١٤	٤ - استراتيجية المعركة
٢٢٣	الفصل السادس عشر
٢٢٥	انواع الاستراتيجية
	أ - الاستراتيجية المباشرة وغير المباشرة
	ب - الاقتراب المباشر وغير المباشر
٢٢٩	الفرق بين التقرب غير المباشر والاستراتيجية غير المباشرة
٢٣٣	الفصل السابع عشر (الخاتمة)
٢٣٩	التذيل
٢٤٣	الملحق (١) نقطة الذروى في الهجوم والحد الاقصى للمناورة
٢٥٩	الملحق (٢) الفكر وحرب الأضرار
٢٦٧	المصادر
٢٧١	

رقم الابداع في المكتبة الوطنية - بغداد
(٢٥١) لسنة ١٩٨٨

Fedex

دار الحرية للطباعة - بغداد
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م